الدوحة

ملتقى الإبداع العربي والثقافة الإنسانية

العدد 177 أغسطس 2022

www.dohamagazine.qa

غريتا ثونبرج، مجيب لطيف وبرونو لاتور:

على أي أرض سنحيا؟

سفيتلانا أليكسيفيتش:

مخاطر العظمة

كيف يُشكّل الواقع الافتراضي عالمَنا؟

الذكريات الهشة تعيد برمجة الذاكرة

تفكيك الأفكار المبتذلة حول العباقرة

أيّ مستقبل للكتابة الأدبية؟

جاك دريدا

الوضوح الذي حاولت أن أعقّده

الدوحة 177 AL-DOHA MAGAZINE السنة 15 - العدد 177 - محرم 1444 - أغسطس 2022 Year 15 - No. 177 - Muharram 1444 - August 2022

مُلتقى الإبداع العربي والثقافة الإنسانية



كانت حرباً بالكاميرا ومازالت!

في أَوْج الانتشار الإمبريالي على بلاد الشرق باحتلال نابليون لمصر عام 1798، وفشله بُعيد ذلك في ضم فلسطين، قرَّرت فرنسا ومعها بريطانيا استقطاب نوعٍ آخر من العسكر المُسالمين. ففي هذه الآونة كانَ المُصوِّرون قد بدأوا في إبهار العَالَم الأوروبي بصندوق لويس داجيير الفوتوغرافي، ولأنه وسيط ناقل للشخوص والأماكن أفضل من خيال الرسامين، باتت الصورة على قدرٍ من الأهمية العسكرية وإستراتيجيتها على مدى التَّاريخ الاستعماري.

وسواء تعلَّق الانتشار شرقاً أو غرباً، كانت الصورة لا تخرج عن إطارها الأحادي، مؤكِّدةً بذلك نظرة أوروبا إلى الآخر بوصفه ما قبل أوروبا، أو ما هو خارج عن جغرافيتها الافتراضية المُقسَّمة سلفاً حسب مطامع اقتصادية أو تاريخية.

ففي مصر حين كان علماء الآثار تحت إمرة نابليون يقومون بالتنقيب عن كنوز الفراعنة، وخلال عمليات المسح الأثري هاته شكَّل الفوتوغرافيون عنصراً أساسياً في البحث الأركيولوجي. وفي فلسطين، العلاقة الضاربة في القِدم جعلت الصورة سينوغرافيا للكتاب المُقدَّس، أما في بلاد المغرب العربي فكان الفوتوغرافي بوصلة سوسيولوجية تشير إلى طقوسية الدولة والشعب معاً، وعدم استيعابهما للثروات الصناعية والفلاحية المُتوفِّرة. وانتقالاً بين بلدٍ وآخر تحدَّدت مواضيع الصورة ومضامينها الاستشراقية والكولونيالية، دون أن نغفل قاسماً مشتركاً على درجة كبيرة من الاختزال والتشييء، يكمن في متخيَّل أوروبا المُتشبع بالإثارة والنزوات التي ألحقها الأدب الرومانسي بقارئه، في مؤلَّفات هوجو، وجرارد دونرفال، وفلوبير، ورسومات جون ليون جيروم، وديلاكروا، ودافيد روبرتس، وغيرهم.

ولم يكن الاتصال الروحي بالأرض المُقدَّسة البعيدة متاحاً لكنائس أوروبا، واهتمام المسيحيين بالقدس قد تجدَّد بالدراسات الإنجيلية والتوراتية المُستوفاة لشروط الإنزال، وإنما شكَّل الفوتوغرافيون المُبشرون في ذلك الوقت كتيبة الاستطلاع في فلسطين منذ أواسط القرن التاسع عشر، حيث سيتحوَّل هذا البلد الصغير، إلى أحد أشهر الأماكن في العالم، لم يتوقف الفوتوغرافيون عن تصويره حتى غدت أرض القدس ومعالمها الأثرية والدينية مألوفة في أوروبا وأميركا، تعرض صورها إلى جوار صور العواصم العالمية الكبرى.

وقد كان المُبشر الأسكتلندي "جيمس غراهام" (James Graham)، سكرتير "جمعية لندن لنشر المسيحية في أوساط اليهود، أول مصوِّر مقيم في القدس منذ العام 1853، وخلال سنوات إقامته انكبَّ على تصوير المواقع التي لها صلة بتاريخ الكتاب المُقدَّس، وبعده توافد على البلاد مئات الفوتوغرافيين للغرض ذاته، حيث كان التنسيق يتمُّ مع الجمعيات التبشيرية الداعمة عبر "صندوق اكتشاف فلسطين" المُؤسَّس في العام 1865.

ولعلّ أفظع كشف لأسرار الاهتمام الفوتوغرافي المُتزايد بالقدس هو ما أعلنه صراحة الفوتوغرافي الأميركي "دوايت ألمندورف" سنة 1901 واصفاً غرضه من الفوتوغرافيا في كتاب أسماه "حرب صليبية بالكاميرا على البلاد المُقدَّسة"، ومن هنا اتخذت الصورة طابعها المُتكرِّر المبني حسب الدراسات التاريخية على تصوير الأماكن الدينية من زوايا متشابهة، تعتمد على مسرحة المشاهد الإنجيلية والتوراتية، وعلى موديلات بشرية تجعل الصورة معرضاً للقصص الدينية، كما لوحظ أن أغلب الصور التي التقطت في كنيسة القيامة، وشوارع القدس، وبيت لحم، وطبريا، ويافا، وحائط المبكى، والناصرة... ظهرت فارغة من الفلسطينيين بشكلٍ سوق للعَالَم على أن بلاد القدس "أرض بلا شعب".

اليوم، وفي زمن عسير كالذي نعيش فصوله الغامضة في أيامنا، (أصبح عالمنا يدور أكثر فأكثر حول الصور) (ص: 14)، كما باتت حروب الصورة في ساحات أوسع، وبأدوات في متناول الجميع تجعل قيام أحد النشطاء بالتقاط صورة ونشرها مسألة هيِّنة، الأمر الذي يوهمنا بأن الصورة قد انتصرت على النص، وأن هذا الأخير لم يعد كما كان محرضاً على إحياء ملهاة نيرون وحمل قيثارته والغناء في محراب الأدب بعيداً عن النيران وعن بحر السياسة المُتلاطم!

رئيس التحرير

الدوحة

ثـقـافـيـة شـهـريـة

العدد
177

السنة الخامسة عشرة - العدد مئة وسبعة وسبعون
محرم 1444 - أغسطس 2022

تصدر عن:
وزارة الثقافة
إدارة الإصدارات والترجمة
الـدوحـة - قـطـر

صدر العدد الأول في نوفمبر 1969، وفي يناير 1976 أخذت توجهها العربي واستمرت في الصدور حتى يناير عام 1986 لتستأنف الصدور مجدداً في نوفمبر 2007.

رئيس التحرير
خـالد العـودة الفضـلي

التحرير
محسـن العـتيقي

التنفيذ والإخراج
أحمد غزالة
فلوه الهاجري
هـنـد البنسعيد

للمراسلة والتواصل:
editor-mag@moc.gov.qa
finance-mag@moc.gov.qa
تليفون : 44022295 (974+)
فاكس : 44022690 (974+)
ص.ب.: 22404 - الدوحة - قطر

المواد المنشورة في المجلة تُعبِّر عن آراء كتّابها ولا تُعبِّر بالضرورة عن رأي الوزارة أو المجلة. ولا تلتزم المجلة بردّ أصول ما لا تنشره.

الموقع الإلكتروني
www.dohamagazine.qa

مواقع التواصل
aldoha_magazine
aldohamagazineofficial
dohamagazineofficial

الغلاف:



| تقارير | قضايا



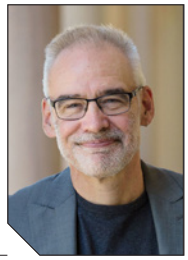
4
حديقة أفريقيا!
مقبرة الأرواح المُهاجرة
(محمد أدهم السيد)



7
من مغادرة إفريقيا إلى الحبس الكبير
الإنسان، هذا المهاجر الأبدي
(حـ: أنتوني غيون- تـ: مروى بن مسعود)



12
توين فالولا:
إنهاء استعمار الأكاديمية في إفريقيا
(حـ: أولاينكا أويجبيل - تـ: مروى بن مسعود)



14
رولان بليكر
العنف المرئيّ
(حـ: براد إيفانز - تـ: إسماعيل الموساوي)

| قضايا |

27-41



غريتا ثونبرج:
أريدكم أن تشعروا بالذعر
(إميلي بروز ت: مروى بن مسعود)

برونو لاتور
على أي أرض سنحيا؟
(حـ: سفين أورتولي - ت: عبد الله كسابي)

الحس المناخي..
شرط البقاء على قيد الحياة
(عدنان هزاع البياتي)

مجيب لطيف:
من الصعب أنْ نراهن على المُستقبل
(حـ: ماركو إيفرز ت: شيرين ماهر)

| ملفات |

44-76



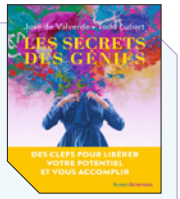
جاك دريدا
الوضوح الذي حاولت أن أعقّده
(حوارات في: الحدث، الفلسفة، الضّيافة والتفكيك...)
(تقديم وترجمة: محمد بكاي)

| أدب | فنون | مقالات | علوم | إصدارات |

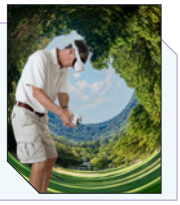
أزمة «كوفيد - 19».. في مساءلة خطاب الجائحة (محمد الدحاني) 21
الاقتصاد النسوي.. مقارَبة حديثة ومتعدِّدة (إيرين بيرثونيه - ت: رضا الأبيض) 24
عمران المليح: حالة استثنائية في الأدب المغربي (محمد برادة) 42
أمام تحدِّيات الذكاء الاصطناعيّ.. أيّ مستقبل للكتابة الأدبية؟ (إيريك هويل - ت: أحمد منصور) 102



96
إيلين أوبرست:
الذكريات الهشة تعيد برمجة الذاكرة
(حـ: سارة تومسك - ت: شيرين ماهر)



100
خوسيه دي فالفيردي:
تفكيك الأفكار المبتذلة حول العباقرة
(حـ: فيرجين بلوش-ليني - ت: فيصل أبو الطُّفَيل)



106
كيف يُشكِّل الواقع الافتراضي عالمَنا؟
مجتمعات هلامية وفوضوية!
(بيتر سودرمان ت: عبدالله بن محمد)

| حوارات | نصوص | ترجمات | قراءات |



77
سفيتلانا أليكسيفيتش:
مخاطر العظمة
(حـ: خوسيه فيرجارا - ت: عبدالله بن محمد)



83
جيتانجالي شري:
الكتاب الذي سيفلت من قبضتي
(حـ: إليزابيث جرينير - ت: ع. م)



87
ليو تسي شين يحاور هان سونغ:
أيّ من عملاقي الخيال العلمي الأثرى خيالاً؟
(ت: مي ممدوح)



93
كارل أوفه كناوسغارد:
ظمئي للكتابة لا يُروى
(حـ: فلورنس نويفيل - ت: د. فيصل أبو الطُّفَيل)

حديقة أفريقيا!

مقبرة للأرواح المُهاجرة

عندما قرأت عائشة القريشي، ابنة الفنَّان الجزائري رشيد القريشي، عَبْرَ وسائل التواصل الاجتماعي أنّ التيارات البحرية القوية قبالة الشواطئ المجاورة لمدينة جرجيس التونسية كانت تحمل كلَّ يوم تقريباً عدداً غير قليل من الجثث المجهولة لعشرات وربّما المئات من الأشخاص الذين سقطوا في مياه البَحر الأبيض المتوسط خلال عام 2018، أثناء محاولتهم الفاشلة للعبور إلى الشواطئ الشمالية مستقلين قوارب بدائية تفتقد لأدنى درجات السلامة والأمان، وأن العديد من هذه الجثث لم يتم دفنها بطريقةٍ لائقة أو لم تدفن على الإطلاق، شعرت بصدمة وحزن شديدين.

في وقتٍ لاحق من العام نفسه، زارت الابنة برفقة والدها مدينة جرجيس، وصدما لهول المشهد الذي صادفهما. يقول الفنَّان رشيد القريشي في وصف ذلك اليوم: «عندما رأيت المكان الذي يُسمَّى مقبرة الغرباء، كان ذلك بمثابة كابوس بالنسبة لي. لم أستطع تحمُّل فكرة أن الأشخاص الهاربين من الفقر وتغيُّر المناخ والحروب وحتى (كورونا)، ينتهي بهم الأمر في مكب للنفايات. ويضيف: «على الفور، قلت إننا بحاجة لشراء قطعة من الأرض لبناء مقبرة، وبما أن هؤلاء الأشخاص حُرموا من حقِّ الدفن بكرامة، سأبني مكاناً مخصَّصاً لدفنهم هنا كي يستريحوا في مكانٍ مُشرِّف».

كانت هذه الواقعة نقطة البداية للمُبادرة الإنسانية الرائعة التي خرج بها الفنَّان الجزائري والتي أصبحت تُعرف اليوم باسم «حديقة إفريقيا»، هذه البقعة من الأرض التي تقع على الساحل الجنوبي من تونس وخُصِّصت لتكون مقبرة للمُهاجرين الذين غرقوا أثناء عبورهم البحر الأبيض المتوسط، ونصباً تذكارياً يذكِّرنا بإنسانيتنا الضائعة. ولا شك أن التجربة الشخصية المُؤلمة للفنَّان رشيد القريشي الذي فقد شقيقه في عام 1962، عندما ابتلعه البحر ولم يعثر على جثمانه مطلقاً بعد ذلك، كان لها وقعٌ كبير وتأثيرٌ مضاعف للخروج بهذه المُبادرة.

في الواقع، لا أحد يعرف العدد الدقيق للأشخاص الذين يموتون للأسف كل عام أثناء محاولتهم عبور البحر الأبيض المتوسط، فالإحصائيات لا تعكس بالضرورة الواقع. إذ أن أولئك الذين لم ينجحوا في عبور المتوسط ولم يُعثر على جثثهم لا يتم تمثيلهم بشكلٍ عام في هذه الإحصائيات. ولكن التقديرات، استناداً إلى أعداد الأشخاص الذين أنقذهم حرس السواحل في جنوب أوروبا وشمال إفريقيا، تشير إلى أن المُهاجرين الذين يغرقون في البحر الأبيض المتوسط كل عام يعدّون بالمئات، وربّما الآلاف.

ما يزيد المشهد تعقيداً في جرجيس على وجه الخصوص، أن وجود مقبرة مخصَّصة لجثث المُهاجرين الذين تجرفهم مياه البحر إلى سواحل المدينة كان أمراً صعباً نظراً للواقع الاجتماعي الخاص بهذه المدينة، كما يقول السيد مونجي سليم، الرئيس الإقليمي للجنة الصليب الأحمر في مدينة مسرين. ويضيف قائلاً: «في الواقع، كانت البلدية مضطرة لدفن هذه الجثث في مكانٍ غير مناسب، لأن ملكية المقابر في هذه المنطقة تعود للعائلات فقط، حيث تملك كل أسرة مساحة خاصة بها لدفن أمواتها. وعندما تطلب من الناس بيع قطعة من الأرض لاستخدامها كمقبرة، فإنهم بشكلٍ عام يرفضون ذلك».

هذا الأمر، على أي حال، لم يمنع رشيد القريشي من المضي قدماً في مشروعه الإنساني الخاص. فبعد زيارته للمنطقة قام على الفور بشراء قطعة من الأرض بمساحة 2500 متر مربع وحوَّلها إلى مقبرة خاصة يمكن أن تستوعب نحو 600 قبر، وأطلق عليها اسم «حديقة إفريقيا». وكانت بلا شك مهمَّة شاقة ومبادرة فردية خالصة، إذ قام بتمويلها الفنَّان الجزائري بنفسه دون مساعدة من أي جهةٍ حكومية أو غير حكومية.

فردوس للأرواح المهاجرة!

على الرغم من الجانب الإنساني المُهمّ لـ«حديقة إفريقيا»، كمقبرة للأرواح المُهاجرة التي لم تجد السلام الذي تنشده على وجه الأرض، إلّا أن التصميم والبناء



رشيد قريشي، مؤسس مقبرة "حديقة أفريقيا" ▲

والجانب الفنّي كان لها جميعاً -أيضاً- أهمّية بالغة في المشروع. لم يكن الاهتمام بهذا الأمر مبالغاً به أو عبثياً، بل على العكس، كان أمراً مدروساً ومبرراً، إذ إن الهدف هو أن يحصل هؤلاء الضحايا على الكرامة الإنسانية التي يستحقونها، والتي ربّما حُرموا منها خلال سنين حياتهم. لذلك فإن «حديقة إفريقيا» كما يصوِّرها الفنَّان رشيد القريشي هي «مكان للذكرى مليء بالنباتات العطرة التي تستحضر الجنة كما تمَّ وصفها في القرآن الكريم».

ولتحقيق ذلك، بُنيت المقبرة وسط بستان من أشجار الزيتون، حيث يدخل المرءُ هذه «الجنة» كما يسمّيها القريشي، من خلال بوابة ضخمة، أشبه ببوابات القصر، مطلية باللون الأصفر اللامع في تشبيه بليغ لشمس إفريقيا الساطعة. وتتضمَّن البوابة الرئيسة بوابة أصغر منها حجماً لدخول الزوار صُمِّمت بارتفاع منخفض، ربما عن قصد لكي تدفع الزائر للانحناء عند مروره من خلالها احتراماً لأولئك الذين ذهبوا إلى البحر في رحلة شاقة للبحث عن أمل مفقود ومستقبل أكثر إشراقاً، ولكنه للأسف لم يأتِ أبداً.

يقول الفنَّان القريشي: «أردت أن يكون المدخل الرئيس مثل مدخل القصر، وعندما تفتح الأبواب تجد أجمل الأشياء التي صنعتها الأيادي السحرية لأمهر الحرفيين في المنطقة». تقودنا الممرات المكسوة بالبلاط الملوَّن والمزخرف بتصميماتها الفريدة التي تمَّ استحضارها من مدينة الحرف التونسية الشهيرة «نابل» عبر المقبرة، لتصل بنا إلى خمس أشجار من الزيتون تمثِّل أركان الإسلام الخمسة واثنتي عشرة شجرة من الكرمة تمثِّل تلاميذ المسيح الاثني عشر. بينما تنتصبُ على جانبي البوابة لوحتان كبيرتان تعملان كما يقول القريشي بمثابة «حراس رمزيين لمن يصلّون من أجل الموتى»، في إشارة إلى عائلات وأصدقاء المفقودين.

وعلى طرفي هذه الممرات تمت زراعة مجموعات من الأعشاب العطرية والعلاجية جنباً إلى جنب مع الأزهار الفوَّاحة، إضافة إلى أشجار البرتقال المُر التي ترمز إلى مشقة الموت وحلاوة الآخرة. بينما عُلِّقت في أماكن عدّة من الحديقة أكواب صفراء وخضراء، تهدف إلى جذب مياه الأمطار والطيور. ويودي الممر الرئيس بالنهاية إلى غرفة مقببة توفِّر فضاءً للتأمل ومكاناً للصلاة يجمع بين كلِّ الأديان.

ولا شك أن المُساواة بين جميع الضحايا دون تمييز أو تفريق فيما بينهم سواء في الجنس أو اللون أو حتى الدين، هي بادرة رائعة يشهد لها وعامل إضافي يؤكِّد على أهمِّية هذه المقبرة. يتحدَّث القريشي حول هذا الأمر قائلاً: «هذه المقبرة تضم جثث كل المُهاجرين سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو حتى بوذيين، فالبعض من المُهاجرين الذين تم العثور عليهم هم من بنغلاديش مثلاً، كما وعدت ربي بأن تكون كل القبور مثل بعضها ولا وجود لأي فرق».

تتضمَّن المقبرة أيضاً مسكناً صغيراً للناطور ومكتباً للطبيب، فضلاً عن مرافق الحمامات والمغاسل، ومشرحة تحتوي على أحدث المرافق للمُساعدة في تحديد الجثث المُتحللة بشدة التي تم غسلها على الشاطئ وتُركت مسبقاً لتتعفن. يقول الفنَّان الجزائري في وصف ذلك: «في البداية، أردت فقط صُنع شواهد للقبور. لكن عندما وجدت أن التعامل مع جثث الموتى



كان سيِّئاً للغاية، فكَّرت ببناء غرفة استقبال هنا، وبجوارها مباشرة مشرحة مبرّدة مخصّصة للتعامل مع جثث الموتى». ويقوم فريق العمل المُتواضع في المقبرة بالاحتفاظ بعيِّنة من الحمض النووي لكل ضحية يتم دفنها، «على أمل أن نتمكَّن يوماً ما من التعرُّف عليهم من خلال الحمض النووي الذي يوفره الأقارب»، كما يقول القريشي.

على قائمة جائزة الآغا خان للعمارة

منذ افتتاحها في 9 يونيو/حزيران من العام الماضي (2021)، كمحطة أخيرة لبضع مئات من اللاجئين والمُهاجرين الذين سقطوا في مياه البحر الأبيض المتوسط، أصبحت هذه المقبرة موضع اهتمام العديد من الشخصيات المُهمّة والصحافيين ووسائل الإعلام وكُتبت حولها المقالات في الصحف والمجلات المعروفة، من «لوموند» الفرنسية حتى «نيويورك تايمز» الأميركية. بينما وصفت المديرة العامة لليونسكو «أودري أزولاي» مبادرة القريشي بأنها «تقدِّم الجمال لأولئك الذين حُرموا من الحصول على قبر. إن لفتته تشهد على إنسانيتنا المُشتركة وتؤكِّد أن لكل شخص الحق في هذه الكرامة».

غير أن التقدير الأكبر الذي حصلت عليه «حديقة إفريقيا» كان في اختيارها مؤخراً ضمن المشاريع العشرين المُرشحة لجائزة «الآغا خان» للعمارة في دورتها الحالية (2020-2022). ورغم أن المشاريع الفائزة في هذه الدورة لم يتم الإعلان عنها بعد، إلّا أن مجرد اختيار المقبرة من بين المشاريع العشرين المُرشحة لهذه الجائزة العالمية، التي يقع مقرها الرئيس في جنيف (سويسرا) وتُعَدُّ الأكبر من حيث القيمة المادية وواحدة من أهم الجوائز على صعيد العمارة في العَالَم، يُعَدُّ أمراً على درجة كبيرة من الأهمّية والتقدير.

إلى جانب المقبرة تمَّ اختيار تسعة عشر مشروعاً متميِّزاً من 16 دولة حول العَالَم، من بينها سبع دول عربية هي: البحرين، لبنان، الكويت، المغرب، فلسطين، الإمارات العربية المُتحدة، بالإضافة طبعاً إلى تونس. ووفقاً للجائزة، قامت لجنة التحكيم العليا المُستقلة باختيار المشاريع العشرين المُدرجة في القائمة المُختصرة من بين 463 مشروعاً تمَّ ترشيحها لدورة الجائزة الخامسة عشرة، الأمر الذي يجعل من اختيار المقبرة من بين هذا العدد الهائل من المشاريع العالمية أكثر أهمّية وحضوراً. ومن المُتوقع أن يتمَّ الإعلان عن المشاريع الفائزة بالجائزة في وقتٍ لاحق من هذا العام.

والمُتتبع لجائزة «الآغا خان» للعمارة منذ انطلاقتها الأولى في عام 1977، يدرك أن اختيار المشاريع المُرشحة أو الفائزة يخضع دوماً لمعايير صارمة ودقيقة، وهي لا تتعلَّق أساساً بحجم أو قيمة المشروع المادية، بل بالدور المُهمّ الذي يلعبه في خدمة المُجتمعات المُحيطة، والفائدة الكبيرة التي يقدِّمها لمُجتمع المُسلمين عموماً، انطلاقاً من مبادئ وأفكار إنسانية سامية تقوم على المُساواة، والتعدُّدية، والحفاظ على الكرامة الإنسانية، وتعزيز قيمة الاختلاف الثقافي والاجتماعي على كافة الأصعدة. وهذا ما ينطبق دون شك على هذا المشروع الإنساني الكبير، الأمر الذي يجعله، ليس مؤهلاً للوجود ضمن القائمة المُختصرة للمشاريع المُرشحة للجائزة فحسب، بل وللفوز بها أيضاً.

وهذا ما تؤكِّده أيضاً بشكلٍ غير مباشر كلمات الروائي والأكاديمي الفرنسي-السنغالي «ديفيد ديوب»، الحاصل على جائزة البوكر الدولية، الذي كتب يقول في وصف هذه الحديقة: «من خلال جمالها، تمسك «حديقة إفريقيا» بقلوبنا وتثير إحساسنا بالظروف التي يعاني منها المُهاجرون في جميع أنحاء العَالَم وتجدِّد إحساسنا بالإنسانية المُشتركة. تؤكِّد الحديقة على أن الكرم والتضامن ليسا أوهاماً: إنهما موجودان في مجتمعات الشمال كما في مجتمعات الجنوب، وتذكِّرنا بالشيء الوحيد الذي يمنع البشرية نفسها من الغرق في سفينة جماعية ألا وهو رفض البقاء غير مبالين بمُعاناة الآخرين». بينما يختم مونجي سليم قائلاً في فيلم وثائقي قصير حول الحديقة نشر على موقع جائزة «الآغا خان» للعمارة: «بصراحة، هذه المقبرة هي تحفة فنّية، مكان غير عادي. هؤلاء الناس محظوظون لكي يجدوا الراحة الأبدية في مثل هذا المكان». ■ **محمد أدهم السيد**



من مغادرة إفريقيا إلى الحبس الكبير

الإنسان، هذا المهاجر الأبدي

كشف علم الآثار الحديث طبيعة التدفُّقات التي تسبَّبت، من قارّة إلى أخرى، في اختلاط دائم للسكّان، وما صاحبها من قمعٍ ونبذ. ومن المفارقات أن المجتمعات البدوية كانت تميل إلى الاختفاء، لكن الإنسان لم يكن، أبداً، متنقّلاً قبل القرن الحادي والعشرين. في كتابه الأخير «البشر المهاجرون.. من مغادرة إفريقيا إلى الحبس الكبير»، يتتبَّع المؤرِّخ وعالم الآثار «جان بول ديمو» تاريخ الهجرات، من العصر الحجري القديم حتى يومنا هذا، من أجل فهم أفضل للحركات الحالية، في حجمها وإكراهاتها.

هجرات اقتصادية، وأخرى مناخية، وأخرى سياسية ... لقد أظهرتم أن هذه الحركات لم تكن بسبب العولمة، وحلول القرن الحادي والعشرين. في الأساس، أسباب الهجرات هي نفسها منذ مليونَيْ سنة. كيف جاءت فكرة كتابة تاريخ الهجرات والمهاجرين؟

- كان هذا جزءاً من المشاريع البحثية التي كنت أفكِّر فيها لفترة طويلة، وفي نقاش مع «صوفي باجارد»، من دار النشر (Payot)، نضج المشروع، خاصّة أن الحملات الانتخابية المختلفة التي كانت فيها الهجرة (ليست دائماً، لأسباب وجيهة) موضوعاً أساسيّاً في النقاش العامّ. من الواضح أنني لم أكن أرغب في تأليف كتاب مناضل، بل مجرَّد كتاب تاريخ، يربط الحقائق، ويظهر الاختلافات والثبات على مدى المليونَيْ سنة الماضية، لكنه، مع ذلك، كتاب سياسي، بالمعنى الأوَّل للمصطلح.

كنت أرغب في إنجازه على المدى الطويل جدّاً، مع الحفاظ على الإيجاز وسهولة القراءة، والبحث عن الثوابت والاختلافات؛ ويرجع ذلك، أساساً، إلى الزيادة المستمرّة في التركيبة السكّانية البشرية. في الواقع، تعرّضت أوروبا للاستعمار قبل (8000) عام، من قِبَل روّاد زراعيِّين من الشرق الأدنى، أو استعمار الأميركتَيْن على يد الأوروبيين، انطلاقاً من «الاكتشافات الكبرى» بطرق مختلفة تماماً، لكن الأسباب، في العمق، هي نفسها دوماً.

إحدى نقاط القوّة في كتابك، التأكيد على أنه لا يوجد مجتمع أبديّ؛ إذ لم تتوقَّف الشعوب عن الاختلاط. مع ذلك، هناك مفردات متكرِّرة تنتشر عبر القرون مثل «برابرة» أو «غزوات»... هل كان يُنظر، دائماً، إلى المهاجر على أنه مصدر خطر؟



- في الواقع، فكرة الكيانات السياسية، والكيانات الثقافية التي ترسّخ وجودها إلى أجَل غير مسمّى «منذ بدايات الزمن» (كما كتب الجنرال ديغول عن فرنسا، أو -بالأحرى- الفكرة التي كان يحملها عنها)، لا معنى لها تاريخياً. تعود فكرة (الأمّة) -بوصفها مجتمعاً من المواطنين- إلى الثورة الفرنسية، وإلى الرومانسية فقط. من قبل، لم يكن هناك سوى ملوك لهم حقّ إلهيّ لحكم الرعايا، ويوسّعون أراضيهم بحكم الحروب أو الزيجات. معظم الدول الحديثة تعود إلى القرن التاسع عشر في أحسن الأحوال، وغالباً ما تعود إلى العقود الماضية، فقط؛ لذا هي نتيجة تهجين ثقافي، وتهجين بشري دائمَيْن.

مع ذلك، في كلّ مرّة، يُنظر فيها إلى الأجنبي -«البربري» بحكم التعريف- على أنه خطر. وإذا تَمَّ قبوله، فغالباً ما يكون عبداً بالأَسْر أو الشراء، أو عاملاً فقيراً. معظم أفراد مجتمعات الدولة كانوا من العبيد، ومن أوروبا الحديثة في المقام الأوّل، من خلال مستعمراتها. ولكن، كان هناك، في بعض الأحيان، «المتوحّش النبيل»، على الأقلّ، كموضوع أدبي، أو الإفريقي كـ«طفل كبير» (من الإعلان عن مسحوق الشوكولاتة إلى جوزفين بيكر، دون نسيان حدائق الحيوانات البشرية في نهاية القرن التاسع عشر). البربري أو الهمجي عبارة عن قطعة معدنية، لا غنى عنها اقتصادياً، لكنه، أيضاً، كبش فداء.

علم الآثار، والأساطير، واللُّغويات.. والآن، علم الوراثة، كلّها تسمح لنا بتتبُّع مسارات بعض الشعوب.

أنت تُظهِر ذلك، بشكل جيّد جدّاً، بالنسبة إلى الهندو - أوروبيين. من أين أتى الأوروبيّون؟

- أوروبا هي اختراع الأوروبيِّين. إنها، بالفعل، القارّة الوحيدة التي لا تحدّدها المحيطات بشكل واضح؛ إنها، في الأساس، شبه جزيرة أوراسيا الأخيرة (أو آسيا). هذا هو المكان الذي لم نتمكَّن من المضيّ قدماً فيه، على الأقلّ، حتى «الاكتشافات العظيمة». مثل جميع أجزاء العالم الأخرى، لم يتوقَّف الناس عن الاختلاط هناك. بعد أوّل إنسان منتصب القامة، منذ ما لا يقلّ عن مليون سنة (الذين تحوَّلوا هناك، تدريجياً، إلى شعوب نياندرتال)، وصل السابينس (أي أنت ونحن)، وما كانوا، بشكل عامّ، صيّادين وجامعين، منذ حوالي (40) ألف عام، ثمَّ تَمَّ استبدالهم واستيعابهم منذ (8000) عام من قِبَل مزارعي العصر الحجري الحديث، من الشرق الأدنى، في حين تَمَّ رصد تحرُّكات سكّانية أخرى، أُبلِغَ عنها من خلال التحليلات الجينية الأولية، من أوروبا الشرقية.

بالإضافة إلى تتابع عمليّات النزوح الداخلي الدائمة (المستعمرات اليونانية، الفتوحات الرومانية، غارات الفايكنغ، الهجرات الجرمانية، وغيرها) القادمة من الخارج، من محطّات فينيقية وقرطاجية، وتأسيس المجتمعات اليهودية، والهجرات من آسيا مثل شعب الهون، ثم الفتوحات العربية البربرية في جنوب القارّة، ثم المجريّون والأتراك والمغول، وغيرهم، حتى الهجرة في الآونة الأخيرة، بسبب الثورة الصناعية. في الوقت نفسه، انتقل ملايين الأوروبيين، على مدى



القرون الخمسة الماضية، إلى استعمار جزء كبير من العالم، وخلقوا كيانات ثقافية جديدة مختلطة، إلى حَدّ ما، مع السكّان الأصليين لهذه المناطق (في البرازيل أكثر من كندا)؛ لذلك، يكون تحديد الهويّة الأوروبية منطقياً، فقط، فيما يتعلَّق بلحظة زمنية محدَّدة، ولمجموعات معيَّنة (مثقَّفو عصر التنوير، على سبيل المثال). خلاف ذلك، كما هو الحال مع أيّة هويّة أخرى، هي فكرة متقلِّبة باستمرار.

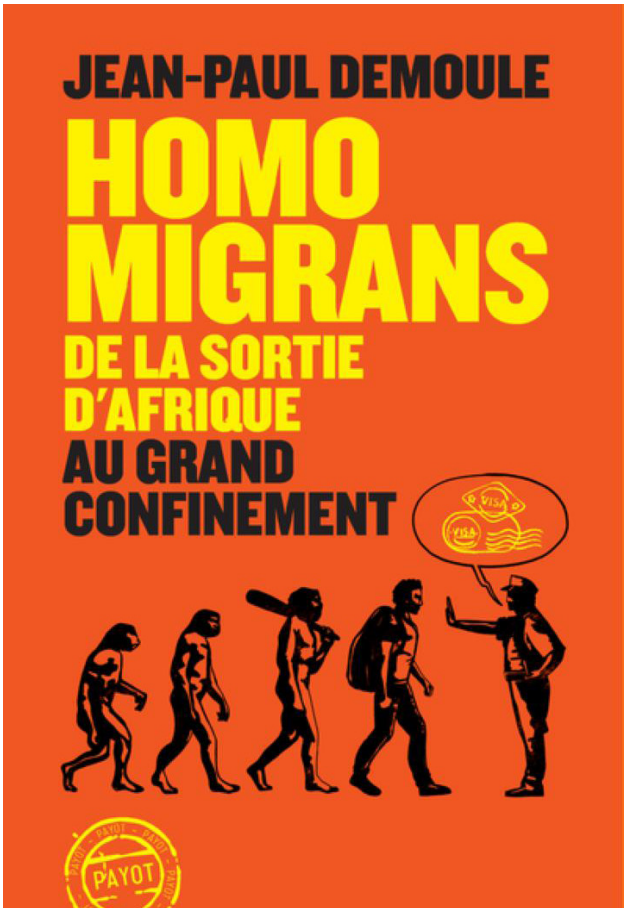
أنت تستخدم مصطلح «الإبادة الجماعية» لوصف غزو الأميركتَيْن، وتجارة الرقيق في المحيط الأطلسي. لماذا اخترت هذا المصطلح الذي قد يبدو قديماً، هنا، مقارنةً بالتعريف الذي صاغه رافائيل ليمكين؟

- أستخدم مصطلح «الإبادة الجماعية» حتى لغزو يوليوس قيصر بلاد الغال؛ ما أثار استياء بعض الأثريِّين الذين يحاولون، بانتظام، تبرئته من هذا الاتّهام، على وجه التحديد، بحجّة المفارقة التاريخية. ورغم ذلك، قد ارتكب، باعترافه الشخصي، إبادة جماعية لسكّان منطقة الراين جميعهم (من 200000 إلى 400000 نسمة، من الرجال والنساء والأطفال). من المسلَّم به أنه يمكن تقييد تعريف «الإبادة الجماعية»، لكن استراتيجيه قيصر كانت، تقريباً، مختلفة عن «الأمر بالإبادة» (Vernichtungsbefehl) للجنرال الألماني «فون تروثا»، عام (1904) ضدّ «Herero»، ناميبيا الآن، وخلّفت (80.000) قتيل، أو ثلاثة أرباع السكّان (تعتبر أوَّل إبادة جماعية في القرن العشرين).

فيما يتعلَّق بالهنود الأميركيين، من ناحية، وتجارة الرقيق في المحيط الأطلسي، من ناحية أخرى، من الواضح أنه كانت هناك مذابح ممنهجة خلال فترات القمع، كما أن هناك اعتراض على أنه لم يكن من مصلحة التجار ومالكي العبيد القضاء على اليد العاملة. بالتأكيد، لكن النتيجة كانت واحدة للطرفين سواء بسبب القتل أو الترحيل أو سوء المعاملة أو الأمراض المستوردة. لهذا السبب اقترح مصطلح «الإبادة الجماعية غير العمد»، كما نتحدَّث عن «القتل غير العمد»، باعتبارنا نتحدَّث عن ملايين الوفيات، بل عشرات الملايين في حالة الهنود الحمر - حتى لو أنها لا تعتبر تعريفاً قانونياً، بالمعنى الدقيق.

«الحبس الكبير».. يبدو أنه مثّل علامة استراحة في عملك. ماذا تمثِّل لك هذه اللحظة الفريدة في تاريخ الهجرات؟

- «الحبس الكبير» (الذي يظهر في العنوان الفرعي لكتابي) كان حدثاً غير مسبوق في تاريخ البشرية. ولكن، من المفارقات، أنه حدث في ظلّ استمرار عملية تاريخية بدأت مع العصر الحجري الحديث، عندما تمَّ اختراع أنماط الحياة المستقرّة والمنازل الدائمة، التي يغادرها المرء، فقط، لزراعة الحقول المجاورة للقرية، ورعي الماشية هناك. ثم، مع ظهور المدن، أصبح الطعام يأتي من تلقاء نفسه، وتضاعفت المهن المستقرّة (الحرفيّون، التّجّار، الشرطة، البيروقراطية، رجال الدين، الفنَّانون، وغيرهم)، بينما تَمَّ اختراع



الكتابة أيضاً؛ ما سمح بالتواصل، عن بعد، مع الآخرين.

بمرور الوقت، ومع النموّ الهائل للسكّان، استمرَّت وسائل الاتّصال عن بعد في التطوّر: الورق، والطباعة، والتلغراف، وأخيراً الإنترنت. مع ميكنة المهامّ، تواصل انخفاض عدد العمّال في الزراعة والصناعة لصالح الخدمات، ويمكن، الآن، إنجاز جزء كبير منها عن طريق العمل عن بعد، وهو ما تسارع في أثناء عملية الإغلاق الأخيرة. في الواقع، هناك العديد من الأنشطة غير العمل، تتم في أماكن مغلقة (الرياضات الداخلية، والحرب الصاروخية، ناهيك عن توصيل البضائع إلى المنازل عبر الحاويات قريباً، الطائرات بدون طيار، وما إلى ذلك). بالطبع، هناك استثناءات لكلّ شيء، مثل السياحة (ولكنها تخصّ، فقط، من 10 % إلى 15 % من البشر، وتشهد تراجع أماكن معيَّنة بسبب الاكتظاظ، حتى تفسح المجال، مستقبلاً، لكلّ احتمالات الواقع الافتراضي من المنزل) أو التنقُّل اليومي للعمّال الذين طُردوا من مراكز المدن باهظة الثمن (من هنا، جاءت حركة السترات الصفراء). أمّا بالنسبة إلى «المهاجرين»، فإن هدفهم ليس الترحال الدائم، بل أن يكونوا قادرين على الاستقرار مرّة أخرى -إن أمكن بشكل دائم- في مكان أكثر أماناً. وحتى لو أننا لم ننتقل كثيراً، من قبل، إن الاتّجاه العامّ المرتبط بالكتلة المتزايدة بشكل كبير للبشرية، يسير نحو جمود تدريجي.

ذكرت، في السابق، أن كتابة تاريخ الهجرات يعني كتابة تاريخ البشرية، وهكذا كثيراً ما يُعرَّف «الآخر» على أنه بربري، ويمثّل كبش فداء. ما خصوصيات القرن الحادي والعشرين في نظرك؟

- في الأصل، «البربري» هو الشخص الذي لا يتكلَّم اليونانية، والذي يُصدِر، فقط، «أصوات هدير». وبالمثل، يسخر «سيسرون» من الغال خلال إحدى المحاكمات حيث دافع عن حاكم استعماري محتال ضدّ ناخبيه المشتكين، مستهزئاً بلغتهم، وبدينهم المزعوم. إن الأسطورة المظلمة لـ«الغزوات البربرية»، للإمبراطورية الرومانية المتأخِّرة، هي، إلى حَدّ كبير، إعادة بناء تأريخية لاحقة، لكن التلاعب بها لا يزال قائماً حتى يومنا هذا. مع أولئك الذين يستحضرون، اليوم، المهاجرين المفترضين من القارّة الأفريقية، يمكننا أن نتذكّر الخطابات المتطابقة تماماً، التي كانت ضدّ الإيطاليين في بداية القرن العشرين (كانت هناك عمليّات إعدام خارج نطاق القانون، كما في إيغ مورتس أو مرسيليا)، ضدّ الأرمن أو اللاجئين اليهود من أوروبا الوسطى، أو ضدّ العمّال البولنديين، وفي الولايات المتَّحدة ضدّ الهجرة الإيطالية أو الصينية.

في كلّ مرّة، يكون المهاجر «قذراً»، يأكل طعاماً كريه الرائحة، ويرتدي ملابس غريبة، أو يكون جانحاً أو مغتصِباً محتمَلاً. في الوقت نفسه، مثل أيّ كبش فداء، يؤسّس المهاجر لإمكان توحيد الصفوف، وتشكيل هويّة «ضدّ»؛ لذلك لا توجد خصوصية للحركات المتطرّفة والعنصرية المعاصرة. السؤال الحقيقي الوحيد يتعلّق بمسألة الاستيعاب، وهؤلاء المهاجرون فقراء بالتعريف.

لاحظ، أيضاً، أن أولئك الذين ينخرطون في هجرة الأدمغة، وخاصّةً إلى الولايات المتَّحدة، لا يُطلَق عليهم اسم «مهاجرون»، لكنهم يحملون تسمية أكثر نبلاً هي «المغتربون»؛ مع ذلك، هم مهاجرون «اقتصاديون» مثلهم مثل الآخرين، قسائم رواتبهم هي المختلفة فقط. وبالمثل، إن المنفيِّين الضريبيين هم، بالفعل، مهاجرون اقتصاديون؛ لأنهم يريدون الحفاظ على ثرواتهم من الرسوم التي يتطلَّبها، عادةً، التضامن الوطني. سيبقى لمنظّري «البدائل العظيمة» أن يحدِّدوا أولئك الذين «تَمَّ استبدالهم»؛ الأمر الذي يعيدنا، بالفعل، إلى التعليقات في البداية: لا يوجد مجتمع خالد، بل هناك اختلاط دائم، وتهجين، حتى لو حاول مَنْ وصل أخيراً (في كثير من الأحيان (عبثاً)) غلقَ الباب في وجه من لَحِق به ...

■ **حوار: أنتوني غيون** □ **ترجمة: مروى بن مسعود**

المصدر:
https://www.nonfiction.fr/article-11327-lhomme-cet-eternel-migrant.htm













أرشيف الدوحة
https://www.dohamagazine.qa

تويين فالولا:

إنهاء استعمار الأكاديمية في إفريقيا

في كتابه الأخير «إنهاء استعمار الدراسات الإفريقية: إنتاج المعرفة، الوكالة، والصوت»، يركّز المؤرِّخ والمفكّر النيجيري «توين فالولا» على الحاجة الملحّة للقضاء على بقايا الاستعمار (هيمنة القوى الأجنبية) في الأكاديمية، وفي منهجيات البحث، حيث لا تزال وجهات النظر الإفريقية مهمّشة أو مستبعَدة؛ ما خلقَ صورة مشوّهة للقارّة. منتقداً، في الوقت نفسه، قيود الاستعمار وإخفاقات إلغائه حتى الآن، ثم يختتم بمناقشة مستقبلية إفريقية.

في هذه المقابلة مع «أولاينكا أويجبيل»، باحثة الاتِّصال، في جامعة ترينيتي، لاغوس، يتحدَّث «فالولا» عن بعض ساحات النضال الرئيسية لإنهاء الاستعمار في مجال إنتاج المعرفة.

أنت ومثقَّفون أفارقة آخرون، تأملون في استبدال عالم أحاديّ الجانب بهيمنة أنظمة المعرفة الغربية المفروضة على إفريقيا. كيف تتصوّرون ذلك؟

- أعتقد أنه يمكننا أن نتَّفق على أن طبيعة السرد الذي يفضِّله العالم الغربي ليس هو السّرد الذي يصبّ في مصلحة إفريقيا تماماً. ومع أن السادة الاستعماريين قد رحلوا منذ عقود، إلّا أنهم تركوا وراءهم إرثاً فكرياً ليس واضحاً للكثير منا في إفريقيا. وهذه الموروثات تشمل تلك التي تنعكس في المعرفة، وكيف نكتسبها، والموروثات التي تتحكَّم في سير عمل مؤسَّساتنا، ولها تأثير على وسائل التنمية في قارَّتنا. هذه هي الموروثات التي نبذل جهوداً إيجابية لإزالتها، من خلال إنهاء الاستعمار.

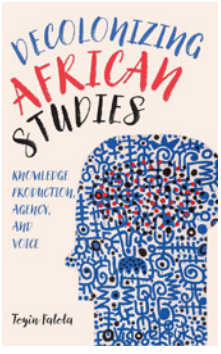
كتابي هو أحد الأدوات التي تساعد في وضع الأمور في نصابها الصحيح بشأن إنهاء الاستعمار. أعلم أن هناك العديد من الموادّ هناك، وهناك الكثير من المساهمات التي ستأتي من العلماء عبر إفريقيا، الذين يدركون مهمَّتهم الوطنية لإنهاء الاستعمار في عملية إنتاج المعرفة، لكن هذا لا يتوقَّف هنا، فهناك، أيضاً، توعية حثيثة في جميع أنحاء إفريقيا، حيث تُعقد ندوات وجمعيات فكرية لتطوير استراتيجيات بهدف إحكام السيطرة على إنهاء الاستعمار في إفريقيا.

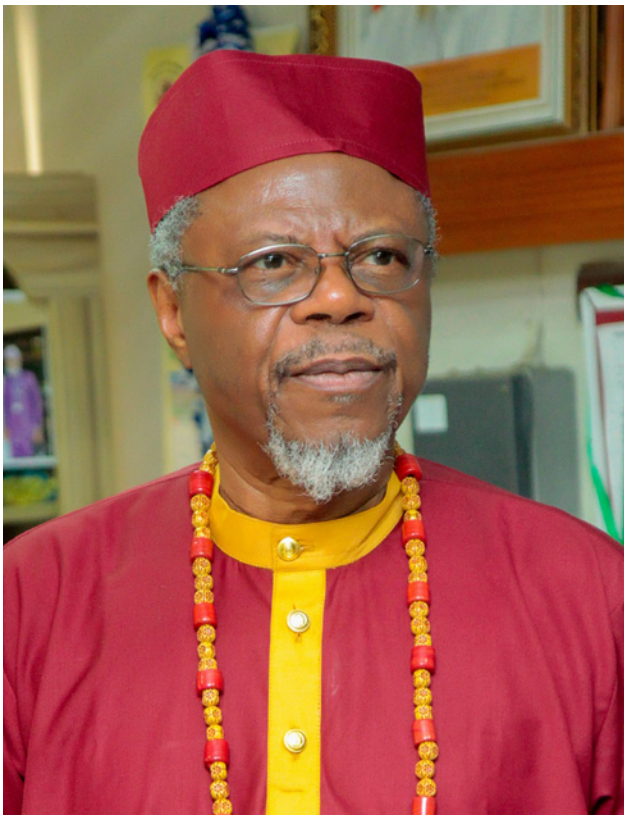
المهمّة الرئيسية تتمثّل في دمج أنظمتنا الأصلية في أسلوب التعليم الغربي الرسمي. وممّا تتكوّن أنظمتنا، لغاتنا وأفكارنا، وحِرَفنا، وقصصنا، بما في ذلك المهرجانات والاحتفالات والمعرفة المفيدة من كبار السنّ، وغير ذلك الكثير. ويجب أن نضع ما تعلَّمناه موضع التنفيذ، بينما نحن نلعب، ونتفاعل معاً، ونبني مجتمعات هادفة.

تَمَّ سرد تاريخ القارّة الإفريقية بطريقة مشوّهة. كيف تعالجون مشكلة التشويه القائم؟

- إذا رويت قصّة أو تاريخ شعب من منظور خاطئ، لفترة طويلة، فسوف يتقبَّلها الناس، بغضّ النظر عن مدى صحّة ما تروي من عدمه، مع تجاهل المنظور الآخر أو حتى الاعتقاد بأنه لا يمكن أن يكون هناك أيّ منظور آخر غير المنظور الذي قُدّم لهم.

لفترة طويلة، كان هناك الكثير من التغريب في التاريخ الإفريقي، و -في المقابل- تَمَّ إهمال المنظورات الإفريقية أو اعتبارها غير





موجودة. لم يبدأ الكُتّاب الأفارقة في إنهاء استعمار التاريخ الإفريقي إلّا بعد الحرب العالمية الثانية؛ لذا، لو أنك قلت إنه كان هناك تحريف وتشويه للقارّة، فلن أنكر ذلك، لكننا، في الوقت نفسه، نبتكر، بالفعل، روايات جديدة. لدينا، الآن، أشخاص يعملون بجدّ، وبلا كلل لتصحيح هذه المعلومات المضلِّلة، واستبدالها بالحقيقة كما هي.

ماذا تقصد بـ «مستقبل إفريقيا»؟ (Afrofuturism، أو الحركة في الفنّ والأدب، وما إلى ذلك، تتميّز بمواضيع مستقبلية أو خيال علمي، تتضمَّن عناصر من تاريخ وثقافة السود).

- المستقبل الإفريقي هو إنهاء الاستعمار في أحدث مراحله. إنها حركة من العالم الإبداعي تؤكّد على أهمّيّة السواد، وتعرض طاقات شبابنا لدمج التكنولوجيا مع الأداء، لإعادة تخيُّل الوحدة الإفريقية بطريقتهم الخاصّة. إنها تستلهم الأفكار والممارسات من مختلف أنحاء العالم، وتدمجها، وتستوعب التغييرات والابتكارات والتنوير والتفكير والعديد من الموروثات والمفاهيم الأخرى في مصلحة إفريقيا، وتتكيّف معها.

أنت تكتب عن استخدام اللّغة كشكل من أشكال إنهاء الاستعمار، وكذلك لتخليص الأدب الإفريقي من الاستعمار، أليس كذلك؟

- لطالما اعتقدت أن اللّغة بالإضافة إلى كونها فنّاً -هي، أيضاً، علم. إنها أداة للتحوّل، وبقدر ما يتعلَّق الأمر بإنهاء الاستعمار، تكون اللّغة ضرورية. لا أعتقد أن للأدب قيمة تذكر بدون لغة، واللّغة التي يُروى بها تقطع شوطاً طويلاً لنقل أشياء مختلفة يمكن أن تغيّر منظور شعب ما، أو تحوّله. بالطبع، الأدب الإفريقي يحتاج إلى إنهاء الاستعمار.

لا يمكن نقل العديد من جوانب الأدب الإفريقي بشكل كافٍ إذا أخذته بعيداً عن السياق الإفريقي. وفي الوقت نفسه، الحفاظ عليه، في السياق الإفريقي، يعني استخدام اللّغة الإفريقية لنقله بشكل صحيح؛ لذا، تحتلّ اللغة مكانة كبيرة في الأدب الإفريقي، ونحن بحاجة إلى القيام بعمل أفضل للاستفادة منها. اللّغة أكبر من الأدب. إنها مدخل إلى التنشئة الاجتماعية، والتعليم رفاهية الناس، وتقدّم الثقافات والحضارات. اللّغات الإفريقية جزء لا يتجزّأ من مسيرة تقدُّمنا.

ما علاقة التاريخ الإفريقي بالعالم أو ما علاقة العالم بالتاريخ الإفريقي؟

- علينا أن نفهم أن تاريخ أيّ شعب، مهما كان صغيراً، يكون مرتبطاً به وبالعالم، حتى في زمن العولمة. يجب أن نكون قادرين على تحديد هويّتنا وتاريخنا بشكل واضح، بينما نشارك، بنشاط، في القرية العالمية. التاريخ الإفريقي مهم للغاية بالنسبة إلى العالم، وليس هو التاريخ الذي نقرؤه من منظور الغرباء، فحسب، بل التاريخ الذي يرويه الأفارقة. لقد قدّم الأفارقة مساهمات كبيرة في سبيل تقدُّم الحضارة، من البشر الأوائل وصولاً إلى التقدُّم في التقنيات، وتطوير الرأسمالية.

رغم إعادة تضمينه، مؤخَّراً، يتمّ إلغاء التاريخ -تدريجياً- من المناهج الدراسية في نيجيريا أو التقليل من مكانته في مرحلة ما. بمَ ينذر هذا؟

- إن تجاهل تعليم التاريخ فكرة سيِّئة للغاية، فالنهر الذي يفقد منبعه سوف يجفّ بالتأكيد. التاريخ مهمّ لنهوض أيّة أمة، وأيّة أمة تقرّر حذف تاريخها أو تهميشه في النظام التعليمي ستعاني من العواقب، فلا توجد طريقتان لذلك. إذا كنت ترغب في مستقبل أفضل لنفسك أو لبلدك، فعليك أن تفكّر في مكانتك اليوم، وكذلك من أين أتيت، وهذا الترابط بين هذه الأشياء سيولّد فهماً شاملاً لما يجب القيام به للوصول إلى حيث تريد أن تكون.

■ **حوار: أولاينكا أويجبيل □ ترجمة: مروى بن مسعود**

المصدر:
https://theconversation.com/nigerian-historian-and-thinker-toyin-falola-on-decolonising-the-academy-in-africa-184188

رولان بليكر

العنف المرئيّ

على الرغم من العودة الأخيرة والمثيرة للقلق إلى السياسات الاستبدادية في جميع أنحاء العالم، فإن رولان بليكر، أستاذ العلاقات الدولية بجامعة كوينزلاند، ومؤلف كتاب «السياسة العالمية المرئية»، متفائل بشأن سلطة الجماليات في تقديم لمحات عن الاحتمالات السياسية البديلة. وفي هذا الصدد يتذكَّر زميله الراحل أليكس دانتشيف، الذي آمن، بأنه «خلافاً للاعتقاد السائد، يجب منح الفنّانين، لا السياسيِّين، فرصة خلق نظام عالمي جديد». معتقدا أن «دانشيف» كان محقّاً عندما حثَّنا على استكشاف كيف يمكن لأعمال الخيال أن تساعدنا في معالجة بعض الموضوعات السياسية الأكثر إلحاحاً في عصرنا.

في أعمالك الرائدة، نجدك دائماً مهتمّاً بأهمِّيّة الصور وعلم الجمال، خلال التفكير في السياسة العالمية، ماذا يمكن أن تخبرنا عن هذا الوعي بالصورة الذي يهيمن على اهتماماتك؟

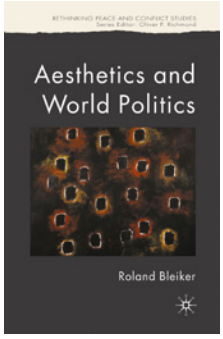
- شكراً جزيلاً على هذه الفرصة لمناقشة سياسة الجماليات معك. لقد كنت أقرأ -وأستمتع- بحواراتك مع بعض المفكِّرين الأكثر دقّةً وعقلانيّةً، بدءًا من (إيلين سكاري - Elaine Scarry)، وصولاً إلى (ساسكيا ساسين - Saskia Sassen). ربَّما يمكنني أن أبدأ بالإشارة إلى جانبَيْن عريضَيْن يفسِّران سبب انشغالي، منذ مدّة طويلة، بالبصريّات وبالجماليّات، بشكل عامّ:

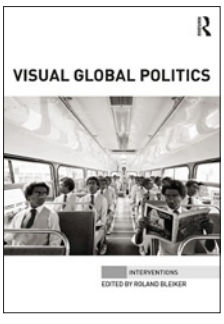
الأوَّل هو استخدام المرئيّات كمصدر إلهام، لإعادة التفكير في المشاكل السياسية الراسخة. أنا أعمل من خلال تخصُّصي في (العلاقات الدولية) الذي تَمَّ تحديده، بشكل ضيِّق جدّاً. وهذا، على الأقلّ، ما جرَّبته عندما بدأت، منذ أكثر من ثلاثة عقود: لقد اقتصرت الاتِّفاقيات التأديبيّة، إلى حَدّ كبير، على دراسة الظواهر الدولية لتفاعل الدول، واستخدام الأساليب العلمية الاجتماعية. كنت أرغب في إلقاء نظرة على ظواهر أخرى (ممارسات المعارضة العابرة للحدود الوطنية، على سبيل المثال)، واستخدام مجموعة أوسع من الأساليب لفهمها.

قدَّمت لي المصادر الجمالية، من الفنّ إلى الأدب والموسيقى، طريقةً لإعادة عرض المشكلات السياسية الراسخة، وإعادة الشعور بها، وإعادة التفكير فيها: من الحرب والتنمية والدبلوماسية إلى المقاومة والمصالحة. هذا شيء استكشفته في كتابي «الجماليات والسياسة العالمية»، وأعلم أنك فعلت ذلك، أيضاً، في عملك، وآخرها في «Ecce Humanitas».

لكن، يمكن للفنّ -بطبيعة الحال- أن يكون هو نفسه سياسياً بذاته. لقد تعاونت مع بعض طلّاب الدكتوراه السابقين، وزملائي (نيلانجانا بريماراتنا - Nilanjana Premarat-na)، ومارك تشو - Mark Chou)، على سبيل المثال) لاستكشاف كيفية استخدام الفن في عمليات بناء السلام لفتح الحوارات، وتطوير التعاطف بين الخصوم السابقين.

كان شكلي الثاني من المشاركة الجمالية أكثر تحديداً، من خلال استكشافي كيف أصبح المرئيّ يلعب دوراً مهمّاً في حياتنا، وفي العلاقات الدولية بشكل عامّ. كثيراً ما نسمع أننا نعيش في عصر مرئي/بصري؛ أي أن عالمنا يدور أكثر فأكثر حول الصور. لست متأكِّداً، تماماً، ممّا إذا كان هذا هو الحال؛ يرجع ذلك -جزئيّاً- إلى أن الرؤية ليست





جديدة بالطبع، لكن هناك، بالتأكيد، تغييرات مهمّة، مؤخّراً، حول كيفية عمل الوظائف المرئية، سياسياً. على سبيل المثال، يتمّ تداول الصور بسرعة أكبر من أي وقت مضى؛ ما يؤدّي إلى ما سمّاه بول فيريليو، وديفيد هار، ذات مرّة، بضغط الزمكان: المواقف التي يكون فيها «هنا والآن» مهمّاً بالقدر نفسه- إن لم يكن أكثر- من «أين» يمكن أن تنتشر الصور، وتصبح ظاهرة عالمية فورية. ثم هناك، بالطبع، القدرة المنتشرة، الآن، للناس، على التقاط الصور، وتوزيعها. في الآونة الأخيرة، قبل عقدَيْن من الزمن، عندما شغل ما يسمّى تأثير (CNN) المعلقّين الأكاديميين، كانت شبكات الإعلام الرئيسية، فقط، هي التي تمتلك القدرة على تداول الصور، أمّا اليوم فيمكن للجميع، تقريباً، التقاط صورة أو مقطع فيديو على الهاتف المحمول، وتعميمه عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

والنتيجة هي تحوُّل كامل في كيفية إنتاج الصور، وتداولها، نجمَ عنها أيضاً، كيف تصبح ذات مغزى، وأهمّيّة سياسية. إن القضايا المطروحة، من وجهة نظري، معقَّدة جداً، حتى يتعذَّر التحقيق فيها من قِبَل شخص واحد بمفرده؛ هذا هو السبب في أنني أمضيت قدراً كبيراً من الوقت وبذل الجهد لجمع أكثر من (50) باحثاً من مختلف التخصُّصات لاستكشاف كيفية تشكيل الصور والتحف المرئية والعروض السياسية الدولية.

كانت النتيجة كتابي عن السياسة العالمية المرئية، الذي يغطّي مجموعة واسعة من المصادر المرئية (من التصوير الفوتوغرافي، والأفلام، والرسوم المتحرّكة، وألعاب الفيديو، إلى الخرائط والمعالم الأثرية والأزياء وصور الطائرات بدون طيار/الأقمار الصناعية)، لاستكشاف عشرات الظواهر السياسية المحدّدة، مثل العنف، والاستعمار، والحدود، وحقوق الإنسان، والمجاعة، والتمويل، والدين، والأمن، واللاجئين.

في تقديري، على الأقلّ، إن إحدى السمات المميِّزة للعنف السياسي هي حاجته إلى جمهور فعّال؛ أعني بهذا أن هناك حاجة إلى الاعتراف بكيفية أن مشاهدة حدوثه جزء لا يتجزأ من كيفية قدرة العنف على إيصال شيء أكبر من العنف نفسه. بصفتك منظّراً نقديّاً، ما أكثر ما يقلقك عندما يتعلّق الأمر بكيفية إدراكنا للعنف؟

- بالتأكيد، نعم: مسألة التواصل (والجمهور) هي مفتاح يقودنا إلى محاولة فهم كيفية ارتباط الرؤية بالعنف.

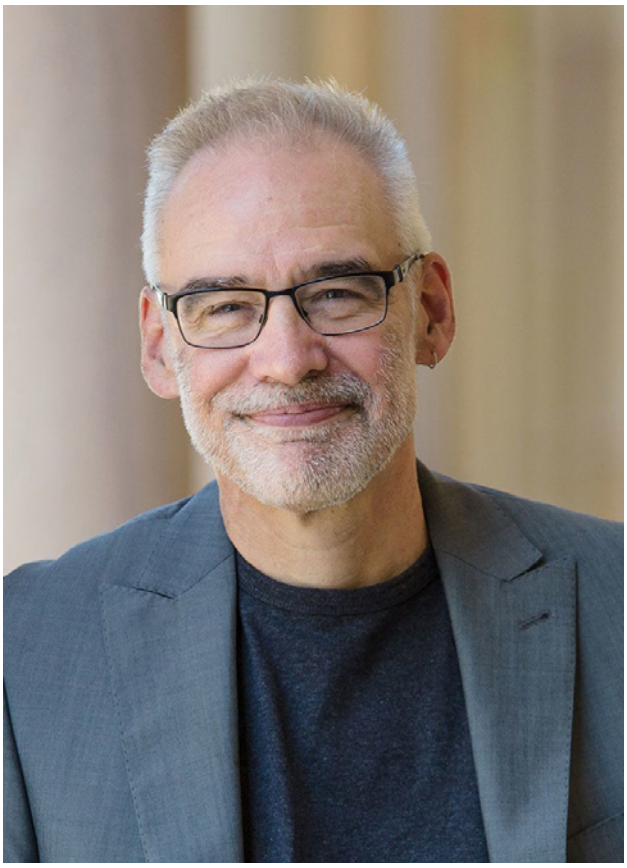
ما يتبادر إلى الذهن، على الفور، هو الهجوم الإرهابي في (11) سبتمبر/أيلول (2001). كما أشرت, مؤخّراً، عند المساهمة في منتدى لوس أنجلوس ريفيو أوف بوكس، إلى أنه «عندما سقطت الأبراج»، كانت الرؤية في صميم الهجوم. لكي يكون الإرهاب فعّالاً، عليه أن يفعل ما هو أكثر من مجرَّد قتل الناس: يجب أن يبثّ الخوف في أولئك الذين جرَّبوا الحدث، وربَّما الأهمّ من ذلك، في أولئك الذين يشهدونه من مسافة بعيدة. هذا هو سبب تصميم (11) سبتمبر كحدث مرئيّ، وكمشهد إعلامي؛ حتى تتمكَّن الصور من التقاط الرسالة السياسية المقصودة، وتعميمها، ومضاعفتها.

ربّما يمكننا التحدُّث عن المرئيّات العنيفة هنا؛ عن شكل من أشكال العنف المرئي يتسلَّل إلى وعينا الجماعي ويستمرّ في التشكيل (أحياناً، لسنوات أو حتى لعقود)، وكيف نشعر ونفكّر في العالم، و-من ثَمَّ- كيف تتشكّل سياستنا.

ما يهمّني على وجه الخصوص، حول كيفية إدراكنا للعنف المرئي، مثل (11) سبتمبر، هي المواقف السياسية التي تظهر ردّاً على ذلك. في أعقاب الهجوم الإرهابي مباشرةً، ظهر خطاب قويّ: «نحن» ضدّ «هم»، لاسيّما في الولايات المتَّحدة. صوَّرت الصور العاطفية (والروايات التي رافقتها) مناقشات سياسية حتى أصبح الردّ العسكري يُنظر إليه على أنه الردّ الأكثر منطقيّة، وربّما هو الردّ الشرعي الوحيد على الهجوم. نحن نعلم، اليوم، أن السياسات التي تلت هذا الهجوم الإرهابي كانت إشكالية للغاية، ولم تساهم إلّا في المزيد من العنف ذاته، ولكن، في ذلك الوقت، كان الخطاب العامّ (المؤطَّر بصور عاطفية دائمة الحضور) من النوع الذي يمكن معه رفض النقد، باعتباره غير وطني، وحتى غير أخلاقي، أيضاً.

هذا هو السبب في أنه من المهمّ الحفاظ على مشاركة نقدية في عملية التمثيل المرئي: محاولة مستمرّة للتساؤل عن كيفية تصويرنا -كجماعات- لحدث مثل الحادي عشر من سبتمبر، وما هي العواقب السياسية المترتّبة على هذه الصور. نحن بحاجة إلى أن نكون واعين لما نراه، وما لا نراه: كيف أصبحت بعض الروايات المرئية، والروايات اللفظية تهيمن على ذاكراتنا الجماعية، وكيف شكَّلت هذه الروايات ممارساتنا السياسية، والإمكانات المتاحة لنا لتغيير هذه الممارسات، وخلق مستقبل أفضل.

هذا هو المكان الذي يمكن فيه للعلماء والناقدين، على وجه الخصوص، تقديم أعمال ذات صلة بالسياسات. يمكنهم أن يوضِّحوا لنا طريقة للخروج من الحلقة المفرغة للعنف المرئي. استكشفت زميلتي، المتعاونة على المدى الطويل «إيما هاتشيسون» كيف يمكن للتمثيلات المرئية المشحونة عاطفياً للأحداث الصادمة، أن تولِّد ردود أفعال سياسية مختلفة جدّاً. في بعض الحالات، كما في حالة (11) سبتمبر، عجَّلت الصدمة بظهور مجتمعات سياسية منعزلة تضع مكاناً آمناً في الداخل ضدّ أيّ تهديد خارجي. غالباً ما تكون هذه الاستجابات السياسية مصحوبة بأشكال جديدة من



الصراع والعنف، كما يتَّضح من موجة الهجمات الإرهابية التي صاحبت الحرب على الإرهاب.

لكن هوتشيسون، في كتابها «المجتمعات العاطفية في السياسة العالمية»، تُظهر أن هناك خيارات أخرى أيضاً: يمكن أن تؤدِّي الأحداث المؤلمة إلى ديناميكيات جماعية أكثر تحوّلاً، وأقلّ عرضةً للانزلاق نحو مزيد من العنف، وتلعب التمثيلات المرئية هنا، أيضاً، دوراً رئيسياً لأنها تشكِّل كيفية إدراك الأفراد والجماعات للأحداث الصادمة، والاستجابة لها. توضِّح «هاتشيسون» هذه القدرة على كسر حلقات العنف في حالتين: الشعور بالتضامن الذي ظهر في أعقاب كارثة تسونامي في جنوب شرق آسيا، عام (2004)، والعمل الذي قامت به لجنة الحقيقة والمصالحة في جنوب إفريقيا.

إن فهم هذه الدورات من العنف المرئي، واختراقها، يجبرنا، حتماً، على تنظير أسئلة ذات فاعليّة؛ وهو أمر ليس سهلاً إذا احتضن المرء (كما أفعل) تقديراً ما بعد بنيويّ لقوّة الخطابات لتأطير وتشكيل كيفية رؤيتنا، وتصرُّفنا في العالم. هذه معضلة تعاملت معها منذ بداية رحلتي العلمية، بدءاً بكتابي الأوَّل عن المعارضة الشعبية والقوّة الإنسانية والسياسة العالمية. ما زلت أعتقد أننا قادرون على القيام بالأمرَيْن: قبول أن القوى الخطابية، بما في ذلك القوى المرئية، تعمل على تكييف تصوُّراتنا للعالم دون وعي، وفي الوقت نفسه، ندرك أننا لا نسيطر عليها بلا حول ولا قوّة؛ أن لدينا القدرة على اتِّخاذ بعض الخيارات، وتشكيل استجاباتنا: الفردية، والجماعية للأحداث السياسية.

يعتبر التعامل مع تمثيلات العنف جزءاً أساسياً من هذا التحدّي لإعادة إدخال الفاعلية في المناقشات الفلسفية، والمناقشات السياسية، وفي تشكيل استجابات سياسية معيَّنة. لكن فكرة قوّة الإنسانية التي نحتاجها، هنا، تختلف عن الطرق السائدة لفهم القضايا المطروحة. سنحتاج، بالتأكيد، إلى تجاوز الطرق السببية لفهم الفاعلية والاستكشاف مع جاك رانسيير، وكيف يمكن للتغييرات في توزيع المعقول أن تفتح طرقاً جديدة لرؤية العالم من حولنا، والشعور به. مع هذا، تبرز، أيضاً، إمكانات جديدة لتصوُّر التحدِّيات السياسية التي نواجهها؛ هذا هو أحد الأسباب العديدة التي جعلتني أحاول، منذ مدّة طويلة، فهم كيف تشكّل المرئيّات والعواطف تصوُّرنا عن السياسة، وانخراطنا بها.

أودّ أن أدفعك، بشكّل أدقّ، إلى تلك العلاقات التي تجمع بين المرئي والعاطفي. لقد فهم الفنّانون، بالطبع، منذ مدّة طويلة، الروابط بين هذين الاثنين؛ الأمر الذي جعل المنظرين يستغرقون وقتاً طويلاً للسير على نهجهم! ومع ذلك، في حين أن المجال العاطفي قد وعدنا بتحريرنا من ركود العقل والعقلانية، هناك مخاطر حتمية تحدث عندما تنهار السياسة بأكملها، في المجال العاطفي. كيف يمكننا أن نتعلَّم، بشكل أفضل، من التاريخ، هنا، عبر التفكير في هذه الروابط والعلاقات التي تجمع بين المرئي والعاطفي؟

- نعم. في الواقع، لقد استغرق المنظِّرون بعض الوقت للالتحاق بالفنّانين، في التعرُّف إلى هذه الروابط المتَّسعة بين الرؤية والعواطف، وقد استغرق علماء العلاقات الدولية وقتاً أطول للالتحاق بركب المجالات الأخرى (من علم الاجتماع إلى علم النفس والفلسفة) التي أدركت، منذ وقت طويل، أن العواطف هي أكثر بكثير من الظواهر الفردية وغير العقلانية التي كانت تعتبر نمطية. لقد رفضنا، لمدّة طويلة، قوّة المشاعر والعواطف في السياسة. ولكن هناك في الوقت نفسه، دراسات لا حصر لها تُظهر كيف أن العواطف المتنوِّعة مثل الخوف والغضب والتعاطف تشكِّل جميع أبعاد السياسة؛ من المفاوضات الدبلوماسية إلى الأزمات المالية. هناك العديد من الدراسات التي تستكشف كيف تؤثِّر القوى العاطفية، من دون وعي، في رؤيتنا للعالم وخارج قدرتنا، كذلك، على التعرُّف إلى هذا التشابك الدقيق بين العاطفة والسياسة والتعبير عنهما. لقد سعيت إلى فهم هذه التحدِّيات على مدار العقد الماضي، أو نحو ذلك، من خلال العديد من المشاريع التعاونية مع إيما هاتشيسون. كما قمت، بالطبع، باستكشاف الموضوع في العديد من الحوارات الرائعة

الخاصّة بك هنا، كما فعلت مع براين ماسومي - Brian Massumi، مثلاً، الذي كان لعمله تأثير في فهمنا.

مع ذلك، أنا أقلّ قلقاً بشأن الانهيار أو الانزلاق في نوع من الهاوية العاطفية، وأعتقد أنه من المهمّ إدراك ما أشار إليه علماء الأعصاب لبعض الوقت، من أن العواطف والعقل متشابكان لا محالة، ولا تملك أدمغتنا القدرة على التفكير بشكل منفصل عمّا نشعر به، إذ تحتوي جميع أحكامنا المعرفية والعقلانية، دوماً، على عناصر عاطفية. لايمكننا تجريد سياستنا من آثار هذا التأثير التي تكمن وراء تصوُّراتنا، وتفاعلاتنا الاجتماعية.

أعتقد أن القضيّة الأكثر أهمّيّةً هي كيف تتشابك العواطف والرؤية والسلطة. خذ، على سبيل المثال، التحوُّل الأخير الذي نوقش كثيراً وبات إشكالياً، حول ما يسمّى بعالم ما بعد الحقيقة. بالتأكيد، لا يمكن فهم رئاسة ترامب، بأكملها، دون الاهتمام الجيِّد بكيفية التلاعب بالعواطف، وصياغة المناقشات السياسية، وغالباً ما أنتجت المناقشات العامّة التي تلت ذلك ادِّعاءات حقيقة معيَّنة لا نصيب لها من الحقائق، ولا يمكن التحقُّق، من صحَّتها واقعياً. قد تكون الصدامات السياسية التي تلت ذلك دراماتيكية، لكنها لم تكن جديدة في الأساس؛ فقد سعى السياسيون، في جميع أنحاء العالم، لفترة طويلة -بوعي أو بلاوعي- إلى التلاعب بالعواطف الجماعية في محاولة لكسب التأييد الشعبي، وكانت القدرة على القيام بذلك، بشكل فعّال، مصدر نجاح العديد من الحملات السياسية، وليس فقط تلك التي تعتمد على الخطاب الشعبوي.

هذا هو السبب في كوني أعتقد أن القضيّة الأكثر صلةً بالموضوع تتعلَّق بمَن لديه القدرة على التعبير عن بعض ادِّعاءات الحقيقة، وكسب الدعم لها، بغضّ النظر عن مدى تشويه هذه الادِّعاءات، واستبعادها. إن مجرد دحض مثل هذه الادعاءات لا يكفي لفهم ومعالجة التحدِّيات السياسية، إذ، يلعب المرئي هنا، أيضاً، دوراً رئيسياً، لاسيّما في عصر وسائل التواصل الاجتماعي التي تدور حول تداول الصور الثابتة والصور المتحرِّكة، من الأفلام والصور إلى الرسوم المتحرِّكة. لقد تمَّ تحقيق الكثير، بالطبع، كاستخدام ترامب المشحون عاطفيّاً لـ«تويتر»، وقدرته على جذب جمهور يتجاوز أولئك الذين تغطّيهم وسائل الإعلام التقليدية. إن الانتباه إلى الديناميكيات الناتجة (مع الأبعاد العاطفية المتضمّنة) أمر بالغ الأهمّيّة عند محاولة فهم سبب اكتساب بعض ادِّعاءات الحقيقة، حتى عندما لا تستند إلى أدلّة واقعية.

فعلى النموذج نفسه، نحن بحاجة إلى إيلاء اهتمام، بشكل دقيق، لتمثيلات العنف، وكيف أنها، أيضاً، تضفي سلطة على أفعال معيَّنة، وبذلك تمنع مجموعة من الخيارات البديلة لمواجهة التحدِّيات السياسية. لقد تمَّ توضيح القضايا المطروحة، بشكل جيِّد، في مقابلتك مع «ريتشارد جاكسون - Richard Jackson»، الذي يُعَدّ عمله جزءاً من جهد أكبر لجعلنا نفهم أن النزعة السلمية (واللاعنف، بشكل عامّ) أقوى بكثير ممّا يُفهَم بشكل عامّ؛ هذا هو السبب في أنه من الضروري التشكيك في تمثيلات العنف المنتشرة على نطاق واسع، لا تلك الواضحة فحسب، مثل هَوَس وسائل الإعلام بتصوير الحرب والإرهاب والجريمة، تلك الجوانب من ثقافتنا المرئية، أيضاً، التي تترسَّخ بشكل سلطوي ومخفي، وبطريقة معيَّنة، وأفكِّر هنا، بشكل خاصّ، في أنظمة الإقصاء القائمة على الجنس والعرق والعنف المستخدم من أجل الحفاظ على هذه الأنظمة.

من المغري، بالطبع، القول: كلَّما غُمرت مجتمعاتنا أكثر بتمثيلات العنف، أصبحنا أكثر وعياً بمشاهدته بشكل اضطراري. مع ذلك، نحن نعلم، أيضاً، أن ما يُرى يتمّ توسُّطه، بشكل كبير، من خلال الأنظمة الجمالية من أجل الحقيقة والإنكار. في الواقع، غالباً ما أجد نفسي أتَّفق مع «جاك رانسيير - Jacques Rancière» عندما يدّعي أننا لا نشاهد، في الواقع، ما يكفي من الحقائق الخام للعنف. كيف تردّ على هذه الادّعاءات عندما يتعلَّق الأمر بمعاناة الإنسانية؟

- بالتأكيد، أنا أتَّفق كثيراً مع تصوُّرك، فمن المغري، للغاية، كما جادلت «سوزان سونتاج - Susan Son-tag»، و«سوزان مولر - Susan Moeller»، وغيرهما، أننا مشبعون جدّاً بصور العنف والمعاناة إلى درجة أنه ليس لدينا إلّا خياران؛ إمّا أن نحوِّل نظرنا بعيداً، أو أن نصبح محبطين إلى درجة أننا لسنا قادرين على ذلك. أعتقد أنه قد يكون من الأدقّ الحديث عن الإرهاق/الإعياء الإعلامي، كما فعل على المدى الطويل «ديفيد كامبل - David Campbell»: إدراك أن معظم الناس لديهم، بالفعل، القدرة على مشاهدة العنف والشعور بالضحايا، ولكن منطق وسائل الإعلام يحوِّل النظرة من أزمة إلى أخرى؛ يتعلَّق هذا التحوُّل بالمصالح التجارية لوسائل الإعلام أكثر بكثير مما يتعلّق بمدى اهتمام المشاهدين، وقدرتهم على الشعور بالتعاطف مع مَنْ هم أقلّ حظّاً، تشكِّل هذه الديناميكية التي تحرّكها وسائل الإعلام تحدِّيات خطيرة لالتزامنا الأخلاقي، والتزامنا السياسي في التصدِّي لمشكلة العنف السياسي.

ربَّما، يمكنني توضيح القضايا المطروحة بالرجوع إلى مشروع البحث الرئيسي الذي أشارك فيه حاليّاً، وهو مشروع يتعامل مع التحدِّي السياسي، والتحدِّي الأخلاقي المتمثِّلَيْن في تصوُّر الأزمات الإنسانية بغية معالجة المعضلة الآتية:

نحن نعلم أن التصوُّرات السائدة للأزمات الإنسانية تثير إشكالية كبيرة، وهذا هو الحال مع التمثيلات الإعلامية كما هو الحال مع نوع المرئيّات، التي تميل المنظَّمات



الإنسانية إلى توظيفها، فنحن نعلم أن التغطية الإخبارية تميل إلى التركيز على الأحداث العنيفة، بدلاً من التركيز على الأحداث الإيجابية، وهذا ما يسمّى بالتحيُّز السلبي الذي يشوّه التصوُّرات الجماعية، وقد يمنعنا من البحث عن حلّ مبتكر للمشاكل السياسية.

كما نعلم، أيضاً، أن العديد من الصور السائدة للأزمات تصوِّر الضحايا في جنوب الكرة الأرضية بطرق نمطية جنسانية، وعرقية، بوصفهم ضحايا سلبيِّين، خالين من الفاعلية، ومعتمدين على مساعدة العالم المتقدّم. ترسِّخ هذه الصور الاستعمارية الجديدة المفاهيم النمطية، وتجعل من الصعب تقديم تعاون إنساني حقيقي يقوم على الاحترام، وعلى تحسين القدرات، وطرح الحلول المحلِّيّة.

هنا، أيضاً، قد نتحدَّث عن العنف المرئي على الرغم من أن العنف، هنا، ذو طبيعة بنيوية أكثر.

تدرك المنظَّمات الإنسانية، تماماً، المشكلات المرتبطة بهذا العنف المرئي، لكنها غالباً ما تحجم عن الابتعاد، جذرياً، عن التصوُّرات السائدة للأزمات، هذا هو الحال لأنهم يعرفون أن الصور النمطية (صور الأمّ والطفل الجائعيَنْ، على سبيل المثال) تثير التعاطف لدى المشاهدين الغربيّين؛ لذا هي أدوات مثالية لهذا النوع من حملات جمع التبرُّعات التي تعتبر أساسية لنجاح المشاركات الإنسانية، وإن التخلّي عن استخدام الصور النمطية -على الرغم من كونها إشكالية- سيأتي بمخاطر كبيرة، قد يقوِّض العمل الإنساني.

هذا هو السياق المكاني الذي يأتي فيه مشروعنا: نحاول استكشاف كيف يمكن للتمثيلات المرئية البديلة للأزمات أن تقدّم صوراً للأزمات، أقلّ عنفاً، وأكثر احتراماً وأخلاقيّةً، صوراً يمكنها أن تولِّد التعاطف لدى المشاهدين الغربيِّين، وتحفِّزهم على دعم الحملات الإنسانية. فنحن نتعاون مع أربع مؤسَّسات ملتزمة بتحسين التواصل الإنساني، ومعالجة مشكلة العنف المرئي المذكورة أعلاه بشكل مباشر: مؤسَّسة ورلد برس فوتو - World Press Photo، واللجنة الدولية للصليب الأحمر، والصليب الأحمر الأسترالي، ومنظَّمة أطبّاء بلا حدود.

يجمع المشروع بين ثمانية باحثين وممارسين من ذوي الخبرة التي تضمّ المجالات الآتية: العلاقات الدولية، والتصوير الصحافي، وعلم النفس الاجتماعي، ثم سياسات السكّان الأصليِّين وسياسة إنهاء الاستعمار.

إن التعاون مع عدد كبير نسبيّاً من العلماء، هو أمر لا يتمّ إجراؤه تقليدياً في عالم السياسة، حيث يظلّ العمل المؤلَّف من شخص واحد هو السمة المميِّزة للمساهمات العلمية، لكني أجد أن بعض التحدِّيات الرئيسية، في يومنا هذا، بما في ذلك العنف المرئي، هي، ببساطة، معقَّدة للغاية، إذ يتعذَّر على شخص واحد المساهمة فيها بشكل شامل.

أنا أتعلَّم أكثر بكثير من خلال التعاون مع الزملاء الذين يأتون من خلفيات مختلفة، والذين يتحدون، باستمرار، نوع اليقين الذي كنت أعتبره أمراً مفروغاً منه؛ وهذا هو السبب في أننا، على سبيل المثال، نعمل مع العلماء الذين يتبنّون -صراحةً- مقاربات نقد الكولوينالية والشعوب الأصلية، وهذا هو السبب في أننا نجمع بين الأكاديميين والممارسين، العلماء الذين يستخدمون المناهج: الكمِّيّة، والنوعية.

لقد حاولت، لزمن طويل، تقديم حجّة لاستخدام مثل هذه المناهج التعدُّدية في دراسة السياسة المرئية، إلا أن القيام بذلك يطرح -حتماً- مجموعة من التحدّيات، ويرجع ذلك، جزئيّاً، إلى أنه قد يستلزم التخلّي عن معيار موحَّد للأدلّة، والذي ينتهك الأعراف العلمية الاجتماعية جزئيّاً؛ لأنه يتضمَّن، دائماً، العمل من خلال فريق بحثي، قليلون منا هم الذين يمتلكون المهارات المنهجية لاستخدام هذه الأساليب بكفاءة، والتي تتراوح بين السيميائية، وتحليل الخطاب، والدراسات الاستقصائية.

يوجد، على وجه التحديد، مجموعة من المناهج المرئية المختلفة، غير المتوافقة كما قد تبدو، والتي توفّر أفضل فرصة لفهم الروابط المعقَّدة بين الرؤية والعنف والسياسة، ثم تحويلها. كما أن الجمع بين المناهج المختلفة يجعلنا، دائماً، على دراية بوجهة نظرنا العرضية؛ وبذلك ننمّي مستوًى معيَّناً من الانعكاس الذاتي الذي يُعَدّ مفتاحاً لفهم نقدي للسياسة.

أتمنّى، في حدود سنتين، أن أستطيع تقديم تقرير إليكم، أذكر فيه المزيد من النتائج الملموسة من هذا المشروع. في الوقت الراهن، أقدِّر كثيراً الفرصة التي أتيحت لي للإشارة إلى بعض التحدّيات الرئيسية التي نواجهها، وآمل أن يسهم ذلك في إيجاد طرق جديدة لفهم مظاهر العنف المرئي، وتجاوزها.

وفي الختام، أودّ أن أسألكم عن رؤيتكم للسلام. لقد تكرَّر، إلى حَدّ الرتابة، أن السياسة، اليوم، تعاني من أزمة «خيال». كيف يمكننا التغلُّب على هذا من خلال توظيف «سلطة الجماليّات» بشكل أفضل؟ وهل ما زلت متفائلاً بشأن مثل هذه الاحتمالات؟

- على الرغم من العودة الأخيرة والمثيرة للقلق إلى السياسات الاستبدادية في جميع أنحاء العالم، ما زلت متفائلاً، بشكل خاصّ، بشأن سلطة الجماليات في تقديم لمحات عن الاحتمالات السياسية البديلة. كثيراً ما أتذكّر هنا زميلي وصديقي الراحل «أليكس دانتشيف Alex Danchev»، الذي آمن، بشدّة، بأنه «خلافاً للاعتقاد السائد، يجب منح الفنّانين، لا السياسيِّين، فرصة خلق نظام عالمي جديد». أعتقد أن «دانشيف» كان محقّاً عندما حثَّنا على استكشاف كيف يمكن لأعمال الخيال أن تساعدنا في معالجة بعض الموضوعات السياسية الأكثر إلحاحاً في عصرنا، إذ يمكن للفنّ -بجميع مظاهره المختلفة- أن يساعدنا على رؤية العالم من جديد، كما يساعدنا على ملاحظة الأشياء التي لم تكن موجودة من قبل، وبذلك نتحدّى الافتراضات الإشكالية التي اتَّخذناها أمراً مسلَّماً به.

هذا الأمر أعادني إلى الموضوعات التي ناقشناها في بداية هذا الحوار؛ تلك المتعلِّقة بالجماليّات والسياسة والفاعلية البشرية. بالنسبة إليّ، السياسة الجمالية تدور حول إيجاد طرق جديدة لرؤية العالم، وفهمه؛ يتعلَّق الأمر بإعادة مشاهدة العالم، وإعادة الشعور به، وإعادة سماعه بطريقة تفتح الاحتمالات لعالم أفضل؛ لهذا السبب، في النهاية، أنا بصفتي مدرِّساً وكاتباً، أرى هذه الأنشطة شكلاً من أشكال النشاط، ليس النشاط الذي يدور حول المعارك في الشارع، ولا يهدف إلى تحقيق تغيير فوري، بل هو نوع من النشاط الذي يهدف إلى التغيير التدريجي: هو محاولات يومية من المقاومة، تساهم تدريجيّاً في كيفية رؤيتنا (كمجموعات) للعالم من حولنا، واستيعابنا له.

من منظور فنّان (كاتب)، وناشط، وفاعل، يكون «السلام ليس نهاية المطاف»، بل سيكون هناك، دائماً، صراع، وسيكون هناك، دائماً، عنف، بغضّ النظر عمّا نفعله، لكن هذا لا يعني أننا مضطرّون إلى قبول كلّ المظالم التي تحدث من حولنا، ولا يعني أننا عاجزون عن معارضتها، فالعالم لا يقف ساكناً أبداً.. نحن نعلم أنه يمكننا التأثير في محيطنا، حتى لو كان بخطوة واحدة بسيطة في كلّ مرّة، ونعلم ما إذا كان هذا يتعلَّق بإحداث فرق في حياتنا اليومية العادية أو بالمساهمة في التحوُّل التدريجي للبنيات الاجتماعية السياسية الكبرى التي نشكّل جزءاً منها.

هناك جزء مهمّ من هذا النضال المستمرّ، هو إدراك أننا لا نحتاج إلى فهم المعايير المجتمعية، وتحويلها فحسب، بل نحتاج، أيضاً، إلى التفكير بشكل نقدي في قيمنا وأحكامنا المسبقة، فلا يزال جزء كبير من الحركة العلمية حول السياسة الجمالية، على سبيل المثال، جزءاً لا يتجزَّأ من الممارسات الغربية والافتراضات المتضمَّنة فيها، نحن بعيدون جدّاً عن إنهاء استعمار المشاركات العلمية، والعملية. تحتوي العديد من التقاليد غير الغربية على رؤى جمالية يمكن أن تزودنا بطرق جديدة لفهم العالم وإشراكه. في عملي الخاصّ، حاولت في المقام الأوَّل، القيام بذلك على مدى خمسةٍ وثلاثين سنة ماضية، من خلال الانخراط في المجتمع، والتعلُّم من العلماء والمصادر في كوريا ومنطقة آسيا، والمحيط الهادئ بشكل عامّ، لكنني أدرك مدى قصور هذه الجهود، وأن إنهاء الاستعمار، في ذهني، هو عملية مستمرّة؛ لهذا السبب، كما أشرت، يتمثَّل التحدّي الرئيسي في محاربة أزمات الخيال التي تحيط بنا، والبحث -بشكل جماعي- عن طرق مبتكرة للاستفادة من القوّة الإبداعية للجماليّات، لبناء عالم أفضل.

■ **حاوره: براد إيفانز*** □ **ترجمة: إسماعيل الموساوي**

المصدر:
https://lareviewofbooks.org/article/histories-of-violence-the-visual-violence

* براد إيفانز فيلسوف سياسي، ومنظّر نقدي، وكاتب متخصِّص في «مشكلة العنف».



أرشيف الدوحة
https://www.dohamagazine.qa

أزمة «كوفيد - 19»
في مساءلة خطاب الجائحة

تأتي هذه المُساهمة في سياق تراجع الخطابات الإعلامية والسياسية حول «كوفيد - 19»، بعدما وصلت إلى ذروة التضخم مع نهاية السنة الفارطة، بحيث لم تتنبأ فقط بخروج عالَم مغاير من رحم الفيروس التاجي، إيماناً منها بالقدرة التحويلية للجَوائِح في تاريخ البشرية، بل وسلَّمت أيضاً بعدالة هذا الفيروس لكونه يخترق كل الحواجز الطبقية في نظرها، وتوقّعت إجباره النخب الحاكمة النيوليبرالية على إعادة ترتيب سُلّم الأولويات المُجتمعية الكبرى مستقبلاً، بإعادتها الاعتبار للدولة-الراعية، وبحتمية فرزه لجغرافية سياسية جديدة من أهم عناوينها العريضة تغيُّر علاقات القوة الدولية بانتقال مقود زعامة العَالَم من أميركا إلى الصين.

ارتكازاً على بعض أدوات التحليل التي توفرها العلوم الاجتماعية، وخاصة علم الاجتماع والاقتصاد والسياسة، والتي تعتبر تفكيك الآراء الشائعة والتشكيك فيها إحدى أهم وظائفها، واستناداً إلى الإسهامات الجادة في هذا الباب سنضع كلَّ هذه التوقعات السائدة على محك الفحص والمُساءلة، بعد أن أصبحت تطرح نفسها، في سياق محاولة استشراف أفق أزمة «كوفيد - 19» واستجلاء معالِم ملامح التدبير السياسي المُتوقع بعد انتهائها، كيقينيات بديهية وليس كتخمينات احتمالية.

وصف خطاب كورونا

المرحلة الأولى: كل متتبع رصين لخطاب كورونا يمكن له أن يرصد خطاطة تطوّره، فمُجمل النصوص التي كُتبت في الأول، لم يكن يُشكِّل فيها الفيروس إلّا دور المُضاف على النص، وهكذا قرأنا مواد موسوماً بها (كورونا والرابط الاجتماعي، كورونا والتطوُّر العلمي، كورونا والنظام العالمي الجديد... إلخ)، وهذه النصوص كان يغلب عليها الطابع الحماسي والانفعالي، يقارب في بعض أوجهه السبق الصحافي.

ما أودُّ قوله من الإشارات السابقة، أن الفيروس في هذه النصوص لم يكن يجمع بينه وبينها إلّا واو العطف، وإذا تمَّ حذف مفهوم «كوفيد - 19» قد لا يطرأ أي تغيير على مضمون النص وقضيته.

المرحلة الثانية: أصبح الفيروس في هذه المرحلة يُشكِّل القضية الجوهرية للنصّ، لكن مجمل ما أُنتج حول كورونا في هذه الفترة، لا يرقى أن يوصف بالخطاب العلمي، لأن أغلبه، إما كان عبارة عن تأمُّلات ذاتية، أو خواطر سياسية، أو تجارب حميمية، تتمحور حول منطق الوجوب وليس الوجود، أي أنه خطاب رغبوي، يأمل في تغيير النظام العالمي الجديد، وقيام الدولة الاجتماعية أو دولة الرعاية، وتحقيق العدالة الاجتماعية والإيكولوجية، وإعطاء الأولوية إلى المشاريع التنموية للقطاعات الحيوية، كالتعليم والصحة وغيرهما. وكأن العَالَم كله يوجد في دولة واحدة دون حدود جغرافية، ولا فروقات لا في طبيعة الأنظمة السياسية، ولا في الاختيارات الاقتصادية، ولا في الأنساق الثقافية والتربوية.

المرحلة الثالثة: اتسمت هذه المرحلة بالتقاطب الحاد بين المُفكِّرين في العلوم الاجتماعية حول إمكانية دراسة «كوفيد - 19»، وبأي منهج وبأي أدوات تحليلية، نتج عن هذا التجاذب الفكري تصوُّران، الأول، يعتبر أن تناول الظواهر الفجائية كظاهرة كورونا، ليس من اختصاص العالِم في العلوم الاجتماعية، وإنما هو من اختصاصات كلٍّ من الإعلامي والسياسي، لأن العالِم في حقل الإنسانيات والاجتماعيات لا يدرس الظاهرة إلّا حينما تكتمل، أي حين تفصح عن كلِّ أبعادها، وهذا أول شرط لتحقيق الموضوعية بلغة «دوركايم»، أو الحياد الأكسيولوجي

بلغة «فيبر». ويضيف هذا الفريق، أنه إذا قبلنا دراسة ظاهرة ما قبل أن تكتمل، فسنكون ليس أمام ضرورة التجديد المنهجي فقط، بل سنكون بشكلٍ أوتوماتيكي أمام إعادة النظر في موضوع العلوم الاجتماعية عامة. وحذَّر هذا الفريق من اتباع هذه الخطوة، لكونها مغامرةً محسومة النتائج، تؤدي بالضرورة إلى انمحاء الخصائص التي تميِّز كل خطاب عن آخر، بمعنى أنه سيتعذَّر علينا تمييز الخطاب الإعلامي عن السياسي، والإبداعي عن السوسيولوجي وغيره.

أما الثاني، فقد رافع على أهمّية الموقف الإيجابي الفاعل الذي يؤكِّد ضرورة انخراط العلوم الاجتماعية، وخاصة السوسيولوجيا في دراسة الظواهر الفجائية، بدل الاكتفاء بالموقف السلبي، والانطواء على الذات بدعوة أن الموضوعية والحياد الأكسيولوجي يفرضان على عالِم الاجتماع انتظار اكتمال الظاهرة، وأشاروا إلى أن بعض هذه الظواهر لا تكتمل، وإنما تظهر وتختفي فجأة، وهذه الخاصية بالتحديد هي التي تبرر الانخراط والتدخل لدراسة هذه الظواهر.

المرحلة الرابعة: تعتبر هذه المرحلة، هي المرحلة الفعلية لدراسة الفيروس دراسةً علمية، لكن ليس الفيروس في حدّ ذاته، وإنما انعكاس الإجراءات الصحية المُتخذة ضده على أهم جوانب الحياة العامة للمُواطنين، وخاصة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والنفسي... إلخ. وفي هذا الصدد قرأنا العديد من الدراسات والتقارير حول طبيعة وحجم انعكاسات الإجراءات الصحية لفيروس كورونا على بنيات المُجتمع، وعلى التفاعلات الاجتماعية بين أفراده، ولا يستطيع أحد أن ينكر أو يشكك في جدة وعلمية هذه الدراسات المُنجَزة.

نقد خطاب كورونا

نشير في البداية إلى أنه يصعب وضع خطاب كورونا في سلةٍ واحدة، وإنْ كانت هذه الأخيرة بحجم وسعة العلوم الاجتماعية بمختلف ميادينها وحقولها التخصصية، لأنه تعذر على أصحابها التمييز بين خصوصيات الخطابات، متناولين الجَائِحة بنفس أدوات البحث والتحليل، أو قُلْ: لم يحسنوا توظيفها جيّداً، أي أنهم اقتصروا على التحليلات السطحية والمُعطيات المُباشرة، ونسوا أن أغلب هذه المُعطيات كما يقول «كلود ليفي ستراوس»: غالباً ما تكون إما خاطئة أو مضللة. وخاصة حينما يرتبط الأمر بالقدرة التحويلية للجَوائِح، ويتمُّ الانتصار لأطروحة على حساب أخرى.

وفي الحقيقة حتى المُؤرِّخين يختلفون جداً في مسألة القدرة التحويلية للجَوائِح، فإن كان الصف الأول يعتقد بقدرة الجَوائِح على تغيير طبيعة المُجتمعات أو على الأقل تغيير جزء من طبيعة بنيات الدولة والمُجتمع، كتدمير الدول أو خلخلة بنياتها الأساسية سواء الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية. بلغةٍ أخرى، وحسب هذا التوجُّه من المُؤرِّخين، فإن الجَوائِح أو على الأقل بعضها، عصف بوجود بعض الدول، وأضعف سلطان أخرى، وعرقل سيرورة وصيرورة التنمية في الثالثة، وشكَّك الناس في أنساقهم الثقافية، والقيمية والعقائدية، بحيث لم تستطع الصمود أمام هول الجَائِحة. وفي المُقابل يؤكِّد بعض المُؤرِّخين، أن الجَوائِح عبر التاريخ لم تشكِّل لحظة فارقة في تاريخ البشرية، بدليل أن الدول، وخاصة النخب الحاكمة، لم تعدِّل لا من طبيعة نظامها السياسي، ولا من خياراتها الاقتصادية، ولا من نظمها التربوية والثقافية. في نظر هؤلاء، الجَوائِح مجرد سحابة عابرة، سرعان ما تختفي في السماء وتعود الدول إلى حياتها الطبيعية كما كانت قبل الجَائِحة[1].

ما بَعد «كوفيد - 19»

بحوالي ثلاث سنوات قبل وباء «كوفيد - 19»، ساد الحديث عن بروز ملامح لنظام عالمي جديد، أي الانتقال من الأحادية القطبية إلى الثنائية القطبية[2] أو التعدُّدية القطبية[3]. لكن مع انتشار الفيروس تمَّ الترويج لهذا الخطاب بشكلٍ كبير جدّاً عبر الطاحونة الإعلامية، وتمَّ استهلاكه بشكلٍ كبير من طرف الجمهور، لأنه كان يقدَّم على لسان محترفي الخطاب الرمزي وبعض الاختصاصيين في القضايا الاستراتيجية والسياسات الدولية، وهكذا «أقنعوا» كتلة مهمَّة من الجمهور بأن لحظة كورونا هي لحظة مفصلية في تاريخ البشرية، وأن هذه الأخيرة على موعد مع التاريخ لتغيير النظام العالمي، وأنه لا خيار أمامها إلّا التكيُّف مع النظام العلمي الجديد. كما لا خيار أمام الولايات المُتحدة الأميركية، إلّا أن تقبل قيادة العَالَم الجديد بشراكة مع الصين، أو أن هذه الأخيرة ستقوده لوحدها أو بتعاون مع أطرافٍ أخرى.

وفي نظَر الدكتور خالد شهبار هذا القول، تعوزه الحُجج الكافية، لأن الولايات المُتحدة لازالت قادرة على قيادة العَالَم ما بَعد «كوفيد - 19»، «فأسلحتها لازالت هنا والآن، لم تصدأ، وذخيرتها لم تستنفد، وعظامها لم تتهشم، وأنيابها لم تتكسر، رغم الطابع التسونامي للجَائِحة»[4]. وهذا ما تؤكِّده مجموعة من المُؤشرات، سواء المُتعلِّقة بالمجال العسكري، أو الاقتصادي، أو الإعلامي... بغض النظر عن طبيعة نظامها السياسي ونخبها الحاكمة في الزمن الراهن، وفيما يلي بعضٌ من هذه المُؤشرات الدالة[5]:

من الناحية الاقتصادية، لا يتجاوز الناتج الداخلي-الخام الصيني، الذي يبلغ (14217) مليار دولار، نسبة 66 في المئة من الناتج الداخلي-الخام الأميركي الذي

يبلغ (21345) مليار دولار.

من الناحية العسكرية، فأميركا تتوفَّر على قواعد عسكرية في معظم دول العَالَم، بينما لا تتوفَّر الصين إلّا على قاعدة واحدة بجيبوتي.

من الناحية المالية، فالدولار ما يزال ومنذ اتفاقيات «بروتن وودس Bretton Woods» سنة 1944، العملة الاحتياطية الأساسية في التداول النقدي العالمي. ويكفي للتدليل على قوته، أن نشير إلى أن الصين تقتني البترول الإيراني بالدولار، رغم أنهما خصمان لدودان للولايات المُتحدة.

من الناحية التكنولوجية، وبالإضافة إلى أن أميركا لازالت تسيطر على نظام السويفت وتهدِّد خصومها بحرمانهم من خدماته، فإن محرِّك البحث «غوغل Google»، مازال متفوقاً بشكلٍ كبير على «بايدو Baidu» الصيني، وموقع التجارة الإلكترونية «أمازون Amazon»، مازال متفوقاً على نظيره «علي بابا Ali baba»، ومنصة التواصل الاجتماعي «فيسبوك Facebook» التي يصل عدد مستخدميها كل شهر إلى 5.8 مليار مازالت متفوقة على نظيرتها الصينية «تينسنت Tencent» التي لا يتجاوز مستخدموها 4.2 مليار مستخدم، كلهم صينيون.

في مجال القوة الناعمة (Soft Power)، يكفي أن نذكر هنا بأن كل التصنيفات العَالَمية للجامعات تمنح الصدارة للجامعات الأميركية التي استقبلت 1.1 مليون طالب أجنبي خلال السنة الجامعية 2019/2018، ثلثهم صينيون (370000 طالب)، من بينهم حفيدة الرئيس الصيني «شي جي بينغ» التي قضت أربع سنوات (ما بين 2010 و2014) في جامعة «هارفارد». وعلى غرار المُؤسَّسات الجامعية، مازالت المُختبرات وفرق البحث الأميركية تسيل لعاب أفضل الكفاءات والخبرات العلمية العَالَمية، أمّا الصين فهي تعجز حتى عن استقطاب الكفاءات الأميركية من أصول صينية.

إعلامياً، وعلى خلاف القنوات الصينية التي لا يتجاوز تأثيرها الصين والصينيين، فالقناة الأميركية (CNN) تظل من أكثر القنوات انتشاراً ومشاهدة في العَالَم، حيث يصل إرسال برامجها إلى أكثر من 212 دولة، فضلاً عن إشعاع هوليوود العَالَمي الذي جعلها إحدى أهم أدوات القوة الناعمة الأميركية التي تساهم بقوة في أمرَكَة العَالَم عبر تسويق القيم والثقافة الأميركية.

بناءً على هذه الاعتبارات وأخرى، يخلص خالد شهبار إلى أن «كوفيد - 19» لن يغيِّر شيئاً في علاقات القوى الدولية، ولن يسرِّع من تراجع النفوذ الأميركي، أو يساهم في تآكل ونضوب الموارد التي تغذيه وتعيد إنتاجه على الأقل في الوقت الراهن.

عموماً، حاولنا في هذه المُساهمة رصد أهم المُنعطفات الإبستمولوجية والمنهجية التي عرفها خطاب كورونا في العلوم الاجتماعية، ومساءلة أهم السيناريوهات لعَالَم ما بَعد «كوفيد - 19»، سواء السيناريوهات التفاؤلية، التي بشَّرت بأن العَالَم بعد هذه الجَائِحة سيكون أكثر ديموقراطية؛ أي ذاك العَالَم الذي سينتهي فيه البؤس والجوع والحرب، وستسود فيه العدالة والرفاه الاجتماعي. أو تلك السيناريوهات التشاؤمية السوداوية، التي تظن أن العَالَم سيصبح أكثر ديكتاتورية، باتساع مجال مراقبة تحرُّكات المُواطنين إلى درجة إحصاء أنفاسهم في المجال العمومي والخصوصي عبر تقنيات تكنولوجية عالية الجودة والدقة.

وفي مقابل ذلك عرضنا تصوُّر خالد شهبار، الذي يمكن وصفه بالتصوُّر الواقعي، الذي ينتصر بناءً على حُجج قوية سبق عرضها إلّا أن عالَم ما بَعد «كوفيد - 19» سيبقى كما كان من قبل، سواء على مستوى المد العولمي أو على مستوى العلاقات الدولية والتوازنات الجيو-استراتيجية، أو التقسيم الدولي للعمل أو العلاقات الاجتماعية بين الجنسين، أو الوعي الإيكولوجي، أو السياسات العمومية، أو أنظمة الحكم والحكامة، أو علاقات القوة الاجتماعية، أو آليات توزيع الثروة والسلطة والرأسمال الثقافي والرمزي. وذلك راجع لعدّة اعتبارات منها: كلُّ المُؤشّرات تؤكِّد أن النخب النيوليبرالية الحاكمة والتي تخترق كل الدول الحديثة لازالت وفيّة لعقيدتها الاقتصادية ولقناعاتها الإيديوسياسية من جهة، وأن الأحزاب اليسارية والشيوعية التي تملك مشروعاً مناهضاً للرأسمالية لازالت كتلتها الانتخابية ضعيفة جدّاً. وبلغة أخرى، «تظل القوى السياسية والاجتماعية والإيكولوجية المُناهضة للمشروع النيوليبرالي غير قادرة على استغلال لحظة «كوفيد - 19» لصُنع عالَم أفضل، وذلك بسبب ضعف امتدادها الشعبي، وعجزها عن الفعل والتأثير في مجرى ومسرى تاريخ المُجتمعات»[6]. ■ **محمد الدحاني**

هوامش:

1 - لقد عرض خالد شهبار مختلف هذه المواقف بأدلتها وحجج كل فريق منها في الفصل الأول من كتابه عالَم ما بَعد «كوفيد - 19»، في ما يلي توثيقه:
- خالد شهبار، عالَم ما بَعد «كوفيد - 19»: الحمل الكاذب، تقديم عبدالملك ورد، مطابع (الرباط نت) - الرباط، 2020، ص21 - 65.

2 - ياسين اليحياوي، نحو نظام دولي ثنائي القطب أميركي- صيني؟ مجلة استشراف، العدد (2) (أغسطس/آب 2017)، ص291 - 296.

3 - علي الجرباوي، الرؤى الاستراتيجية لثلاثي القطبية الدولية: تحليل المضمون، مجلة سياسات عربية، العدد 31 (مارس/آذار 2018)، ص7 - 22.

4 - خالد شهبار، عالَم ما بَعد «كوفيد - 19»..، ص121.

5 - المرجع السابق، ص39 - 45.

6 - خالد شهبار، عالَم ما بَعد «كوفيد - 19»، ص113.

المراجع:

- اليحياوي ياسين، نحو نظام دولي ثنائي القطب أميركي- صيني؟ مجلة استشراف، العدد (2) (أغسطس/آب 2017).
- الجرباوي علي، الرؤى الاستراتيجية لثلاثي القطبية الدولية: تحليل المضمون، مجلة سياسات عربية، العدد (31) (مارس/آذار 2018).
- شهبار خالد، عالَم ما بَعد «كوفيد - 19»: الحمل الكاذب، تقديم عبدالملك ورد، مطابع (الرباط نت) - الرباط، 2020.

الاقتصاد النسوي
مقارَبة حديثة ومتعدِّدة

لطالما غفلَ علماءُ الاقتصادِ عن العلاقات بين الجنسين، ولا يزال الكثير منهم كذلك. ولتصحيح هذا الانحياز الإشكالي تضاعفتْ الدراساتُ والبحوث، ولكن من منطلقاتٍ مختلفة. ويمكننا، على وجه الخصوص، التمييز بين ثلاثة تيارات رئيسية.

إنه في الوقتِ الذي لم يدرسْ فيه الاقتصادُ السياسيُّ، بما في ذلك الماركسي، العملَ المنزلي والحرّ الذي قدَّمته النساء، نجد أنّ النضالاتِ النسوية في الستينياتِ والسبعينيات أنتجت تنظيراً مكثفاً للتفكير في مساهمة المرأة في الاقتصاد. وإذا كانت العلوم الاجتماعية سرعان ما استحوذتْ على هذه الموضوعاتِ، فإنّ الاقتصادَ السياسيّ لم يهتم، فعلاً، بهذه المسألةِ حتى نهاية التسعينيات، وبشكلٍ رئيسي على الجانب الآخر من المُحيطِ الأطلسي.

واليوم، يبدو أنَّ الاقتصادَ النسوي والجندري يشهد تطوُّراً حقيقياً في فرنسا،كما يتّضحُ، على سبيل المثال، من خلال إصدار مجلة نظرات متقاطعة حول الاقتصاد (Regards croisés sur l'économie) سنة 2014 عدداً بعنوان «هل نستطيع القيام باقتصاد النوع؟» وظهور كتابيْن مخصَّصين للمسألة، سنة 2020، هما كتاب «هيلين بيريفير Hélène Périvier» «الاقتصاد النسوي - L'économie féministe»، وكتاب «غيوم فاليت Guil-laume Vallet»، «اقتصاد سياسي للنوع - Économie politique du genre». يضع الاقتصادُ الذي يدّعي أنه نسْويٌّ نفسَه بشكلٍ صريحٍ في نهجٍ معياري، أيْ أنه يقترح أنْ يأخذ في الاعتبارِ الأبعادَ المُتعدِّدة لعدم المُساواة بين الرجال والنساء والأقليات الجندرية في التحليل والتفكير في استراتيجيات القضاء على هذه التفاوتات.

إنَّ علمَ الاقتصاد، باعتباره تخصُّصاً يحلّل إنتاج الثروة وتوزيعها، ينطوي على دراسةٍ مادية للقضايا المُتعلِّقة بالتمايز الاجتماعي بين الجنسين. وباعتباره تحليلاً للرأسمالية، فإنه يثير مسألة العلاقة بين نظام الهيمنة الذي تعاني منه النساءُ والأقليات الجندرية، والاستغلالِ الرأسمالي.

فيما يتعلَّق بكلّ هذه الأسئلة، يمكننا اليوم أنْ نميّزَ بين ثلاثة فروع تشكِّل الاقتصاد النسوي والجندري، يتمُّ تعريف كل منها من خلال:

1 - تحليل محدّد لهيمنة النساء. 2 - طريقة في التفكير في التمفْصل بين هذه الهيمنة والاستغلال الرأسمالي. 3 - استراتيجية لمُحاربة هيمنة الذكور.

النسوية المادية: الأبويّة والنضال المستقل

لقد تمَّ تطويرُ المُقاربة الأولى لـ«الاقتصاد النسويّ» في سبعينياتِ القرن الماضي من قِبَلِ ناشطاتٍ منخرطات فيما يُشار إليه عادةً باسم «الموجة الثانية» للنسويّة.

إنه «اقتصادٌ سياسي للنظام الأبوي»، وهو العنوان الفرعي لكتاب عالِمة الاجتماع «كريستين دلفي Chris-tine Delphy» الذي نُشِرَ في عام 2013، وجمعَ مقالاتها المكتوبة منذ عام 1970. ولقد سُمّيت هذه المُقاربة - التي تمَّ تطويرُها بشكلٍ أساسي من قِبَلِ علماء الاجتماع («كريستين ديلفي Christine Delphy»، «كوليت غيومين Colette Guillaumin»، «نيكول كلود ماتيو Nicole-Claude Mathieu»، من بين آخرين) «النسوية المادية (الفرنسية)».

تؤكِّد «النسوية المادية» معارضتها للماركسية، مع احتفاظها بالمُقاربةِ الماديّة، وكذلك بمفهوم نمط الإنتاج.

وتَعتبر هذه المُقاربة، من الناحية النظرية، هيمنةَ الذكور استغلالاً للنساء في إطار نمطِ الإنتاج المنزليّ (أو الأبوي) الذي يوجد بالتوازي مع نمطِ الإنتاج الرأسمالي، والذي يقوم في نفسِ الوقت على عملٍ أنثويٍّ حرّ، وعلى نقلٍ غير متكافئ للإرث من خلال الميراث.

إنَّ تعايشَ نمط الإنتاج هذا مع الرأسمالية يعني



أنّ النساءَ ضحايا استغلالٍ مزدوج: من قِبَلِ الرجال في السياق المحلي، من ناحيةٍ أولى، ومن جانبِ الرأسماليين، من ناحيةٍ ثانية، في علاقة بنظامِ التأجير.

هذا الموقفُ يختلفُ عن موقف «إنجلز Engels» في كتابه «أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة L'Origine de la famille, de la propriété privée et de l'État» عام (1884)، حيث اعتبر أن «الرجل هو البرجوازي في الأسرة؛ وتلعب المرأةُ دورِ البروليتاريا»، ولكنَّ الذي استفاد من الاستغلال، أخيراً، داخل الأسرة هم الرأسماليون وليس الرجال.

لذلك، بينما ترى الماركسية التقليدية أنَّ الإطاحة بالرأسماليةِ ستُنهي هيمنة الذكور، ترى النسوية المادية أنه لا توجد صلةٌ منطقية بين الاثنتين.

ولقد تمَّ تنفيذُ هذه الاستراتيجية في منظَّماتٍ مثل «حركة تحريرِ المرأة» (MLF) و«التجمع النسوي الدولي»، وكانت سبباً في ظهور حركة «الأجر مقابل الأعمال المنزلية» (Wages for Housework)، وبالتالي، فإنّ النسوية المادية تدافع عن منظّمةٍ مستقلةٍ للنساء من أجل نضالهن، منظّمةٍ مكمِّلة لتلك الموجودة على أساس طبقي، أو يمكن أنْ تحلَّ محلها.

نظرية إعادة الإنتاج الاجتماعي

ظهر، في الآونة الأخيرة، ما يُسمَّى نظرية «إعادة الإنتاج الاجتماعي»، والتي تُدْمِجُ بعض مساهمات النسوية المادية المُستقلة، ولكنها تضعها في إطارٍ نظريٍّ وسياسي ماركسي وثوري.

وهي نظرية تستند أساساً إلى قراءة نقدية لـ«إنجلز Engels» و«ماركس Marx»، والاهتمام بمسألة استغلال المرأة تحديداً، وتأخذ بعين الاعتبار مساهماتِ النّسويات في منظَّمة المرأة الاشتراكية الدولية (ISF) (ومن بينهن «كلارا زيتكين Clara Zetkin»، و«ألكسندرا كولونتاي Al-exandra Kollontaï»، و«روزا لوكسمبورغ Rosa Lux-emburg»).

تهدف نظرية «إعادة الإنتاج الاجتماعي» إلى تطوير تحليلٍ مشتركٍ للإنتاجِ الرأسمالي وما تسميه «إعادة الإنتاجِ»، أيْ كلّ ما يتعلّق بظروف تراكم رأس المال.

يتعلّق عمل «إعادة الإنتاج» إذنْ بكلِّ العمل المطلوب لتصنيع بضاعة قوة العمل، السلعة الوحيدة التي لا تُنتَج بالضرورة في ظلِّ الظروفِ الرأسمالية. وهذا هو السببُ في أنّ بعض منظري «إعادة الإنتاج الاجتماعي» مثل «سينزيا أروزا Cinzia Arruzza» يتحدَّثون عن «الاقتصاد السياسي لقوّة العمل».

وباختصار، فإنّ نظرية إعادة الإنتاج الاجتماعي تتضمَّن، في دراسة التراكم الرأسمالي، الآلياتِ التي يحصل النظامُ من خلالها على قوة العمل، سواء كانت هذه الآلياتُ قائمةً على العمليات البيولوجية (الحمل)

أو لـم تقـم عليهـا (العبوديـة)، وسـواء كانـت موجـودةً فـي المنـزل أو لـم توجـد فيـه (الخدمـات الاجتماعيـة أو المُخصخصـة).

وبالتالـي، فـإنَّ النسـاءَ يتـمُّ اسـتغلالُهن فـي عملهـنّ الإنتاجـيِّ (تمامـاً مثـل البروليتاريـين الذكـور) والعمـلِ الإنجابـي (أكثـر مـن البروليتاريـين الذكـور). ولكـنْ، فـي كلتـا الحالتين، يسـمح هذا الاسـتغلالُ بتراكـم رأس المال. ولذلـك، تظـل مقاومـة الرأسـمالية مركزيـةً وذات أولويـة، حتـى لـو لـم تكـن الإطاحـةُ بهـا كافيـةً لتحقيـق المُسـاواةِ بيـن الرجـل والمـرأة، آليّـاً.

هذه النظريةُ ذات بناءٍ حديث (أواخر سنة 2010)، وهي تضـمُّ العديـدَ مـن المُنظّريـن، وخاصـة الفلاسـفة («تيثي بهاتاشاريا Tithi Bhattacharya» «سينزيا أروزا Cinzia Arruzza»، «نانسـي فريـزر Nancy Fraser»، مـن بيـنِ آخريـن)، حـول تقليـدٍ نظـريّ وسياسـيّ غيـر موحَّـد تمامـاً.

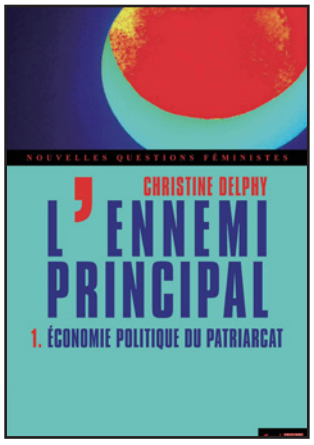
وإذا كانـت الاسـتراتيجية المطلوبـة تتمثـل فـي التنظّـم علـى أسـاس طبقـي فـي إطـار علاقـات الإنتـاج، فـإنَّ نظريـة إعـادة الإنتـاج الاجتماعـي تؤكّـد أيضـاً علـى تعـدُّد سـاحاتِ الأزمـات والنضال.

اقتصادُ المؤسسات النسويُّ

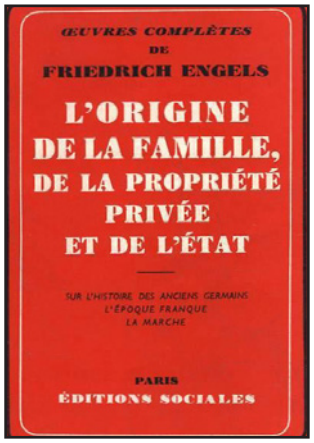
لقـد تـمَّ تطويـرُ الفـرع التأسيسـيِّ الأخيـر للاقتصـاد النّسـوي والجنـدري مـن قِبَـل اقتصاديـين مختصّيـن. وهـو ما يُعرَف بالمُقاربةِ «غير الأرثَدوكسية» أو «المُؤسّساتية»، والتـي تشـكِّل تياراً أقل توحيداً من المُقاربتين السـابقتين، حيـث تجمـع الاقتصاديـاتِ الأميركيـات («نانسـي فولبـر Nancy Folbre»، و«جولـي نيلسـون Julie Nelson»، و«سـيلفي موريـل Sylvie Morel»، و«ويليـام والـر Wil-liam Waller»، وغيرهن)، وفي الآونة الأخيرة، الفرنسياتِ («رتشال سيلفيرا Rachel Silvera»، «أن إيدو Anne Ey-doux»، «هيليـن بيريفيـار Hélène Périvier»، «غيلـوم فاليـه Guillaume Vallet»).

تُدْمِجُ هـذه المُقاربـةُ البُعـدَ الجنسـاني فـي دراسـتها للرأسـمالية، أيْ أنهـا تحلّـل المُؤسّسـاتِ الاجتماعيـة والاقتصاديـة التـي تنظّـم وتحافـظ علـى هيمنـة الذكـور فـي قلـبِ النظـام الاقتصـادي. ويمكن أنْ نستشـهد، على سـبيلِ المثـال، بـدور نمـوذج الدولـة «الاجتماعيـة» التـي تشـكّل، مـن خـلال الحمايـة القانونيـة والاجتماعيـة المُرتبطـة بمسـألة الـزواج، حافـزاً قويـاً لإبعـادِ النسـاء عـن دائـرة الإنتـاج الرأسـمالي.

ونتيجـة لذلـك، يمكـن وصـف هـذه المُقارَبـة بأنهـا إصلاحيّـة، بمعنـى أنهـا ليسـتْ جـزءاً مـن النضـال ضـد الرأسـمالية. إذ بالنسـبة إلـى هـذا الاقتصـاد النسـويِّ، فـإنَّ الرأسـمالية يمكـن أنْ تتخلّـصَ مـن هيمنـة الذكـور، ويمكـن «ترتيـب» عملهـا، يكفـي فقـط، تحديـدُ السياسـات العامـة والماليـة المُناسـبة.









وعليـه، يلتحـق هـذا التقليـد بالاقتصـاد السياسـي الـذي ينصـح السـلطة، ويعمـلُ علـى تطويـر الخبـرة فـي كيفيـة تنظيـم الدولـة أفضـلَ رأسـماليةٍ ممكنـة.

ومـن المُثيـر للاهتمـام أيضـاً أنْ نلاحِـظ أنّ تطـوُّر هـذا الفرعِ من الاقتصاد يتوافق مع حركة «مَأسَسَـة» النّسـوية، أيْ دخولها إلـى قلـبِ الدولـة مـن خـلال مسـألة التكافـؤ، وكذلـك تطويـر حركةِ جمعيات تفوّضُ إليها الدولةُ مهمّاتِ الخدمـةِ العامـة، مثـل مكافحـة العنْف الأسـريِّ.

وبطبيعـة الحـال، فـإنَّ الحـدودَ بيـن المُقاربـات الثـلاثِ ليسـت محكَمـة تمامـاً، مـن حيـث أنّ الأعمـال التـي توثـقِ هـذا الجانـبَ أو ذاك مـن جوانـب سـيطرة الذكـور مفيـدةٌ دائمـاً فـي كلّ التحليلات.

ومـع ذلـك، فـإنَّ المواقـفَ النظريـة والسياسـيّة الكامنـة وراء هـذه الفـروع الثلاثـة متباعـدةٌ إلـى درجـة أنـه لا يـزال مـن الصّعـبِ حشـدُها بشـكلٍ مشـترك للتفكيـر فـي نظـام (أنظمـة) الهيمنـة، أو حتـى أسـتراتيجية عمـلٍ يضـع لهـا للهيمنـةِ حـدّاً.

■ **إيرين بيرثونيه**[2] □ **ترجمة: رضا الأبيض**

العنوان الأصلي والمصدر:

Irène Berthonnet , L'économie féministe, une approche récente et plurielle

https://www.causecommune-larevue.fr/leconomie_feministe_une_approche_recente_et_plurielle

(2) إيرين بيرثونيه أستاذة محاضرة في الاقتصاد في جامعة باريس-ديدرو.

بيئة





غريتا ثونبرج:

أريدكم أن تشعروا بالذعر

«غريتا ثونبرج»، أيقونة المناخ العَالَمي الشابة. رغم أنها لا تنتمي للنخبة المُثقَّفة، إلّا أن دعواتها، التي أزعجت الكثير من الناس، أصبحت تثير سؤالاً عميقاً: ماذا لو كان للذعر فضائل كالتحشيد والتعبئة؟

في وقت العشاء، ينطلق جرس إنذار الحريق. تخرج على الفور لتدرك أن سطح منزلك قد التهمته ألسنةُ النيران، ورائحة الاحتراق والدخان تقبض على أنفك. لكن، وكأن شيئاً لم يكن، تعود إلى المنزل لتكمل عشاءك. بعد كل شيء، أنت كنتَ قد خططت لمُشاهدة فيلم قبل الذهاب إلى السرير. في مارس/آذار 2020، وأمام أعضاء البرلمان الأوروبي الذين وصفت لهم «غريتا ثونبرج» هذا المشهد، قالت الأخيرة: «أنا آسفة، لكن هذا لا معنى له». الناشطة السويدية الشابة المولودة عام 2003 تفضل أن يشعر سكّان هذا المنزل بالذعر. وأن يتحرَّكوا في الإبّان: اتصلوا بقسم الإطفاء، سارعوا بإخماد الحريق. منذ خطاباتها الأولى، كرّرت الناشطة في المناخ الاستعارة الشيراكية «البيت المحترق»، للتأكيد على عبثية الافتقار إلى العمل السياسي في مواجهة كارثة المناخ المُتفاقمة.

في «دافوس»، في عام 2020، استحضرت المشهد مرّة أخرى: «منزلنا لا يزال مشتعلاً. إنّ تقاعسكم عن العمل يؤجِّج اللهب ساعةً بساعة».

أدركت «غريتا ثونبرج» «الحريق» أثناء مشاهدتها فيلماً وثائقياً في الفصل عن «قارة البلاستيك». نتيجة لذلك، في الحادية عشرة من عمرها، انتابها حزنٌ عميق، وصمتت عن الكلام، وتوقفت عن الأكل. تمَّ تشخيصها بـ«متلازمة أسبرجر»، وهي شكلٌ من أشكال التوحُّد، وهذا ما يفسر ذاكرتها الاستثنائية، وقدرتها على استحضار كومة الوثائق التي تراجعها. في عينيها صور لأطنان من النفايات تطفو على الماء أو للدببة القطبية المحرومة من الجليد. الشابة السويدية حوَّلت عائلتها إلى نباتية وأقنعتهم بعدم استخدام الطائرة في تنقلاتهم - والدتها مغنية أوبرا، ووالدها ممثل ومخرج، وإقناعهم ليس بالأمر

الهيّن. في 20 أغسطس/آب 2018، بمُناسبة عيد ميلادها الخامس عشر، جلست بمفردها أمام البرلمان السويدي ورفعت لافتة كانت تأخذها معها إلى كلِّ مكان. وكتبت عليها بأحرف سوداء على خلفية بيضاء: «Skolstrejk för klimatet» («إضراب مدرسي من أجل المناخ»). بعد صيف من الجفاف، قرَّرت المُراهقة ذات الوجه المُستدير والطفولي، والمُحاط بضفيرتين طويلتين، عدم العودة إلى المدرسة، كما فعل طلاب المدارس الثانوية الأميركية في باركلاند (فلوريدا) قبل بضعة أشهر، بعد مذبحة مروِّعة في مؤسّستهم.

ولئن حظيت «غريتا ثونبرج» وحركتها «أيام الجمعة من أجل المستقبل» بصدى إعلاميٍّ واسع وناشط لافت، فذلك لأنها ظهرت في سياق غلبت عليه خيبات الأمل: «لقد بلغنا مرحلة أدركنا فيها أن خطاب «الخطوات الصغيرة» لا يدوم طويلاً: لم يتم احترام اتفاقيات باريس لعام 2015، والتي لم تكن في مستوى التحدي بأي حال من الأحوال»، يتذكر «لوك سيمال»، المُتخصّص في النشاط البيئي، والمُحاضر في المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي. في فرنسا، يتزايد الوعي مع استقالة الوزير «نيكولاس هولو» في أغسطس/آب 2018. وبعد مرور عام، نجحت الشابة في التعريف بأزمة المناخ بزيارتها لأكثر من 150 دولة. أصبحت «غريتا ثونبرج»، التي تعافت من الاكتئاب بفضل نشاطها البيئي، أيقونة هذا الجيل، ورمزاً لمُعاناتهم المناخية.

في وقتٍ مبكِّر من عام 1979، تحدّث الفيلسوف الألماني «هانز جوناس» -بالفعل، في مسألة وجود الكوكب- وعن «الخوف كعنصر مساعد للكشف»: هذا هو ما يدفعنا إلى اغتنام المشكلة وإيجاد الحلول. لم تقل «غريتا ثونبرج» شيئاً آخر عندما وجّهت اللوم إلى القادة المُجتمعين في قمة «دافوس» 2019: «لا أريدكم أن تأملوا. أريدكم أن تشعروا بالذعر. أريدكم أن تشعروا بالخوف الذي أشعر به كل يوم وتتخذوا إجراءً مناسباً». «لوك سيمال» متحدثاً عن فيلسوف ألماني آخر، «غونتر أندرس»، الزوج الأول لـ«هانا أرندت»، الذي وصف نفسه بـ«زارع الذعر»: «بالنسبة له، كان التهديد النووي كبيراً جداً أن أدرك الناس خطورته، ولذلك كان من الضروري إعطاء الأهمّية اللازمة على هذا الواقع المناخي: «واجهوا الخوف». الذعر طريقة وممر أساسي لمُواجهة أزمة المناخ وإيجاد الحلول بشكلٍ جماعي. في المُقابل، كانت «ثونبرج» «تزرع الخوف»، في خطوة ساعدت على نشر الوعي بالكارثة، ضمن تيار الإيكولوجيا السياسية التي كانت مقتصرة في السابق على المؤشرات التنازلية.

الناشطة أيضاً نجحت أيضاً في قلب ترتيب الأجيال وتعليم الكبار درساً. «كيف تجرؤون؟» في منبر الأمم المتحدة، في سبتمبر/أيلول 2019، كانت اللهجة قوية وقطعية. الغضب يفور من خديها، عيناها مليئتان بالدموع. «لقد سرقتم أحلامي وطفولتي بكلماتكم الفارغة. الناس يعانون ويموتون. الأنظمة البيئية بأكملها تنهار، ونحن في بداية الانقراض الجماعي وكل ما يمكنكم التحدُّث عنه هو المال والقصص الخيالية للنمو الاقتصادي الأبدي. تختار «غريتا ثونبرج» كلمات بسيطة بصيغ إيقاعية مؤثّرة. يقول مؤرِّخ الفنّ «لورانس برتراند دورلياك» «معركتها بدأت بالصور»، وقد خصّص لها للتو كتاباً بعنوان («دب في الرأس»). كل ذلك مع إحساس مذهل وحضور ركحي مميّز، ورثته بلا شك من عائلتها.

مثل غيرها من الشخصيات البيئية التي سبقتها، تشعر «غريتا ثونبرج» بالغضب. تمَّ انتقاد شخصيتها وشبابها واضطرابات التوحُّد لديها، في مزيج من التمييز على أساس الجنس، والتفرقة العمرية والشرعية التي يمكن أن تصل إلى حدِّ الدعوة العامة للقتل. في فرنسا، هاجمها المُثقَّفون: «ألان فينكيلكراوت» يدين «الاستدعاءات المُجردة للخطاب الطفولي». ويصفها «باسكال بروكنر»، «دعاية الطفولة المناخية». هذا فقط! «يتمُّ إعادة تنشيط هذه الانتقادات القديمة عندما تحتدم النقاشات حول الأزمة، وضرورة اتخاذ القرار، كما يعلّق «لوك سيمال». التنمية المُستدامة توافقية، ولكن بمجرد أن تتساءل عن أسلوب حياتك، فهذا شيء آخر. فكرتها بحظر السفر بالطائرة هي التي أثارت هذه الموجة من الاستنكار.

لحضور قمة المناخ العالمية في نيويورك، عَبَرَتْ «غريتا ثونبرج» المُحيط الأطلسي في مركب شراعي خالٍ من الكربون. وللوصول إلى «دافوس»، استغرقت 32 ساعة بالقطار واستنكرت عند وصولها وجود 1500 طائرة خاصة أتى أصحابها لمُناقشة مشكلة المناخ. في بلدان الشمال، هناك شعور متزايد بالعار من السفر بالطائرة (عبارة «flygskam» باللّغة السويدية أصبحت متداولة مؤخراً). واختتمت الصحافة تقاريرها بـ«تأثير غريتا ثونبرج».

اليوم، «غريتا» التي لم تعد طفلة، لا تكتفي بالتذكير أن المنزل يحترق: «في البداية، قالت إنه يجب علينا الاستماع إلى رأي العلماء، وكأن هذا النضال يتجاوز الانقسامات السياسية والاجتماعية. ثمَّ تطوَّرت إلى نقد النظام الرأسمالي»، يشرح «ماكسيم جابوريت»، طالب دكتوراه في العلوم السياسية، ومشارك في حركة المناخ. في هذا الخريف، ستقود «غريتا ثونبرج» عملاً جماعياً حول تغيُّر المناخ من إصدار «Penguin»، ساهم فيه كلٌّ من «طوما بيكيتي» و«مارغريت آتوود» و«ناعومي كلاين». وقالت الناشطة لصحيفة «الغارديان»، على وجه الخصوص، سيكون الأمر متعلّقاً بالأمل: «وهذا شيء لا أحد يمنحه لك، يجب أن تنتزعه بنفسك، وأن تصنعه. وهذا دليل على أن الذعر لا يؤدي بالضرورة إلى اليأس.

■ **إميلي بروز** □ **ترجمة: مروى بن مسعود**

المصدر:
L'obs_Hors-Serie عدد (111) يونيو/حزيران 2022.

برونو لاتور

على أي أرض سنحيا؟

«التاريخ الأرضي صار جزءاً من التاريخ الإنساني». فالنشاطُ البشري يؤثر على البيئة بكيفية أكثر سرعة وعمقاً واستدامة من أي وقت مضى، وهذه البيئة تؤثر، بدورها، على شروط وجود الكائنات الحية. والسؤال الأساسي المُتعلّق بالمستقبل لم يعد يطرح بألفاظ الزمن، بل بألفاظ المكان: على أي أرض سنحيا؟ فإذا لم يكن هناك مَخرَج ما، فإنه يقع على عاتقنا التفكير في الحاضر الهش. وينكب برونو لاتور على هذا الأمر هنا، واضعاً المناخ في قلب حرب (جيوسياسية géopolitique) عالمية جارية، كثمرة لـ«صراع طبقات جيواجتماعية» (géosociales).

سفين أورتولي: هل المُستقبل مصدر قلق بالنسبة إليكم؟

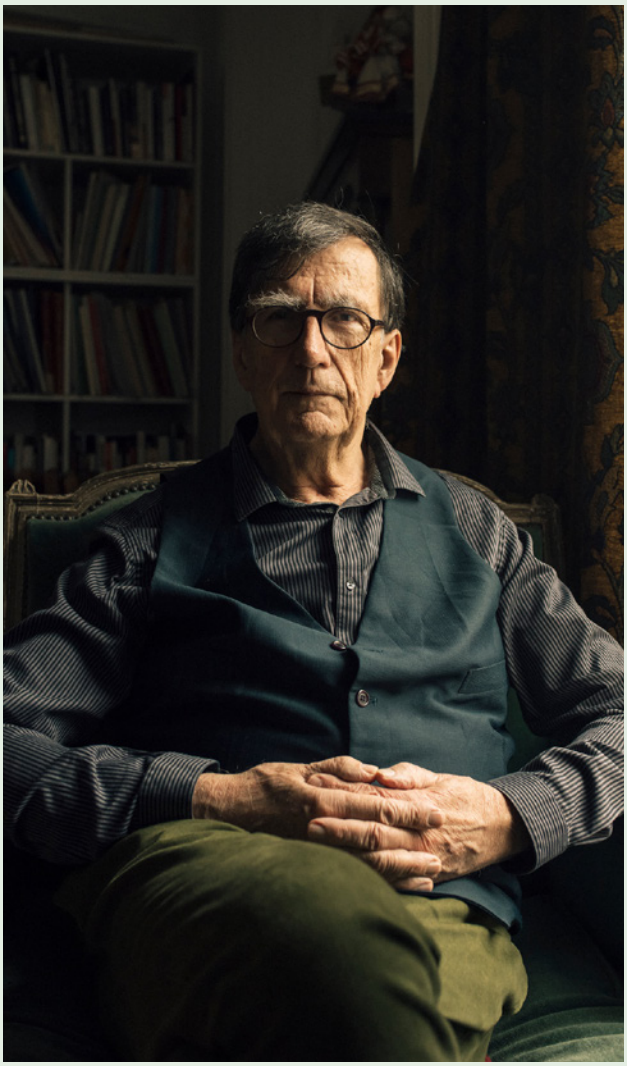
- **برونو لاتور:** سأقول، بدايةً، إن نظرتنا للمُستقبل قد تغيَّرت جذرياً: لقد انتقلنا من تصوُّر زمني إلى آخر مكاني. ففي التقليد التقدُّمي، كان المُستقبل بدون مكان. أما راهناً، فكلّ استباق زمني إلّا وتصاحبه واقعة أنه يتعيَّن، أيضاً، تحديد المكان الذي سيكون لنا فيه مستقبل. وهذا يغيِّر الأمر برمته، كما يغيِّر أفكار التقدُّم والتحرُّر والأمل. ويطرح «بْيير شارْبونْيي - Pierre char-bonnier» في كتابه «الوفرة والحريّة - La Découverte Abondance et liberté»ـ (2019)، هذا السؤال بالضبط: ما هو المكان الذي سنكون فيه أحراراً؟ وسبق لـ«بيتِر سْلوتِيرْدايْك - Peter Sloterdijk» في ثُلاثِيتِه «دوائر» Sphères (التي نُشرت بألمانيا في 1998، 1999، 2004) أن أثار سؤال المكانية هذا، دون أن ينشغل مباشرةً بالاحتباس الحراري: ما هي الشروط المادية من أجل «الوجود-هنا»، أي لِنَكُونَ «وجوداً-هنا» Dasein؟ ينبغي أن نكون قادرين على التنفس، والحصول على الأوكسجين، والاستفادة من درجة حرارة معيَّنة،،، إلخ. أين نعيش ومع من؟ هذا هو السؤال الأساسي.

وهذا السؤال يرافقه خطاب النهايات...

- في التقليد التقدُّمي، المُستقبل، مع ما يستتبعه من تقدُّم علمي وتقني، كان هو ما نأمل وننتظر منه الحل. لكن الآن، يبدو أن المُستقبل قد حُدِّد بالفعل، والقلق إزاء المُستقبل يأتي من واقعة وجوب التصرُّف قبلاً، وإذن من كوننا كنا قادرين على تغيير الأمر وإيجاد حلول. والتحوُّل طرأ، على ما أعتقد، بين سقوط الاتحاد السوفياتي (1991) وبداية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. ففي اللحظة التي كان فيها باستطاعتنا ومن واجبنا التفكير، فإن كلّ المكابح تعطلت. ولم يعد الآن في متناولنا، غيرَ الحدِّ من الأضرار، والاستعداد لكارثة لا يمكن تلافيها. ولهذا، فالمُستقبل موسوم بعودة لخطاب النهايات. وكما هو الشأن بالنسبة للقنبلة الذرية، لم يعد الأمر يتعلَّق بالتفكير في المُستقبل، بقدر ما يتعلَّق بالتفكير في الحاضر المُهَدَّد. والإشكال لا يكمن إذن في الاختيار بين نزعة تفاؤلية وأخرى تشاؤمية، بل في استيعاب الوضعية الجديدة، وعدم فقدان الأمل، دون الركون إلى الإيمان بأننا إنْ شمرنا عن سواعدنا وتكاثفت جهودنا نحو هدف واحد، فإننا سنتخطى الأزمة. وفوق ذلك لا يتعلَّق الأمر بأزمة، بل بوضعية جديدة بالأحرى، وهذه الوضعية لا رجعة فيها في جانبٍ كبير منها.

سؤال التغيُّر المناخي إذن هو أيضاً سؤال وثيق الصلة بجيل؟

- ليست لكلّ الأجيال المسؤولية نفسها في هذه الوضعية. ومن هنا هذا القلب لنظام الأجيال، الذي جسّدته «غريتا ثونبيرغ - Greta Thunberg»، (ناشطة بيئية سويدية وُلدت سنة 2003)، التي تذهلني: إنها تقول للناس من جيلي، هؤلاء الذين كان بوسعهم التصرُّف: «نحن الشباب ناضجون، وأنتم لستم كذلك، أنتم الأطفال والصبيانيون». الشباب ليسوا في المُقدِّمة، إنهم خلفنا.



و«غريتا ثونبيرغ» تستوعب الوضعية المناخية الجديدة، وهي، في نهاية المطاف، وجه «نُبُوئِي - prophétique»، والنبي لا ينشغل بالمُستقبل، بل بالحاضر. فبخلاف غيره من الناس الذين يركزون اهتمامهم على المُستقبل، لأنهم يأملون النجاة في النهاية، فإن النبي يشدِّد على عدم وجود مَخرَج. والباحثون في انهيار الحضارات يشعرون بهذه الوضعية الجديدة الوثيقة الصلة بما أطلق عليه أزمة التَّوَلُّد (crise de l'engendrement).

كيف تعرِّفونها؟

- من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، الجميع يشعر بوجود مشكل في إعادة إنتاج الوضعية التي نوجد عليها. بالنسبة لأقصى اليمين، هذا يتجلّى عبر هوس هوياتي إثني أو حتى عرقي، أو عبر تمركز قهري حول دراسات النوع. وبالنسبة لأقصى اليسار، «حركة التمرُّد ضد الانقراض» من خلال اسمها وحده، تعبِّر جيداً عن رؤيتها. وبين الاثنين يتساءل الكثير من الناس: ما الذي سأعلّمه لأطفالي؟ هل يمكنهم أن يحظوا بذات شروط الحياة مثلي؟ هل سأحصل على تقاعد؟ هل سيحصل أطفالي على تقاعد؟ كلّ هذه الأسئلة تخترق الحقل السياسي وتصدر عن «النظام المناخي الجديد». أناس مختلفون -لا يتفقون حول أي شيء- يسجّلون وضعية ضياعٍ مشتركة.

هذا القلق يتجاوز الجنس البشري...

- بالفعل، نحن ندرك اختفاء الحشرات، وذوبان الجليد،،، إلخ. كيف يمكن استيعاب هذه الصدمة؟ ما وَقْعُ هذا علينا سيكولوجياً؟ يجب علينا استيعاب وضعية فريدة في تاريخ الأرض. إنها وضعية تكاد تكون فريدة: علماء الآثار ينشغلون كثيراً بالدرياس Dryas الأخير (الذي وَسَم نهاية العصر الجليدي الأخير، حوالي 10000 سنة ق.م.)، الذي عايش فيه الإنسان، في غضون جيلٍ واحد، تغيُّرات في درجة الحرارة شبيهة بما سنعيشه نحو الحار أو نحو البارد. والمُقارنة مثيرة للاهتمام، لكنها ليست ملائمة جدّاً بالنسبة إلينا، لأن الأمر آنئذ كان يتعلَّق بتجمعات بشرية صغيرة تأثيرها على المناخ كان بدون أهمية؛ أما نحن فنقترب الآن من ثمانية ملايير، ولا شيء جعلنا نستعد لدخول التاريخ الأرضي بهذه الكيفية، في التاريخ البشري. والسياسة أصيبت بالجنون لهذا السبب، وليست لدينا العُدة المعرفية من أجل استيعاب واقعة أن نشاطاتنا تُحدِث ردود أفعال سريعة جدّاً من الأرض. لقد أقامت الحضارات، على الدوام، روابط وثيقة بين العَالَم الاجتماعي والكوسموس، لكن هذا الرابط صار راهنا أَوْثَقَ وأَوْطَد. وأعتقد أن أعمالاً فنيّة ومسرحية معيَّنة، أو أيضاً مبادرات «روحية» مثل دورية «لوداتو سي - Laudato si» (دورية البابا فرانسوا سنة 2015) حول الحفاظ على البيت المُشترك»، المُخصَّصة للأسئلة البيئية والاجتماعية، وبصورةٍ عامة للحفاظ على الخلق،،، إلخ، يمكن أن تساعد على تمثل هذه الوضعية الجديدة.

تفضّلون الحديث عن «غايا - gaïa» أكثر من الطبيعة. لماذا؟

- الطبيعة، بمعنى واسع جدّاً، يمكن أن تشير إلى مجموع الكون، أو مجموع المادّة منذ الانفجار العظيم (bigbang). ولا شيء لدينا لنقوم به بمفهوم بهذه الضخامة. أما «غايا - gaïa»، فعلى العكس من ذلك، لا يحيل على مجموع الكوسموس، بل فقط على بضعة كيلومترات بين الحدود الخارجية للغلاف الجوي وبين طبقات التربة التي شُكِّلَتْ بواسطة نشاط الحياة. فـ«غايا»، إجمالاً، هي الحياة والبيئة المُلائمة لها -الهواء، التربات،،، إلخ- على نحو ما شَكَّلَتْها وهَنْدَسَتْها الكائنات الحية منذ البكتيريا الأولى. و«غايا» لا تمتد لا فيما يعلو فوق غلافنا الجوي، ولا في الأسفل، إلى غاية الوشاح،

الذي لم يكن أبداً لنشاط الحياة أثرٌ عليه. وهذه القشرة الرفيعة هي ما أطلق عليه أيضاً «المنطقة الحرجة - la zone critique»، وهذه التسمية أكثر حياداً من «غايا»، وما تزال تثير سجالات متعدِّدة. إن المنطقة الحرجة تموضع فكرة الطبيعة: نحن نوجد في «غايا»، وما من شخص له أبداً تجربة أخرى. فـ«غايا» لفظ ملائم بالنسبة لكائن فريد. وأشكال أخرى من الحياة على كواكب أخرى لن تكون «غايا». وهذه الفكرة تتيح تجاوز عجز علماء البيولوجيا عن الانشغال بشروط الوجود التي غَيَّرَتْها الكائنات الحية، وأيضاً عدم قدرة علماء الجيولوجيا على اعتبار الأحياء كمُعَدِّلين لبيئتهم. إنها بالفعل توسيع بالغ لمفهوم النظام البيئي.

أي اختلاف مع «غايا - gaïa» «لوفلوك Lovelock»؟

- سؤال «جيمس لوفلوك - James Lovelock» (مفكِّر وعالِم وناشِط بيئي بريطاني وُلد سنة 1919)، في الأصل، سؤال «سيبراني -cybernétique»: من أين يأتي عدم توزان غازات الغلاف الجوي؟ «ولين مارغوليس Lynn Margulis» (عالِمة بيولوجيا مجهرية أميركية 1938 - 2011)، التي انشغلت بالبكتيريا تطرح، بشكل ما، السؤال المُعاكس: أين يذهب غاز الميثان الذي تُنتجه هذه الوحوش الصغيرة التي أدرسها؟ فعن هذا السؤال المُزدوج تنبثق فرضية «غايا»، التي احْتَكَرَتْها، لسوء الحظ، حركاتُ «العصر الجديد» (New Age)، واخْتُزِلَت من لدن «لوفلوك» نفسه، إلى شكلٍ من السيبرانية. و«لوفلوك» لا ينشغل حقّاً بواقعة أن البَشر قد ينقرضون، إذ إنه يفكِّر في التاريخ الطويل للأرض. وإذا كان الأمر هكذا، فإن فكرة «غايا» بمثابة تغيير أكثر جذرية من ذلك الذي أحدثه «غاليلي Galilée» في عصره.

«إنها تتحرك» يقول «غاليلي»، وأنتم تضيفون «إنها تنفعل»...

- هذه العبارة لـ«ميشيل سير - Michel Serres»، الذي أثار اهتمامي في كتابه «العقد الطبيعي - Le Con-trat Naturel» ـ (1990). أجل، الأرض تشعر، وتنفعل إزاء نشاطاتنا. فأي مؤسَّسات سياسية تتوافق مع هذا المُستجد؟ لا نعلم. فـ«غايا» مفهوم علمي ليست له سياسته. حقوقياً، على سبيل المثال، من الصعب تخيُّل شكل سلطتها. لكن، وعلى نحوٍ مفارق، الجميع استوعب فكرة «غايا» بأن في المناخ ضَرْباً من ضابط الحرارة -صار الآن مضطرباً- ينظّم نفسه بنفسه؛ وهذا الأمر يحدث ضغطاً بالفعل على القرارات السياسية. والدليل هو أننا ننشد البقاء فيما دون عتبة معيَّنة من الحرارة.

لقد أثار «ميشيل سير» هذا الإشكال، لكنه جعله، على ما أعتقد، غير قابل للاستخدام تقريباً، بسبب مفهوم العَقْد. فنحن لسنا في وضعية للحديث مع «غايا»، وهي ليست منشغلة بنا. لكننا معنيون بردود الأفعال اللامتوقعة والسريعة جدّاً مقارنةً بما نترقبه لنظام الأرض إزاء نشاطاتنا. ولهذا، فالبشرُ، من الآن فصاعداً، في وضعية حرب للحدِّ من نشاطات البعض، التي بتوسط الكائنات غير البشرية، تؤثّر على آخرين. ومن زاوية النظر هذه، يتعلَّق الأمر، في نهاية المطاف، بعملية توسُّع للجيوسياسية الكلاسيكية.

على أي مستوى يتعيَّن التصرُّف؟

- على كلّ المستويات! ولهذا فالعَالَم مرتبك جدّاً. والتنظيم السياسي للدولة-الأمّة ليس، على كلّ حال، متكيفاً تماماً مع استيعاب الشروط الأرضية. فالأمرُ يتعلَّق بتجريد كلي غير قادر، بالأخص، على الإمساك بالمُستويات المُتعدِّدة، حيث تُدَارُ مصالح الكائنات غير الإنسانية (non-humains).

هل يتعيَّن إذن تجذير هذا في تربة، أو في نطاق أرضٍ محدَّدة؟

- ينبغي الإجابة، بطريقة مختلفة، عن السؤال الذي طرحه الاشتراكيون في القرن التاسع عشر: كيف نحافظ على مبادئ العدالة في وضعية بالِغَة الجِدَّة، موسومة آنئذ بصعود الصناعة الكاربونية والتوسع الحضري، وراهناً بالنظام المناخي الجديد؟ كيف نبتكر منطقاً ملائماً لهذه الوضعية الجديدة؟ فالوضعيتان متماثلتان.

ألهذا السبب تتحدَّثون عن «طبقة جيواجتماعية»؟

- بالنسبة لكلّ صراع طبقي، يتعيَّن حصر الأرض التي يتعيَّن الدفاع عنها، وأولئك الذين سيجري الدفاع عنها ضدهم. فسؤال المناخ يوجد في صميم حرب جيوسياسية عالمية. والولايات المُتحدة الأميركية، التي تعيش، أكثر من أي بلدٍ آخر، خارج-التربة (hors-sol) أو في تربة ليست لها، توجد في موقف تمرُّد، وفي منطق انفصال. لقد انسحبت من اتفاقيات باريس (الاتفاق الدولي حول المناخ والاحتباس الحراري، الذي اعتمدته (195) دولة ممثلة، والذي دخل حيِّز التنفيذ في 4 نوفمبر/تشرين الثاني 2016) مع أن نشاطاتها وانبعاثاتها من ثاني أكسيد الكربون تؤثّر علينا. فنحن هنا إزاء صراع للطبقات الجيواجتماعية.

غير أن الطبقات المعنية ليست محدَّدة بوضوح، وهذا ما يربك السياسة. فنحن لسنا على وعي بالحرب الدائرة، على كلّ حال، في البلدان الغنية. إنها «حرب غريبة» بدون جبهة. وفكرة أزمة عميقة كانت جلية جدّاً في القرن التاسع عشر، وكلّ العُمَّال كانٍ بوسعهم الشعور بكونهم معنيين بها. والوضعية، راهناً، هي بلا شك، أكثر دراماتيكية، لكنها أقلّ وضوحاً، بالأخص لأن الفاعلين المعنيين هم في جزءٍ كبير كائنات غير بشرية. وما



أطلق عليه «وعي الطبقة» الذي يمكنه أن يوحد العُمَّال في زيمبابوي أو في فرنسا، ليس له وجود في صميم الطبقات الجيوسياسية الجديدة. والنشطاء يكِدُّون من أجل خلق هذا الإحساس، لكن النتائج ما تزال متواضعة.

القدرة على تحديد الأعداء أساسية في فلسفة «كارل شميت - Carl Schmitt». ألهذا السبب تصفونه بـ«السام واللازم مع ذلك»؟

- «كارل شميت - Carl Schmitt» (رجل قانون وفيلسوف ألماني 1888 - 1985)، يحظى باهتمامي، لأنه مؤلِّف كتاب «Nomos de la terre» ـ (1950)، الذي ظلّ لزمن طويل النصّ الأعمق الوحيد في فلسفة الأرض. من الأكيد أنه لا يهتم بالأسئلة المناخية، لكنه أدرك أن المكان أكثر أهمية من الزمن. ففي حوار استثنائي وعلى قدر من الطرافة، وهو حوار حول «المكان الجديد» (1954)، يبرز بجلاء أنه من المُستحيل أن يكون المرء إنساناً في فضاء «سيئ». وهذه القضايا، التي يمكن أن تبدو ارتكاسية، سرعان ما ستصير تقدُّمية. فالزمن ليس زمن الطيران أو الإقلاع، بل زمن الهبوط.

تفضِّلون الحديث عن نزعة إنكارية (négationnisme) أكثر من نزعة شكية (scepticisme) للإشارة إلى أولئك الذين يرفضون الاعتراف بأن هذا التغيُّر محتوم. لماذا؟

- احتراماً للتقليد الشكي! ولنستحضر أن أكاديمية العلوم الفرنسية قامت بطي صفحة النزعة الشكية المناخية (climatoscepticisme) في صفوفها منذ ما يناهز شهرين فقط. وهؤلاء المنكرون ليسوا دائماً أناساً مرتشين وفاسدين. إنهم، في الغالب، على ما أعتقد، «حداثيون» فعليون، يرون أنه ما من مخرج إذا ما أعرضنا عن مشروع الحداثة والتقدُّم والتطوُّر. فكيف يمكن التفكير في الازدهار البيئي؟ يكاد الأمر أن يكون مستحيلاً وفق هذا المنطق. فبالنسبة لجزء من هؤلاء الناس، التخلي عن مشروع الحداثة يفضي إلى نهاية الحضارة. وليسوا مخطئين تماماً في هذا!

لكن، ألا يتعلَّق الأمر أيضاً بحظ، وبفرصة سانحة لابتكار كيفيات جديدة للعيش؟

- نعم، إنه حظ. لكن يتعيَّن امتلاك قدرة كبرى على الاستيعاب، من أجل قبول الإقرار بأنه حظ!

■ **حوار: سفين أورتولي □ ترجمة: عبد الله كسابي**

العنوان الأصلي والمصدر:
Une drôle de guerre, sans front, Philosophie magazine (hors-série n° 46), philosophie du réchauffement climatique, p. : 16-19

الحس المناخي..
شرط البقاء على قيد الحياة

من المُتوقع أن يكون لتغيُّر المناخ وتقلبه آثارٌ هائلة على مخاطر الكوارث والتنمية المُستدَامة في غضون جيل أو جيلين. ولكن لحُسن الحظ، فإنَّ دروس الماضي فيما يتعلّق بمُمارسات الحدِّ من مخاطر الكوارث لا تزال غالبيتها ليست ذات صلة بجعلنا أفضل تجهيزاً أو أفضل حالاً في مواجهة تحديات المناخ غير المسبوقة التي تنتظرنا.

اعتمد البشر دائماً على حسهم السليم للبقاء على قيد الحياة والازدهار. وينبع هذا المنطق السليم من الفضول المُستمر حول قوى الطبيعة، وما يترتب على ذلك من تطوُّر المهارات العقلية الكافية لفهم تلك القوى وابتكار حلول خلّاقة تقلل من المخاطر. ولقد تمَّ تبسيط الاستخدام العملي للمعلومات المُتعلّقة بالمخاطر والسلامة وتسليمه عبر الأجيال، مما أدى إلى استراتيجيات للتكيف وبعض القدرات التكيفية. ولكن الآن، تحتاج البشرية إلى تطوير إحساس جديد آخر للنجاة من تحديات المناخ الجديد في هذه الألفية التي دخلنا في العقد الثالث منها. الجميع على دراية بالتغيُّرات الموسمية في درجة الحرارة وهطول الأمطار. وقد تعلَّم الناس الاستفادة من هذه التغييرات لأغراض الزراعة وإنتاج الأغذية وغيرها من الأغراض. ولكن الآن، فإن ما أصبح منطقياً فيما يتعلّق بتقلُّب المناخ لم يعد كافياً. وتتوقع التنبؤات الأخيرة بشأن تغيُّر المناخ وتقلبه حدوث آثار هائلة على الغلاف الجوي للأرض والمُحيطات. ونتيجة لذلك، من المُتوقع حدوث صدمات وتحوُّلات هائلة في موارد المياه العذبة، الحياة البرية والأمن الغذائي والزراعة والصحة والطاقة.

ومن بين الآثار المُتوقعة الهجرة الجماعية، وهي تسمَّى باللاجئين البيئيين، وهذه الآثار غير المسبوقة على العناصر الأساسية للأمن البشري، والاستدامة ستهدِّد بشكلٍ خطير نوعية الحياة وحتى بقاء الإنسان خلال القرن، حسب معظم التقديرات العلمية. وفي حين أن توقيت وطبيعة المخاطر المُتغيّرة الناجمة عن تغيُّر المناخ مفتوحان للنقاش العلمي، فمن المُتفق عليه على نطاقٍ واسع أن حجم الصدمات سيتجاوز القدرات التكيفية للنظم البشرية القائمة خاصة في الدول النامية. أي أننا لن نتمكن من التصدي للمخاطر المُستقبلية والكوارث الناجمة عن ذلك ما لم نولي الاهتمام للآثار المُترتبة على السياسات وجهود الحدِّ من مخاطر الكوارث. وينبغي تطوير الحلول التكتيكية القصيرة الأجل والاستراتيجيات الطويلة الأجل وممارستها وتبسيطها لتصبح «إحساساً مناخياً» سائداً، إذا كنا نأمل في الحدِّ من المخاطر المُباشرة، وتجنُّب العواقب الطويلة الأجل، وتطوير القدرات التكيفية لمُساعدة نوعنا على البقاء. لحُسن الحظ، ليس علينا أن نبدأ من الصفر، لأن ما تعلَّمناه في مجال الحدِّ من مخاطر الكوارث لم يساعدنا على تطوير الحس المناخي الذي يجعلنا نتمتع خلال عمرنا القصير ونترك للأجيال المُقبلة هذه المُتعة بالمناخ الطبيعي بعد أن تعاملنا بأنانية معه فظهر فسادنا في البحر والبر والجو، لا متعة أفضل من التمتع بالمناخ بعد أن نلتزم بمعايير صحية صارمة لكل ما خلّفناه من مشكلات بيئية، وأهمها تغيُّر المناخ الكارثة التي نعيش فيها حالياً، والتي حرمتنا من التمتع بالإحساس بالمناخ.

النينو كنموذج للتحوُّلات في مخاطر الكوارث

هو دالة على الخصائص الفيزيائية للمخاطر، وقابلية العناصر والنظم المُعرَّضة للآثار السلبية الناجمة عن الأحداث الخطرة، وقدرة المُجتمعات المحلية والنظم المُحيطة بها على التعامل مع الآثار. تحدث الكوارث عندما تطغى الأحداث على أنظمة البيئة البشرية، سواء كانت مزمنة أو بطيئة الظهور أو سريعة الظهور. ومع ذلك، فإن المخاطر دينامية، وتتغيّر عبر الزمان والمكان.

وتتوقف المخاطر في المُستقبل على العلاقة بين الخطر والضعف والقدرة، ولكنها تعكس أيضاً أي تغييرات في هذه العناصر. وتغيُّر المناخ وتقلب العلاقة بين قابلية الخطر والقدرة على التكيُّف عن طريق تغيير أنماط كل من المخاطر المناخية والظروف التي تعمل فيها نظم الإنسان والبيئة وتحدث فيها الأحداث. إن التذبذب الجنوبي للنينو هو مثال مألوف على تغيُّر المناخ الذي يغيّر المخاطر القصيرة الأجل. تغيّرت خصائص المخاطر والظروف البيئية تغيُّراً كبيراً. وبالتالي، فإن الدول التي لم تكن لديها استراتيجيات قائمة للتعامل مع الظروف المُتغيّرة أو الذين لم يتمكنوا من التكيُّف معها يعانون أكثر بكثير من الخسائر والاضطرابات.

توقعات تقلب المناخ

ومن المُتوقع أن تسهم التغيُّرات المناخية الطويلة الأجل في حدوث تحوُّلات رئيسية في الظروف البيئية وأنماط المخاطر، مما يؤثر على جميع عناصر المخاطر. وتوقعت الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغيُّر المناخ التابعة للأمم المتحدة، التي مُنحت جائزة نوبل لعام 2007، في تقرير التقييم الرابع أن درجات الحرارة في العالم قد ترتفع بما يصل إلى (3 - 5 درجات مئوية) عام 2100، وأن مستويات سطح البحر قد ترتفع من (18 إلى 59 سنتيمتراً). وأبلغ الفريق الحكومي الدولي المعني بتغيُّر المناخ أيضاً عن احتمال زيادة موجات الحرارة وهطول الأمطار الغزيرة في بعض أرجاء الكرة الأرضية، مع توقع زيادة الجفاف في أجزاء أخرى وزيادة تكرار تردد الأعاصير المدارية.

وكثير من الأماكن من المتوقع أن تشهد أكبر الزيادات في الأخطار الطبيعية التي تتعلَّق بالمناخ، وأهم التغيُّرات والأخطار ستكون المناطق الفقيرة، حيث التنمية البشرية غير مستدامة، وأعداد متزايدة من السكّان، وتشهد تحضراً سريعاً. وبالإضافة إلى التأثير على أنماط المخاطر، من المُرجح أن يؤثر تغيُّر درجات الحرارة والظروف الهيدرولوجية على أنماط توافر المياه وإنتاج الأغذية. ومع حدوث هذه التحوُّلات، فإنها ستسهم في الهجرة الجماعية، وفي المسائل الصحية والأمنية. وتميل العولمة (التي تتناقض سلباً مع الطابع الإقليمي من جانب الفريق الحكومي الدولي المعني بتغيُّر المناخ)، إلى جانب التكنولوجيات المُرتبطة به، إلى تحويل آثار الكوارث إلى أشخاص مشتتين على نطاقٍ واسع، مما يغير مدى قابليتها للإصابة. غير أن العمليات نفسها يمكن أن تيسر الاستجابة الفعَّالة والتكيف، وأن تزيد من القدرات.

ومع طول الأطر الزمنية، يزداد عدم اليقين بشأن كيفية تفاعل النظم البشرية والبيئية وتغيّرها، وكيفية تحوُّل العلاقات بين مختلف عناصر المخاطر. ومع ذلك، وبينما نحسن فهمنا لهذه العلاقات والعلوم الفيزيائية والاجتماعية لتغيُّر المناخ وتقلبه، يمكننا أن نعمل على بناء المرونة والقوة. ويمكننا أيضاً تعريف الناس بمصادر البيانات المناخية واستخداماتها، ويمكننا تعميم الحد من مخاطر الكوارث -المُتصلة بالمناخ وغير ذلك- في السياسات والمُمارسات اليومية. ويمكننا أن نبني على المُبادرات ونقاط القوة القائمة لإدماج النُهج القريبة الأجل والطويلة الأجل في إطار واحد.

نهج جديد للحدّ من المخاطر

وتهدف الجهود التقليدية للحدِّ من مخاطر الكوارث إلى نهج جديد للحد من المخاطر في حالات الكوارث إلى تعديل المخاطر على المدى القريب بإحدى الطرق الثلاث التالية: تغيير الظروف البيئية والاجتماعية التي تحدث فيها الأحداث الخطرة، وتغيير خصائص الأحداث في مكانٍ معيَّن (وبالتالي، غالباً ما تتحول المخاطر إلى مكانٍ آخر)، و/أو بناء القدرة على الاستجابة للآثار والتعافي منها. والجهود المُتصلة بالتخفيف من آثار تغيُّر المناخ والتكيف معه تفعل الشيء نفسه. والهدف من ذلك هو تغيير الظروف الاجتماعية والبيئية، بحيث لا تطغى أحداث الخطر في المُستقبل على النظم البشرية. وبما أن خصائص وظروف الخطر أكثر غموضاً، يجب علينا أن نشجع المرونة من خلال تعظيم قدرتنا على الوصول إلى الحلول الإبداعية وتوليفها وسنِّها. ويجب علينا أن نفعل ما في وسعنا لتقليل التعرُّض المُحتمل أيضاً.

وستسهم النُهج التي تركِّز على بناء القدرة على التكيف على المدى الطويل في الحد من الضعف وزيادة القدرة على التكيف على المدى القريب؛ في حين أن الإجراءات على المدى القريب سوف تمهِّد الطريق لظروف وخيارات طويلة الأجل. وينبغي النظر في كلا الجدولين الزمنيين عند دمج أنشطة الحد من مخاطر الكوارث مع السياسات والتخطيط.

وتواجه كلاً من الأنشطة التقليدية القريبة من الحد من مخاطر الكوارث والجهود التي تركِّز على التكيف مع تغيُّر المناخ وتقلبه عقباتٌ أمام التنفيذ. وتنقسم التحديات إلى ثلاث فئات رئيسية هي: مسائل البيانات التقنية المُتعلِّقة بالحل، والجمع، والإدارة، والتقاسم؛ والمسائل المُتعلِّقة بالبيانات التقنية؛ قضايا التعاون والتنسيق؛ والصعوبات في دمج العلم والمُمارسة بشكلٍ مفيد.

وقد يكون من الصعب الحصول على البيانات المكانية اللازمة، وقد يتطلب تحليلها واستخدامها موارد متخصِّصة. في الواقع، هناك حاجة إلى مهارات وتقنيات محدّدة حتى لمُشاركة العديد من أنواع البيانات. فالكوارث والمخاطر متعدّدة الأوجه ومتعدّدة القطاعات



ومتعدّدة التخصُّصات، غير أن الطبيعة الناشئة للكوارث، والموارد والأهداف المُتنافسة، وانعدام الثقة التاريخي، والمُمارسات المُؤسّسية يمكن أن تثبط التعاون والتنسيق. وأخيراً، غالباً ما يعمل العلماء والمُمارسون والجمهور في عوالم مختلفة، ويتحدَّثون لغاتٍ مختلفة. لذا، فإنّ خلق الجسور والطرق ذات المغزى من الناحية التشغيلية لتأطير المعلومات المُتعلِّقة بالمخاطر وتحليلها وإيصالها أمرٌ بالغ الأهمّية لاتخاذ القرارات الفعَّالة، ولتيسير أنشطة الحدِّ من مخاطر الكوارث و«تعميم» الحدِّ من مخاطر الكوارث.

والتصدي لهذه التحديات في السياق الأكثر شيوعاً للحدِّ من مخاطر الكوارث والمخاطر على المدى القريب يبني ويمارس بعض الهياكل الأساسية اللازمة للتصدي لها في سياق تغيُّر المناخ وتقلبه والمخاطر الطويلة الأجل، مما يعزِّز القدرة على الصمود لدى الأفراد والمُؤسَّسات والمُجتمعات المحلية.

وقد ساعد مركز الكوارث في المُحيط الهادئ في التصدي لهذه التحديات من خلال: مساعدة المجتمعات المحلية ذات الاهتمام وتعزيز التعاون بين أصحاب المصلحة، والتصدي للتحديات المُتعلِّقة بالحد من مخاطر الكوارث في سياق بناء القدرة على الصمود وتيسير الحدِّ من مخاطر الكوارث. من خلال بناء علاقات مع السلطات المحلية والحكومات الوطنية والمنظَّمات الإقليمية والمنظَّمات الدولية والجماعات العسكرية والأوساط الأكاديمية؛ وعن طريق المُشاركة في أنشطة جمع البيانات ذات الصلة المُباشرة بإدارة الطوارئ المحلية يقوم (PDC) بتطوير وتنفيذ أنظمة دعم القرارات لإدارة الطوارئ وأنشطة (DRR) التي تدمج البيانات الديناميكية والثابتة ولا تتطلب من المُستخدمين الحصول على تكنولوجيا متطورة. وفي الوقت الذي تيسر فيه منتجات وخدمات المركز الإنذار المُبكِّر بالمخاطر المُفاجئة، فإنها تقلل أيضاً من صعوبات جمع البيانات وإدارتها وتقاسمها، مما يدعم الأمن على المدى الطويل. وتشمل قدرات وتجارب البرنامج إجراء تقييمات للمخاطر والضعف على نطاقاتٍ متعدّدة باستخدام النمذجة العددية، وتقدير الخسائر، ونُهج المؤشرات المُعقدة؛ وأداء التكنولوجيا تقييمات للمُساعدة في تطوير إدارة البيانات والمعلومات بشكلٍ فعَّال، والتحليل، والمُشاركة.

مواجهة تحديات تقلب المناخ

التحديات التي تواجه إدماج الحد من مخاطر الكوارث، ولا سيما الحد من مخاطر الكوارث على المدى الطويل، مع السياسة العامة والتخطيط هائلة. وعلى المدى القريب، تؤدي التقلبات السنوية (مثل الإنسو) إلى تعقيد الأمور. وفي الأجل الطويل، تتفاقم أوجه عدم اليقين، مما يجعل توصيف النظم المُتشابكة المُتعدّدة القطاعات للبيئة البشرية والبيئة أكثر صعوبة. وبالتالي، فإن تقييم المخاطر وإبلاغها أكثر صعوبة أيضاً. ومع

ذلك، يمكننا، ويجب علينا، أن نستفيد من نتائج العمل المُنجز في سياقٍ الحد من مخاطر الكوارث لإدماج المعلومات المُتعلّقة بالمناخ والطقس في صُنع القرار، وبناء العلاقات الإنسانية وتعزيز شبكات المعلومات، ووضع تصوُّر للمخاطر بشكلٍ كلي وسياقي، وربط البحوث والتكنولوجيا والمُمارسة في خدمة الاستدامة البشرية. ويساعد اتخاذ هذه الخطوات صُنَّاع القرار والمُجتمعات والأفراد على إنتاج البيانات والتحليلات ذات الصلة والوصول إليها، وسيساعدهم على رؤية المخاطر والطقس والمناخ كجزء من السياق اليومي بدلاً من أن يكون غير عادي. وستساعد الخطوات نفسها على زيادة الخيارات المُتاحة للتخفيف والتكيف على نطاقاتٍ متعدّدة. ولا يمكن للأفراد أو حتى المُنظَّمات التي تعملُ بمفردها أن تواجه التحديات التي تطرحها مخاطر الكوارث الناجمة عن تغيُّر المناخ وتقلبه. وإدراكاً لذلك، اتخذ الحزب الديموقراطي الاجتماعي إجراءات لإيجاد سبل لتسهيل العمل الجماعي على أعلى مستوى.

الإعلام وتغيُّر المناخ

لا يمكن تجاهل دور الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي حول تغيُّر المناخ وتقلبه بشكل معقول في أي مناقشة حول كيفية الحدِّ من الخسائر المُستقبلية للأفراد أو المُجتمعات أو المُنظَّمات. ومع ذلك، هذا لا يعني أنه من الضروري إعادة تكوين التفكير الراسخ بالكامل أو التخلي عن الأنشطة المألوفة. ويمكننا أن نبني على الهياكل والأنشطة التي وضعت في إطار المُبادرات القائمة المُتعلّقة بالحد من مخاطر الكوارث. وينبغي ألّا تعتبر أنشطة الحد من المخاطر والبحوث المُرتبطة بتغيُّر المناخ وتقلبه منفصلةٍ إلى حدٍّ ما عن الحدِّ من مخاطر الكوارث، بل عنصراً رئيسياً من النُهج القريبة الأجل والأطول أجلاً للحدِّ من مخاطر الكوارث والأمن البشري. وتؤثر الأنشطة القريبة الأجل على الخيارات الأطول أجلاً. وتعمل زيادة الاتصال -من خلال العولمة وتكنولوجيات الاتصالات التي تقوم عليها- على تغيير مخاطر الأخطار وآثارها وتضخيمها. ومع ذلك، فإنّ هذه الاتصالات الأساسية تتيح فرصاً أيضاً. ولا لنا من تيسير الوصول إلى المعلومات المُتعلّقة بالمخاطر بالكوارث التي تسببها عناصر الطقس والمناخ المُتطرفة، والتعاون مع منظَّمات المُجتمع المحلي المُتعاونة لترفع الاتصال إلى مستوى جديد من خلال الاستفادة من تكنولوجيا الشبكات الاجتماعية لتسهيل بناء العلاقات وتبادل المعلومات من خلال بناء شبكات بشرية مفتوحة، تركز على العلوم التطبيقية لتغيُّر المناخ وتقلبه.

تقدُّم العلوم التطبيقية في علم المناخ

إنّ التقدُّم في العلوم التطبيقية والمُمارسة في المناخ



والحدِّ من المخاطر يؤدي إلى:

- تسهيل الوصول المُتبادل بين الأشخاص الذين يعملون على أي قضية معيَّنة من تخصُّصات متعدّدة.
- التقليل من الخسائر في الأرواح والمُمتلكات إلى الحدِّ الأدنى.
- المُساعدة على دراسة المُشكلات التي يعاني منها العَالَم بسبب الطقس والمناخ وتغيُّر المناخ بالتعاون مع القطاعات الأخرى، كالزراعة والصحة والسياحة، وغيرها للوصول لأفضل الحلول لها.
- تبسيط الأنشطة، والتقليل من الازدواجية وتمويل المنافسة.
- إتاحة الوصول إلى المعارف والمُلاحظات المحلية والعالمية.
- إمكانية تحسين جمع البيانات المناخية وتحليلها والتنبؤ بما سيحصل.
- الوصول إلى الأفراد والمُنظَّمات وتوزيع المعلومات بشكلٍ علمي صحيح.
- بناء الشبكات البشرية والتكنولوجية التي يمكن تفعيلها خلال حدث متطرِّف.

وتهدف جميع هذه العلوم التطبيقية إلى تسهيل بناء قاعدة علمية للإحساس بأهمّية المناخ، والعمل على التقليل من الأضرار النفسية والمادية التي تخلفها الفيضانات والجفاف، والتي تصل إلى نحو 90 % من إجمالي الكوارث الطبيعية، كما تعمل على التأثير على الرأي المحلي والعَالمي لأجل تطبيق الاتفاقيات الخاصة بتغيُّر المناخ، وبالتالي العمل على بناء قاعدة المعارف العَالمية المُشتركة بين أبناء هذا الكوكب لتطوير نوعٍ جديد من الحس السليم: الحس المناخي الحقيقي. ■ **عدنان هزاع البياتي**

مجيب لطيف:

من الصعب أنْ نراهن على المُستقبل

منذ عقود، يحذِّر مجيب لطيف، خبير الأرصاد الألماني من أصل باكستاني، الباحث في التحوُّل المناخي وأستاذ العلوم البحرية بمعهد «جيومر» لأبحاث المُحيطات في «كيل»، والحاصل على جائزة البيئة الألمانية لعام 2015، من عواقب ظاهرة الاحتباس الحراري ومغبة ارتفاع درجة حرارة الأرض. وفي لقاء أجراه معه موقع «شبيجل أونلاين» بمُناسبة صدور كتابه الجديد «عد تنازلي» الذي يشرح فيه عواقب تغيُّر المناخ وكيفية التفاعل معه بيئياً واقتصادياً وسياسياً واجتماعياً، يقول «لطيف»: «عندما يتعلَّق الأمر بالمناخ، سرعان ما يرتبط ذلك بالحديث عن التكاليف المادية ونفاد الحلول»، بينما لا نحتاج في حقيقة الأمر سوى إلى قرارات عاجلة وقاطعة يتبناها الساسة ويشرعون في تنفيذها، فلا أحد بإمكانه المراهنة على المُستقبل».

عندما يتعلَّق الأمر بأزمة المناخ ومستقبل البشرية، تتأرجح في كتابك الجديد «عد تنازلي» الصادر في مايو/أيار من هذا العام، ما بين نقطتين عكسيتين، ألا وهما «الاقتراب من نهاية العَالَم» و«الأمل في إنقاذ الكوكب»... حدِّثنا، في أي منطقة تجد نفسك في الوقت الحالي؟

- أجدني ممزقاً بين النقطتين، على الأرجح. من ناحية، تقودني الفرضيات العلمية البحتة إلى أن العَالَم لا يعمل على نحو جيد، فلا يزال يتزايد تركيز الغازات الدفيئة في الغلاف الجوي بسرعة مخيفة، على الرغم من اتفاقية باريس للمناخ، وقتامة التقارير الصادرة عن الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغيُّر المناخ والمنذِرة بسيناريوهات كارثية. ومن ناحيةٍ أخرى، تستمر المُمارسات التي لم يكن من المُتوقع أنها ستحدث.

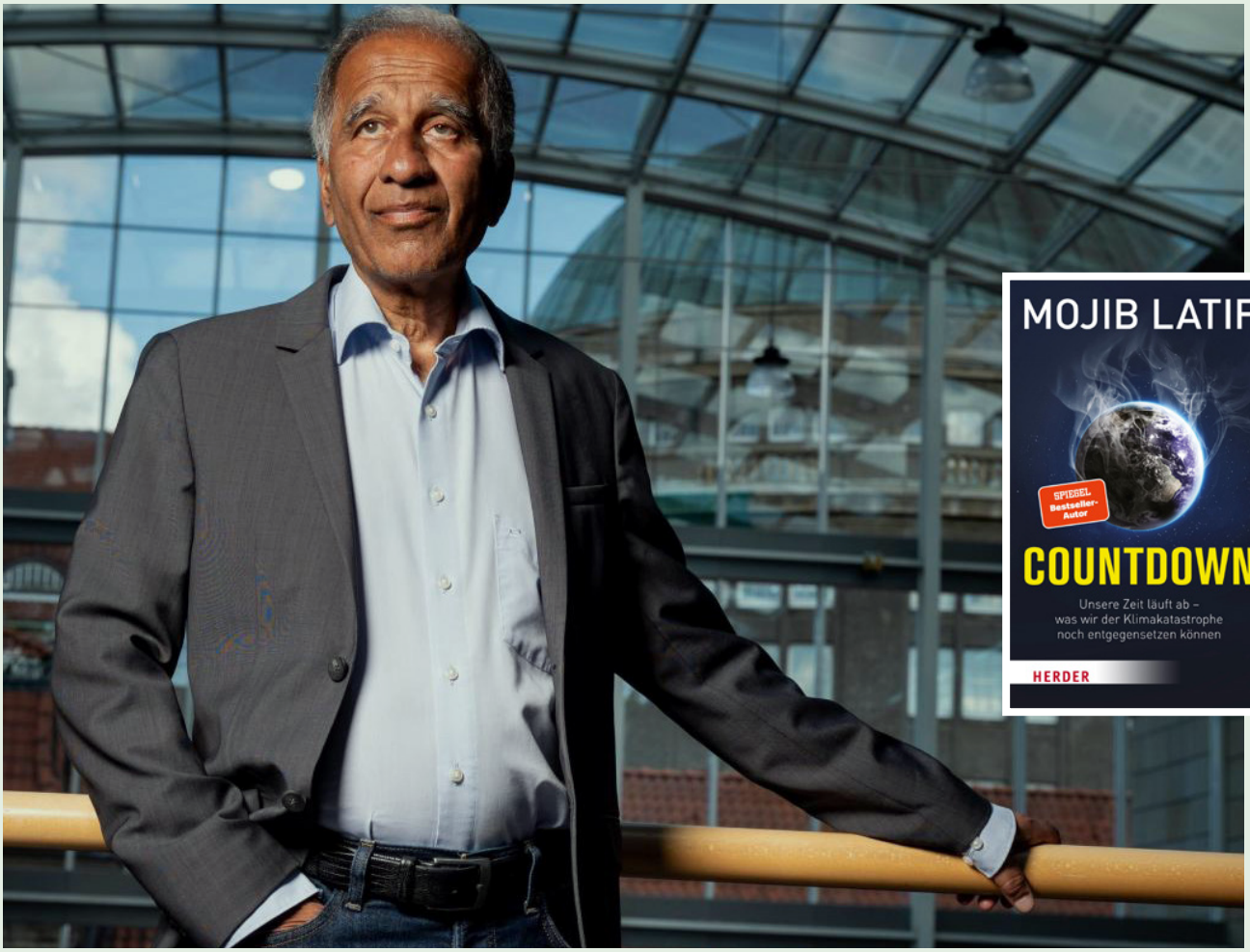
ماذا تقصد بالتحديد؟ أتقصد ناشطة المناخ السويدية «غريتا ثونبيرج» والحركة الدولية الشبابية «فرايدي من أجل المُستقبل»؟

- مستقبل المناخ لن يتحدَّد فقط محض التركيز على نقاط التحوُّل في الأرصاد الجوية التي تهدد بخلق ظواهر جديدة لا رجوع فيها داخل النظام المناخي، وإنما هناك أيضاً نقاط تحوُّل اجتماعية يمكن العمل عليها وبمقدورها أن تسفر عن تحسن مفاجئ في سياسة المناخ العالمية. ومن أجل تفعيل نقاط التحوُّل هذه، لا يجب أن ننتظر موافقة الجميع ومباركة الأغلبية. الكتلة المؤثرة كافية - وأعتقد أننا نمتلكها. «ثونبيرج» وحركة «فرايدي من أجل المُستقبل» مجرد أمثلة، وهناك المزيد من هذه النماذج.

كذلك يتزايد ضغط الاقتصاد، بما في ذلك السياسة المالية. لقد أصبحنا ندرك جميعاً، بشكلٍ تدريجي، أن أزمة المناخ هي أيضاً أزمة اقتصادية وأمنية. كما أن هناك روابط بين أزمة المناخ وظهور الأوبئة. ومن ثمَّة، أعتقد أن هذه الرسالة قد وصلت بقوة الآن، حتى لدى السلطات المُختلفة. فقد باتت الإنسانية على حافة الهاوية.. وعلينا جميعاً تلقي إنذارات الطبيعة على محمل الجد.

النبرة التي تبنيتها في كتابك تكشف أنك قد واجهت تساؤلات بسبب مسحة التفاؤل التي مازالت تتمسك بها رغم سوداوية الحقائق التي تسوقها. لقد كتبت: «البشرية الآن تقترب من حافة الهاوية»، والواقع يؤكد ذلك: درجات حرارة قياسية تقارب 50 درجة مئوية تسود حالياً في الهند وباكستان. علاوة على بدء موسم حرائق الغابات في غرب الولايات المُتحدة بعنف وبشكلٍ غير مألوف في وقتٍ مبكر جداً. كما تتوقع المُنظَّمة العالمية للأرصاد الجوية أن تكون السنوات الخمس المُقبلة أكثر سخونة من السنوات الخمس الماضية».. كيف تمسكت بالأمل وسط كل هذه النتائج الصادمة؟!

- ليس هذا كل شيء، بل يمكن سرد المزيد والمزيد من الأمثلة الصادمة؛ ولكن رغم ذلك، لا يزال لديّ أمل. وبدون هذا الأمل، لن أتمكَّن من تأليف كتاب مثل هذا. كتبته في الأساس بدافع الأمل الذي أثق في قدرته على قلب دفة الأمور وإنقاذ الأرض التي تتأوه منذ عقود دون أن يلتفت لها أحد.. وعلينا أن نكون واضحين: إن الوقت ينفد، ولكن لا يزال بإمكاننا تجنُّب أكبر كارثة.. نعم، لقد



انتظرنا طويلاً جداً، وأهدرنا الكثير من الوقت. ولهذا السبب صار الوضع حرجاً الآن. لذلك لا ينبغي أن نقف مكتوفي الأيدي مهما تعاظمت المُشكلة، فلا تزال هناك نقطة ضوء للولوج توجب عليَّ التنبيه إليها.

«إن حل المشكلة بسيط بشكل قابل للتحقق.. على المرء فقط أن يتبع العقل ويستخدم الإمكانيات المُتاحة»، هكذا قلت في كتابك.. لماذا إذن لا يحدث ذلك حال كونه سهلاً كما ذكرت؟ وكيف يمكن تغيير ذلك؟

- بالمُناسبة، يهمني أن أخبرك أنه ما من نقص في الحلول ولا المال. ولكن تتمثل إحدى أكبر المُشكلات فيما يلي: يجب أن تكون المُنتجات المُصنعة بشكل مستدام أرخص من المنتجات المُنافِسة غير المُستدَامة. لكنها لا تزال مدعومة بشكل كبير من جانب الدول، سواء تمثل ذلك في استخدام الوقود الأحفوري أو الزراعة المُكثفة أو الصناعات المُلوِّثة للبيئة، حيث تزدهر فروع الاقتصاد بأكملها دون الاضطرار إلى دفع فاتورة العواقب البيئية. والواقع أن الأمر لا يمكن أن يستمر على هذا النحو. أي شخص يتسبب في إلحاق الضرر بالبيئة، لابد أن يتحمَّل مسؤولية ذلك أيضاً ويتحمَّل التكاليف والخسائر التي تكبدتها عامة الناس. إذا قمنا بتطبيق ذلك، على سبيل المثال فيما يخص الضرائب ورسوم الاستيراد للمُنتجات التي لا يتمُّ إنتاجها بشكل مستدام، سنضع أزمة المناخ تحت السيطرة المبدئية. كما سيؤدي ذلك بدوره إلى إجبار هذه الدول على تحويل صناعتها، التي ينجم عنها كميات كبيرة للغاية من انبعاثات ثاني أكسيد الكربون. وتُغرِق الأسواق بمُنتجات لا ينبغي لنا أن نشتريها بعد الآن.

في رأيك، لماذا يتخاذل العَالَم بهذا الشكل الفج في مواجهة أكثر مشاكله إلحاحاً؟

- النقاش يطول في هذا الأمر، لكن أحد الأسباب هو أننا نعيش في زمن يعجُّ بالأزمات: الحروب، الأزمة الاقتصادية العَالَمية وأزمة اليورو، موجات اللاجئين، والآن جائحة وحرب في أوكرانيا. الأزمات الآنية دائماً ما تجذب الانتباه وتصرف الأنظار عن الأهوال طويلة الأمد مثل الاحتباس الحراري أو انقراض الأنواع. لكن في رأيي، الأزمات طويلة الأمد أكثر دراماتيكية مقارنة بالأزمات قصيرة الأمد، نظراً لأنه لا يمكن تلافي خسائرها. فبعد الوباء، يمكننا إعادة بناء الاقتصاد العَالَمي. حتى البلاد التي مزقتها الحروب يمكن إعادة إعمارها. ولكن ماذا عن غلافنا الجوي الذي هو عصب الحياة؟ وماذا عن الأنواع المُنقرضة التي يستحيل استعادتها؟ يبدو أن عدم القدرة على التفكير على المدى

الطويل هو طبيعة بشرية وآفة فكرية تقودنا إلى الهاوية التي حذَّرت منها في كتابي.

في عام 1988، حذَّر مشرفك على رسالة الدكتوراه، الفيزيائي الألماني الحائز على جائزة نوبل العام الماضي، كلاوس هاسلمان، من أن حرارة الأرض يمكن أن ترتفع بشكل لا رجعة فيه في غضون 30 عاماً فقط. كما تزامن في نفس العام، أنه تمَّ تأسيس الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغيُّر المناخ (IPCC)، حيث أدركت المزيد والمزيد من الدول ضرورة القيام بشيء ما. ولكن للأسف لم يكن لأي من ذلك فائدة ملموسة، بل على العكس: أكثر من نصف انبعاثات ثاني أكسيد الكربون التي جعلت حياتنا صعبة للغاية لم تدخل حيِّز الغلاف الجوي إلّا بعد عام 1990... إذن، ما جدوى التحذيرات؟!

- هناك مفارقة حقيقية فيما تقول، فمنذ ذلك الحين، أخذت العديد من الدول التي كانت تنتج القليل من ثاني أكسيد الكربون، بصورة مفاجئة، في التسبب بانبعاث كميات هائلة من ثاني أكسيد الكربون، وخاصة الصين. واعتباراً من عام 2020، استأثرت الصين، وحدها، بما يقرب من 31 بالمئة من إجمالي الانبعاثات العَالَمية سنوياً. والواقع، لم يكن هذا متوقعاً في التسعينيات. ففي أوروبا، انخفضت الانبعاثات تدريجياً، وإنْ كان ذلك يحدث ببطء شديد وبعيداً عن المستوى المطلوب. كما تنخفض الانبعاثات الكربونية الآن في الولايات المُتحدة.

بدورك كأحد الباحثين والعاكفين على دراسة شؤون المناخ، هل تعتقد أن الأمور قد تسير في الاتجاه الصحيح إذا وضعنا الحقائق على الطاولة؟

بالتأكيد. كنا نعتقد أننا سننتقل تلقائياً من مرحلة معرفة الحقائق إلى مرحلة العمل عليها. وكان هذا هو الخطأ الكبير الذي ارتكبناه كـ«باحثين» في جميع أنحاء العَالَم. ولكن لا يمكن اتهامنا بأننا لم نتابع المُشكلة بشكل كافٍ. ففي النهاية، لقد وضعنا الإشكالية على رأس جدول الأعمال السياسي العَالَمي لعقود من الزمن. كعلماء، يمكننا تقديم المعلومات ووضع اقتراحات وطرح الخيارات. لكن الساسة هم مَنْ عليهم اتخاذ القرار. لكننا، لسوء الحظ، لم نتوصل إلى الاستنتاجات الصحيحة، بعد.

كيف يمكنك القيام بذلك على نحوٍ أفضل؟

- من الصعب جداً على السياسيين أن يجدوا قبولاً اجتماعياً بشأن التدابير الضرورية غير المُتعارف عليها، مثل: فرض الضرائب البيئية، وتسعير الكربون في صورة غرامات لمَنْ يتعدَّى الحدَّ المسموح به، وكذلك فرض حظر ومقاطعات - ولكن يجب على الساسة دائماً توخي الحذر حتى لا يثقلوا كاهل المُواطنين. إذا جرى تفعيل مثل هذه الإجراءات، سوف يبغض الجمهور مثل هذه الضرائب وستصبح حماية المناخ مصطلحاً أكثر عاطفية. إذا شعر الناس أن حماية المناخ مفيدة لهم، سيختلف الأمر كثيراً. يمكن عمل صندوق لجمع قيم هذه المُخالفات وإنفاقها للتخفيف من معاناة المُتعثرين اجتماعياً أو لتجديد المدارس بأموال من صندوق حماية المناخ.. كل هذه المُمارسات يمكنها أن تحدَّ من السلوكيات المُضرة للبيئة وتحيد غضب الحشود وتعود بالنفع المُباشر على العامة.

كثير من الناس ينظرون إلى المُطالبة بتفعيل مبدأ «الاستدامة» باعتباره هجوماً على أسلوب حياتهم، والذي من شأنه الحد من قدرتهم على الاستمرار.. كيف تواجه هذا؟

- لابد من التركيز أكثر وأكثر على المكاسب. فعلى سبيل المثال، من شأن تحديد السرعة على طريق الأوتوبان أن ينقذ الأرواح ويجنِّبنا الاختناقات المرورية ويوفر المال ويقلل الانبعاثات. وهذا أمر رائع، إذ يتميز وسط المدينة الخالي من السيارات بالهدوء واتساع المساحات الخضراء. ومن ثَمَّ، تتوافر لدينا مساحة لتنفس هواء نقي والتنزه والجلوس في المقاهي العامة. مَنْ منا لا يريد ذلك؟ لقد جئت لمُقابلتك ممتطياً دراجتي، حيث مارست الرياضة، واستنشقت الهواء النقي، ما جعلني أكثر صحة. هذا أيضاً ما يحتاجه كوكبنا. ومن ثَمَّة، علينا أن نخلق بداية جديدة تحمل رسائل إيجابية. ولكن بدلاً من ذلك، نستغرق في نقاشات بائسة لا تسفر سوى عن التخلي عمّا يجب أن يكون عليه الحال في المُستقبل.

كم مرّة تلقيت رسائل مناهضة من أشخاص يعتقدون أنهم يستطيعون دحض نتائج علم المناخ عبر رسالة إلكترونية مكوَّنة من بضع كلمات؟ وهل يتفاعل العديد من الشباب الآن مع أزمة المناخ بمزيد من الخوف واليأس والشعور بأنهم عُرضَة للخداع في المُستقبل؟ وما مدى واقعية أننا ما زلنا قادرين على تحقيق أهداف باريس المناخية؟

- أتلقى يومياً الرسائل. بعضها ليس مسيئاً، وبعضها مسيء جداً وبعضها عنصري. لهذا السبب لست نشطاً على وسائل التواصل الاجتماعي. ولا أريد أن أعرِّض نفسي للعواصف والنقاشات المُنحدرة. أتلقى أيضاً رسائل عديدة من جيل الشباب، وأحاول تهدئة مخاوفهم. فدائماً أوضح لهم أن الأمر بأيدينا. لا يمكننا في الواقع منع المناخ من أن يصبح أكثر دفئاً، لكن مدى دفئه يعتمد على كيفية تصرُّفنا جميعاً في المُستقبل. أحاول أيضاً أن أوضح للناس أن العَالَم لن ينتهي حتى لو لم نلبِ أهداف اتفاقية باريس لحماية المناخ. لا أحاول طلاء الحقيقة بكلمات معسولة.. ولكن عبارات «سنموت جميعاً» وما شابه تأتي بنتائج عكسية. يجب أن نتوخى الحذر عند انتقاء مفرداتنا ومع



إطلاق التحذيرات وألّا نفرط في إدارة هذا الملف بطرق غير حكيمة. هذا ينطبق أيضاً على وسائل الإعلام ولغتها في هذا الملف التي تخاطب بها الجماهير. علينا التأكد من أننا لا ننقل سيناريوهات الرعب، فحسب. والحقيقة أننا لن نتمكن من الحدّ من ارتفاع درجة حرارة الأرض إلى 1.5 درجة مئوية. لكن هدف البقاء دون الوصول إلى درجتين لا يزال في متناول اليد. وسيكون إنجازاً كبيراً. فإذا أراد العَالَم ذلك، عليه الشروع في تغيير شبه فوري. إن موقف بعض الدول الصناعية المُتمثل في الرغبة في رفع انبعاثات ثاني أكسيد الكربون الهائلة إلى ذروتها قبل فترة وجيزة من عام 2030 هو موقف غير مقبول تماماً، وينبغي التصدي له. قد تساعد أوراق الضغط الاقتصادي من خلال فرض التعريفات الوقائية.

يبلغ تركيز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي الآن حوالي 421 جزءاً في المليون. إنه بالفعل أعلى بنسبة 50 في المئة مما كان عليه قبل التصنيع، وأعلى من أي وقتٍ خلال الثلاثة ملايين عاماً الماضية. ومع ذلك، لا تزال البشرية بعيدة عن فكرة التخلي عن الانبعاثات الكربونية.. ألا تسحق هذه الحقائق تفاؤلك؟ وهل يمكننا خفض معدل احترار الأرض، في المُستقبل، باستخدام الوسائل التقنية لعزل ذرات ثاني أكسيد الكربون؟

- طالما أن هناك فرصة للحد من الاحترار، فعلينا أن نكافح من أجل تحقيق ذلك. كل الكسور مهما بلغت ضآلتها، حتى وإنْ كانت عُشر درجة، شديدة الأهمّية هنا. على أي حال، لا يوجد شيء في الفيزياء يمنعنا من إبطاء الاحترار. وما نحتاجه الآن -بصورةٍ ملحة- هو بدء نقاش مجتمعي واعٍ حول الطريقة التي نريد أن نسلكها خلال هذه المرحلة الحرجة. وفيما يخص إمكانية خفض معدل احترار الأرض، أرى أن هذا غير ممكن، نظراً لبقاء ذرات غاز ثاني أكسيد الكربون عالقة في الغلاف الجوي لعدّة قرون. وحتى إذا انخفضت الانبعاثات السنوية بشكلٍ كبير في المُستقبل، فإن الكمية الإجمالية لثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي ستظل تزداد وسيزداد تأثيرها على المناخ بشكلٍ أكبر. من الصعب حقاً خفض معدل الاحترار، ولكن يمكننا فقط إيقافه حتى لا يزيد، أي علينا ألّا نتسبب في إطلاق المزيد من ذرات ثاني أكسيد الكربون «الصافي» بدءاً من الآن وحتى عام 2050 إذا كنا نريد ألّا تتجاوز الزيادة المُتوقعة لدرجة حرارة الأرض درجتان مئويتان. وبخصوص إمكانية عزل ذرات ثاني أكسيد الكربون وفصلها عن الهواء، فلا أعتقد أن ذلك ممكناً. تكلفة هذه الأنظمة، ومتطلبات الطاقة الخاصة بها، ومقدار ثاني أكسيد الكربون الذي يمكنها تحييده بالفعل- كل هذه الأشياء ليست واضحة حتى الآن. السيناريو المُسمَّى بـ«تكنولوجيا الانبعاثات السلبية»[1] هو في الواقع رهان غامض على المُستقبل. والأحرى أن نتعامل مع الحاضر بالحدّ من انبعاثات ثاني أكسيد الكربون، الآن.

■ **حوار: ماركو إيفرز □ ترجمة: شيرين ماهر**

هوامش:

1 - تكنولوجيا الانبعاثات السلبية (CDR): هو مصطلح يشير إلى إزالة ثاني أكسيد الكربون بطرق بشرية من الغلاف الجوي وعزله لفترةٍ طويلة، للمُوازنة مع انبعاثات الغازات الدفيئة الناتجة عن حرق الوقود الأحفوري. وذلك بواسطة عدّة أساليب، كالتشجير والتجوية المُحسنة والزراعات المُعدَّلة.

المصدر:

https://www.spiegel.de/wissenschaft/mojib-latif-ueber-wege-aus-der-klimakrise-mit-der-zukunft-wettet-man-nicht-a-03599cc2-70e8-49db-841b-52158eae5374

عمران المليح:

حالة استثنائية في الأدب المغربي

كنتَ مُحقاً أيها العزيز عمران، عندما سلكتَ سبيل الإبداع الأدبي، حيث تسعفُ العبارةُ، ويتسع التخييل للاقتراب من التجارب والمشاعر المعقدة، وحيث نستطيع أن نعانق فسحة العوالم الممكنة التي تحاول الرقابة عبثاً، أن تحرمنا من الولوج إليها..

لا أطلق صفة الاستثنائية على الكاتب المغربي اليهودي إدمون عمران المليح، لأنه نشر أول رواية له عندما بلغ الستين من عمره، وإنما لكونه عاش تجربةً ملتبسة مع موهبته الإبداعية بسبب انخراطه المبكر في النضال السياسي خلال فترة استعمار فرنسا للمغرب (1912-1956)، وتحمّله مسؤولية القيادة في المكتب السياسي للحزب الشيوعي المغربي، قبل أن يقدِّم استقالته من الحزب والسياسة سنة 1959، ليبدأ رحلته المُتميّزة نحو الإبداع الروائي والفكري حاملاً معه ذاكرة ممتلئة وشكلاً جمالياً لافتاً، مُضيفاً إلى مَنْ سبقوه بصماتٍ تستحق الاعتبار والتحليل.

ارتبطت حياةُ عمران (1917-2010) بمراحل أساسية من مسيرة المغرب نحو الاستقلال، ثم مشروع بناء الدولة الوطنية الديمقراطية. وقد أدرك منذ شبابه المُبكِّر، ضرورة مقاومة الاستعمار، والمحافظة على وحدة صفوف جميع العناصر المكوِّنة للشعب المغربي، وفي مقدمتها عشيرته المُنغرسة منذ قرون في صلب المجتمع. ومِنْ ثمَّ، كان ضمن مجموعة الشباب التي انخرطت في الحركة الوطنية لتقاوم مشاريع الفرْنَسة والتفرقة بين صفوف المناضلين من أجل تحرير الوطن. لأجل ذلك، ستصبح مسألة تهجير اليهود المغاربة إلى إسرائيل، بعد الاستقلال، جُرحاً نازفاً في كتابات عمران، لأنه اعتبره جريمةً تتمثل في تهجير مئات الآلاف من اليهود من أوطانهم العربية، إلى أرض فلسطينية هُجِّر أهلها وأصبحوا ضحية للعنف والاحتلال. ولعلّ الصفحات الأولى من روايته "المجرى الثابت" (1980) هي أفضل وأعمق شهادة أدبية عن مأساة اجتثاث العشيرة اليهودية من أرضها ولغتها وطقوسها. وهذا الموقف الإنساني والسياسي عبَّر عنه عمران المليح في مقاله التاريخي المنشور في مجلة "الأزمنة الحديثة" التي كان يرأس تحريرها جان بولْ سارتر، سنة 1977، بعنوان "يهودٌ مغاربة ومغاربةٌ يهود". والواقع أن الدوافع الإنسانية والأخلاقية هي التي كانت توجِّه عمران في مسارِه الحياتي؛ إذ نجده يبادر، سنة 1959، إلى الاستقالة من المكتب السياسي للحزب الشيوعي، عندما اكتشف فظائع ستالين وانحرافات النظام السوفياتي عن مبادئ الأيديولوجية الماركسية المُبشِّرة بالمُساواة وتحرير الفرد من الاستغلال. استقال عمران من النضال الحزبي ليَنخرط في مغامرة الإبداع الأدبي، حاملاً في زوّادته ذخيرةً من الذكريات، ومتابعاً لِمَا كان يُنشر من روايات في فرنسا وإسبانيا وأميركا اللاتينية، ومُزوّدا بتكوينه الفلسفي. وهذا التحوُّل في حياته كشف أمامه أفقاً آخر، يمكن أن نلخصه في السؤال التالي: هل تكفي الأيديولوجية الثورية لاستيعاب تعقيدات علاقات الفرد بالمجتمع؟ هل تكفي للإجابة عن الأسئلة المُلتصقة باختبارات الحياة وهمومها؟ هل الأيديولوجية تبدِّد الشكوك والمخاوف المُتحدِّرة من أسئلة الوجود وتحوُّلات القيم؟

هذه الزاوية، يمكن القول بأن نزوح عمران من السياسة إلى الأدب جاء نتيجة لِشَكِّهِ في فاعلية الأيديولوجية التي كان يؤمن بها؛ وبذلك وجدَ في فسحة الإبداع ما يُقرّبُه من الحقائق المتوارية وراء الشعارات والحلول الجاهزة. والعنصر الذي فتح له بوّابة الأدب العميق، هو اعتماده على مفهوم دقيق للذاكرة، نظرَ له الفيلسوف والتر بنيامينْ الذي اعتمد في قراءاته لمارسيل بروست وكافكا وجويس على ربط الذاكرة بالحاضر، واعتبار الأليغوريا عنصراً هادماً لِمَا هو سلبي ومُنتهي الصلاحية، تمهيداً لتشييد الجديد...

في المُقدِّمة التي كتبها عمران للطبعة الثانية من روايته "المجرى الثابت" سنة 2000، أثار مسألتيْن على جانب من الأهمية: تتعلَّق الأولى بالصدمة التي أحدثها الاستعمار في المغرب، حيث خلخل نمط العيش وأحدث رجّة في التقاليد. وكل ذلك انعكس على اللغة، إذْ أصبحت الفرنسية مُجسِّدة لتفوق المُستعمِر، المسيطِر، ومن



خلال المجال الأدبي تجلَّى هذا الصراع اللُّغوي. وقد اختار عمران أن يكتب بلغة تمتزج فيها الفرنسية بلغة الكلام المغربية التي يعتبرها هي اللغة الأمّ الكاشفة لما هو مُضمَر ومكبوت. والمسألة الثانية التي طرحها في تلك المُقدِّمة، هي تمييزه بين ذاكرتيْن: واحدة سياسية تختزن الأحداث والمواقف، والثانية حافلة بالمشاعر واللحظات الوجودية التي تتمرَّد على الماضي لتفرض نفسها على الحاضر والمُستقبل. وهذه الذاكرة الثانية هي التي سيعتمد عليها عمران في كتابة رواياته الخمس. لأجل ذلك، أوردُ مقتطفاً من روايته "أيلانْ أو ليْلُ الحكي" (1983)، مأخوذ من فصل يحمل عنوان: "تحت نار حفلة طاجين فاخرة" يُصور فيه مشاهد من سلوك ولغة النخبة المغربية المُتبرجزة عقِبَ الاستقلال :

"كان هناك جامِعيون، أطبّاء، محامون، خبراء في اليونيسكو، انطلقوا من لا شيء. أنصافُ آلهة، تقنوقراطيون حملة المستقبل الأسر الكبيرة، الانتهازيون: "أبوهُ كان يبيع الفول السوداني، أبوه كانْ بْلايْغي، أبوه كان خمّاساً، أبوه كان بنّاء، لكنْ بفضل الله.. الحمد لله". سهرة بهيجة (...) رمضان ولّي. حبور، ضحكات متوالية، طقطقة الأحاديث، جُمَل متقطعة، نيازك تخترق الفضاء: "لقد سافروا صباح اليوم إلى طوريمولينوس. سيارتان. كلّ الأسرة، أمينة رجعتْ أمس، لا لمْ تكنْ تعلم. أجل، مع زوجها. كانا في باريس كالعادة، التخفيضاتْ. الحاج مريض مسكينْ. لقد نادوا على كبار الأطباء، سيحملونه إلى باريس". طاجينْ يُتناوَل على الطريقة الغربية، شيء جميل وعصري: "خذْ صحنا وتناول الطعام". نفس الصحن للبسطيلة والكسكس والكبْدة مْشرملة، الدجاجْ بالبرقوق، لحم الخروف (...) السمك المشوي، طجين الملوخية. ملذّات. (ص 118 من الترجمة العربية التي أنجزها عليّ تيزلكادْ؛ دار توبقالْ، الدار البيضاء، 1987) .

إن هذا الفصل الذي كتبه إدمون عمران المليح سنة 1983، لم يفقد راهِنيّته لأنه يستوحي سلوكاً يمكن أن يتكرَّر في سياقات متشابهة من تاريخ المغرب وتاريخ مجتمعات أخرى، عندما يتعلَّق الأمر بفترات اهتزاز القيم، واختلاط المقاييس والثقافات. وهو في الآن نفسه، نموذج لتوظيف لغة الكلام في التشخيص والسخرية الكاشفة.

فعلاً، أجدُ أن عمران المليح ربح الرهان الذي توخّاهُ عندما غادر المغرب سنة 1965، مُيمِّماً نحو باريس رفقة زوجته ماري سيسيلْ، المُتخصّصة في فلسفة والترْ بنيامينْ، ليبدأ رحلة جديدة على طريق الإبداع الروائي، ومراقبة الوطن والعالم من خلال الرؤية الأدبية التي تبيح الشكّ في جميع المُسلّمات، وتغامر بطرح الأسئلة الحميمة التي تتعالى المنظومات الأيديولوجية عن طرحها. وقد صدق حدْسُه عندما كتب :

"تجربتي كمناضل ومفكِّر، أجبرتْني على اختيار أحد أمريْن: إمّا كتابة كتاب سياسي، تحليلي، عن تجربتي في الحركة الوطنية؛ وهو ما تردّدتُ بشأنه طويلاً؛ ثم اقتنعتُ بلا جدوى تأليفٍ من هذا النوع. وإما، وهنا وقع الانقلاب الحاسم، اللجوء إلى خيار آخر هو الأدب والكتابة".

نعم، كنتَ مُحقاً أيها العزيز عمران، عندما سلكتَ سبيل الإبداع الأدبي، حيث تسعفُ العبارة، ويتسع التخييل للاقتراب من التجارب والمشاعر المعقدة، وحيث نستطيع أن نعانق فسحة العوالم المُمكنة التي تحاول الرقابة عبثاً، أن تحرمنا من الولوج إليها. ■ **محمد برادة**

ملف خاص



جاك دريدا

الوضوح الذي حاولت أن أعقّده

لطالما تميّزت أعمال الفيلسوف الفرنسي ذي الأصول الجزائرية «جاك دريدا» (1930 - 2004) بالفرادة والغموض. الأمر الذي جعل أشياعه لا يتوقفون عن إحياء أثره منذ رحيله في خريف (2004). وعلى غرا ذلك يقدم هذا الملفّ مختارات من حوارات ترفع الحجب عن فلسفة نشطة واكبت عصر التحوّلات التقنية المفرطة، تمحورت حول: الحدث، والضيافة، والغيرية، والعدالة، والتعليم الفلسفي، وفيها يستحضر دريدا التفكيك كممارسة فكرية يقظة ومنفتحة، تعيد النظر في أعطال التاريخ والإنسانية ومآزق الديموقراطية.

تقديم وترجمة: محمد بكاي

جاك دريدا

حوارات حول الحدث والفلسفة والضّيافة

من خلال مسيرة حافلة بالنقاشات والحوارات والكتابة الفلسفية التي استمرّت أربعة عقود تقريبا، حاول «دريدا»، ولوج مواقع حرجة بين فهم الواقع الإنساني ومآلاته المنفلتة من أيّة محاولة للترسيم والتحديد.

منذ ظهور أعمال «دريدا» البكر، سنة (1967)، شكّل «التفكيك» فلسفة عصيّة عن التصنيف، أو حدثاً فلسفياً زلزل مواقع الفلسفة التقليدية، وشتّت إحداثياتها، وأعاد النظر في خرائطها. ما يميّز هذا التفكيك (الدريدي) هو رهانه على تفكير ينشأ من السؤال والاحتمال المستحيل للحدث، واعتماده على طريقة مقنّعة وملتوية للإجابة، من خلالها يضاعف التفكيك حدّة الغموض وكثافة السؤال، فلا يجيب عن مضمون السؤال ومحتوى المعرفة أو يحدّدها ليثبتها، بل يعرض احتمالية الأسئلة وهي تتقلّب بين «نعم» و«لا»، فهو لا يفترض أيّة إجابات مسبقة وساكنة بقدر ما يفتح الجبهات على دينامية نصّيّة، شرطها الأوّل هو الاحتمال والإزاحة، أي ما يتّصل بالحدث؛ بوصفه حدثاً «فرديّاً وفريداً» منفلتاً من محاولة الاستيلاء على المعرفة. عداوة التفكيك للأنساق رافقت رحلته الفلسفية، ليتحدّث عن مغامرة فردية جريئة عبر الكتاب والكتابة، مغامرة تسائل السياقات السياسية، والسياقات التاريخية، وتنقّب بحثاً عن جذور الذّات في كلّ مكان، وزمان. يُمثّل التفكيك حدثاً فلسفياً يطارد -بشكل مباغت ومرواغ- ما يأتي من الماضي أو من المستقبل المطلق.

عبر هذه اللقاءات، يقرّب لنا «دريدا» رؤيته للفلسفة، وهي رؤية جديدة قوامها الثورة المضادّة على نفسها، وهو التمرُّد الذي يشاركه فيه بقية أبناء جيله (فوكو، ألتوسير، دلوز، كريستيفا...). التفكيك تمرّد على الفكر المركزي الذي طبع التقاليد الفلسفية، منذ« أفلاطون» وصولاً إلى «هيغل» و«هوسرل»، والانتصار للكتابة بهذه الطريقة المتمرّدة والغريبة هو نقد الفلسفة من الدّاخل ومن الخارج معاً؛ أي نسف لحدودها، وتحرير لباطنها. ويتداخل البرنامج التفكيكي ضمن هذه الرؤية التقويضية (إذا استعرنا مصطلح هايدغر) مع البرامج التعليمية، والسياسية، والتربوية الأخرى، فتصبح الفلسفة فضاءً غير متحيّز لحقّ فكري مضبوط، هو فضاء «اللاّمكان» الذي لا بداية له ولا نهاية، بحسب قول «دريدا».

أمّا اقتراب التفكيكي من النصوص -فلسفية كانت أم أدبية- فيكون كشفاً لاحتمالاتها ورصداً لتوقّعاتها. إنّ فكّ التشفير هو رؤية متبصّرة للاختلاف غير القابل للاختزال الذي يثري النصوص. وهنا، يستثمر «دريدا» مفهوم الكتابة كمزيج بين الأدبي والفلسفي، وهو ما وسم نصوصه، أو منحها بصمة تخييلية فلسفية خاصّة. فبين الأدب والفلسفة تتعقّد الصلات، وتتواشج، وتتشابك قوانينهما في حيّز مثير للاهتمام؛ وهو ما طبع نصوصه الطلائعية مثل «نواقيس» أو «التشظّي». وطبعت هذه السِّمة الاختلافية خطابه الفلسفي الذي يقوّض الأنساق التحديدية، وينسف أوهامها. عبر هذه الحوارات، يثير «جاك دريدا» أسئلة من قبيل: «ما هي الفلسفة؟» و«ما هو الأدب؟». فما تسير على هديه التفكيكات (الدريدية) هو ضرب برزخيّ، لا هو أدبي ولا هو فلسفي، إنه شكل مقنّع أو ملتبس وغير واضح الملامح، مشتّت الوجهات، وشذريّ الجهات، يضحّي بالعقلانيات لأجل التلذّذ بكتابة تخرّ فيها البراهين لصالح شاعرية الفكر واللّغة.

آثار المنعطف الإتيقي للتفكيك واضحة، أيضاً، في هذه المقابلات، وهو ما طبع أعمال «جاك دريدا» في التسعينيات؛ فبين الضيافة والهجرة وحقوق الإنسان والعدالة والقانون، زحزحت سياسة التفكيك ثوابت الفكر



السياسي لأجل تغيير نقديّ للحقوق. فعمل التفكيك كان إصلاحياً، رغم ثورته الواضحة، وقد بذل فيه «دريدا» جهداً باسم النقد التحرّري ليشارك كلّ مثقّف في الانتصار للإنسان، وتعطيل أنساق الثقافة الدولية المهيمنة. كما وجّه «دريدا» نقداً شرساً إلى سياسات فرنسا وتشريعاتها بشأن المهاجرين، ودعا، بصبغة أخلاقية متأثّرة بلغة لفيناس، إلى إعادة النظر والنقاش في قضايا الترحيب بالآخر الغريب عن الثقافة المركزية الأوروبية، ورأى في قوانين الاندماج صهراً للحميميات الفردية، وتهميشاً للذاكرة الوطنية، لكن «دريدا» راهن على فضاء سياسي ومدني «غير مشروط» لأجل ابتكار أحكام وظروف أحسن؛ فالضيافة الخالصة التي ينشدها هي الترحيب بالمضيف قبل وضع شروط له، قبل معرفته وسؤاله أو طلب أيّ شيء منه، سواء أكان اسماً أم كان «أوراق» إثبات الهويّة. تمثّل التعديلات التي اقترحها «دريدا» تربية مدنية واحتراماً للآخر وشجاعة سياسية، وما يدعو إليه لا ينتمي إلى الإتيقي بقدر ما يتغلغل فيه؛ هو ضرب من «المستحيل الممكن» (L'im-possible) كما يشترطه «دريدا»، أي محاولته التفكير بإمكانية المستحيل.

ما يمكن قوله -كما جاء على لسان «دريدا»- هو أن التفكيك ليس نقداً أو طريقة أو منهجاً، هو جينيالوجيا لأفكار ونصوص ومفاهيم تصنع أحداثاً تثير الدّهشة. ما عوّل عليه التفكيك هو الشّبح الذي يعود دون استئذان، ولتلك العودة أثرها الخالص الذي لا يمكن محوه في الزمان وفي المكان؛ لهذا أولى «دريدا» اهتماماً به، لما لا يمكن التنبُّؤ به أو تمثّله كما هو في الفكر. حيث ينفلت الشبحي (Le spectral) من أيّة شروط تحديدية، هو حدث معرفي فريد تميّز به «دريدا» عن معاصريه، خاصّة في كتابه أطياف «ماركس» الذي ذكره في أكثر من موضع ضمن هذه الحوارات. بعبارات أخرى، التفكيك أسلوب فكري يقتفي أثر الشّبح (Le spectre)، ويحتمل إمكان وقوعه، وهو ما تنكره التضاريس الفلسفية، والتصوّرات المنطقية المتمركزة عقلانياً. ■ **محمد بكاي**

مع ديدييه أوريبون، روبير ماجيوري وجان بيار ساغلا[1]

في مديح الفلسفة

إن مبادرات وزير البحث «جان بيير شوفينمو»، تزعج، اليوم، العالم المحشوّ، بشكل عامّ، بالعلوم الدقيقة والعلوم الاجتماعية أو الإنسانية. حتى الآن، لا نعرف ما الذي قد يخرج من هذه «الورشة»، سواء أكان جيّداً أم كان سيئاً: المشاريع والمناقشات، والمشاريع المضادّة والخلافات والمناقشات الجارية على قدم وساق. مع ذلك، هناك شيء واحد واضح: الفلسفة منسيّة تماماً، ورغم ذلك، نحن نتذكّر «الخلاف الفلسفي» والمناقشات حول الفلسفة التي أثارتها النيّات (السيِّئة) للحكومات السابقة.

وجد الفلاسفة أنفسهم، بعد حشدهم في يونيو/حزيران (1979)، في الجمعية العامّة للفلسفة، حيث تَمَّ اكتساب الفكرة، ليس دفاعاً عن الفلسفة عمّا تمثّله، فحسب، كما يبدو واضحاً، بل امتداداً للتعليم الفلسفي، أيضاً. في ذلك الوقت، كان الاشتراكيون، الذين لم يكن تصنيفهم ضمن أولئك الذين «يخشون الفلسفة» ضرورياً، قد استمعوا، بشكل إيجابي، إلى المقترحات الصادرة عن الجمعيات العامّة (des États Généraux). كان «فرانسوا ميتران» قد أكّد، قبل الانتخابات، أن تدريس الفلسفة، مع وجود الاشتراكيين في السلطة، «سيتمّ الحفاظ عليه وتطويره». اليوم، يحضر الاشتراكيون في السلطة، فماذا عن الوعود، إذاً؟ وزير التربية الوطنية «آلان سافاري»، على عكس زميله في البحث، صامت للغاية. لقد طلبنا من «جاك دريدا» الذي كان دائماً في طليعة الكفاح من أجل «الفلسفة»، وهو على رأس (Greph)، أن يقدّم مساهمته، التي قد تبدو تساؤلاً ضرورياً.

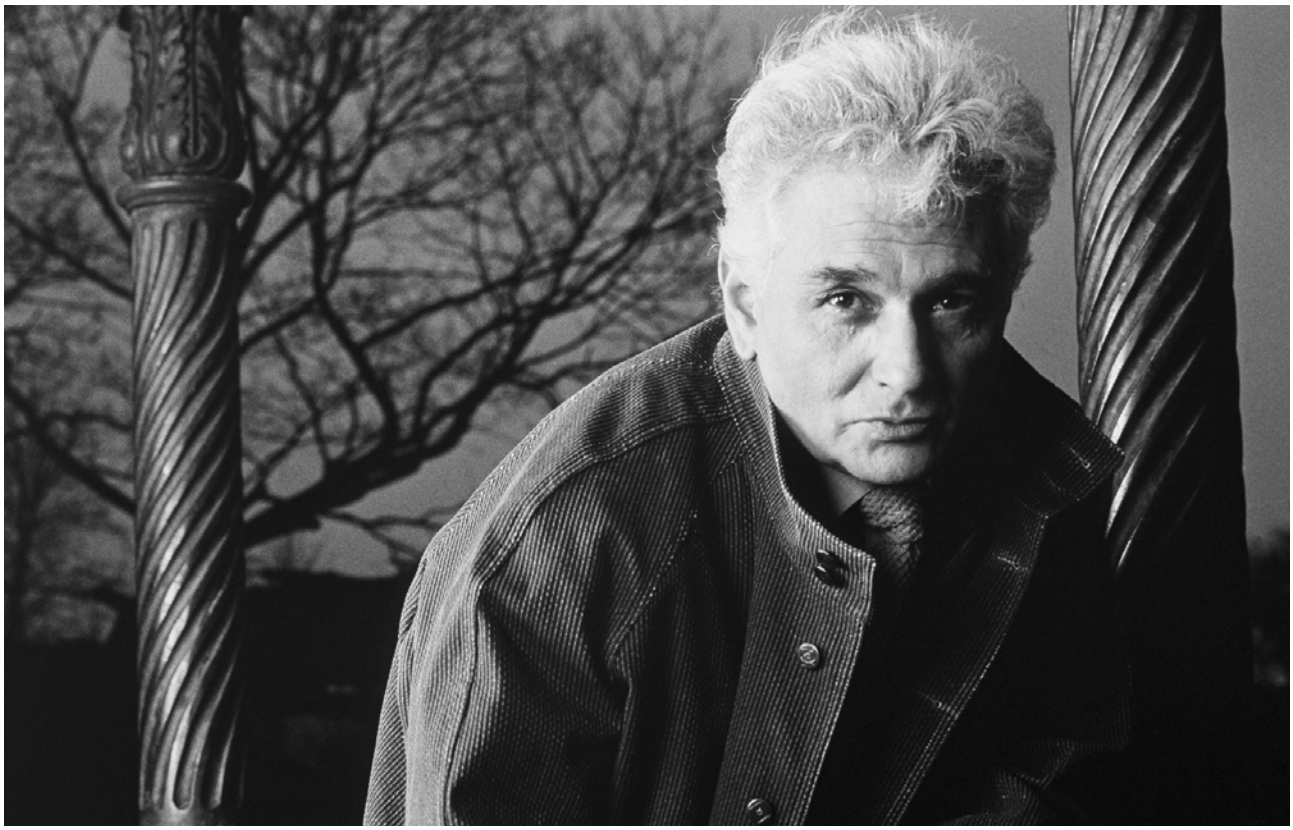
مقترح (GREPH)

تقترح (Greph)، وهي مجموعة بحثية حول تدريس الفلسفة، قراراً مبدئيّاً يؤكّد التزامات رئيس الجمهورية، وينفِّذها: في أقرب وقت ممكن، سيتمّ تقديم تدريس الفلسفة، والحفاظ عليه في جميع أقسام التعليم النهائي. من جهة ثانية، يتمّ تحديد هذا التاريخ والقرار، وستجمع الأعمال من جميع الأطراف المعنيّة، و -علاوة على ذلك- سيتمّ مضاعفة التجارب، ليس فقط في بعض المدارس الثانوية المتخصّصة في التجريب، بل حيثما كانت ممكنة ومرغوبة، مع العلم أن الوزارة ستشجّع الظروف، وتعزّزها رسمياً. تقترح (Greph)، أيضاً، تقديم الفلسفة في التعليم الثانوي في شكلها النظامي المعترف به، مع متطلّباتها ومعاييرها التقليدية، لكن هذه النقاط يجب مناقشتها مع جميع السلطات المعنيّة، أي هي نقاط للمناقشة مع كلّ الهيئات المعنيّة. بمعدّل ساعتين في الأسبوع، مثلاً، ومع الحقوق المسموح بها لأيّ تخصُّص أساسي آخر. يقوم مدرّس الفلسفة بتدريس ما نتَّفق على تسميته -بالمعنى الدقيق للكلمة- (الفلسفة المؤسّسية)، ولكن، من ناحية أخرى، بالاتِّفاق مع ممثّلي التخصُّصات الأخرى، وفقاً لأشكال جديدة، على محتوى جديد، ولا يزال تمثيلاً ضئيلاً أو سيّئاً في التوزيع الحالي لمجالات التدريس، سيتمّ ممارسة شيء ما بقدر ما يتمّ تدريسه، أي ما يشبه التفكير في حدود الفلسفة، إذا أمكن خارج البرنامج، وبأكبر قدر ممكن من الخلق، للابتكار المشترك. في هذا الفضاء التّوضيحي، سيكون للفلاسفة والفلسفة (بالمعنى الأوسع والأحدث) نصيبهم، وهو جزء غير راجح سيكون متاحاً، في مجمله، لجميع المعلّمين ولكلّ الطلاب، وهذا يفترض إجراء إصلاح عميق للنظام وللأعراف داخل المدرسة، وفي أيّ مكان آخر.

ج.دريدا

Qui a peur de la philosophie? et Les États Généraux de la philosophie (Flammarion, Collection Champs).

ليبيراسيون: في مناسبتَيْن، تعرَّض «فرانسوا ميتران»



لمسألة توسيع نطاق تدريس الفلسفة. كان هذا الموضوع على قائمة أعمالكم منذ الجمعية العامّة للفلسفة.

- جاك دريدا: في الحقيقة، منذ بداية عام (1975)، كان الأمر، بالنسبة إلينا، أكثر من مجرَّد ادِّعاء محدّد (فنّي، تعليمي، وحتى مشترك). مثل هذا التحوُّل من شأنه أن يؤثِّر في كلّ شيء، قبل المدرسة الثانوية وبعدها، داخل التعليم، وخارجه. نظراً لأنها، قبل كلّ شيء، ليست مسألة نشر نظام، وحتى أقلّ من النظام نفسه (المحتوى نفسه، المناهج نفسها، وما إلى ذلك) في ظلّ ظروف متطابقة، حيث ندعو إلى تحوّل عميق للنظام التعليمي بأكمله في علاقته بالمجتمع، كنّا نعلم جيّداً أننا كنّا نتحدَّث، بعد ذلك، عن تغيير سياسي حقيقي.

ولا نخفي، مع وصول حكومة يسارية، أن مساحة النقاش أو العراك ستكون، بالتأكيد، أكثر انفتاحاً وأكثر ملاءمةً، لكن تلك المقاومة ستظلّ قويّة، ولا يزال العمل والنضال ضروريَّيْن. إن ما نواجهه هو، بالفعل، أقدم وأكثر تجذّراً، و -من ثَمَّ- أكثر إصراراً من الموضوعات والبرامج والقوانين السياسية التي تتعارض أو تتّفق عليها الأغلبية الانتخابية في هذا البلد.

لكننا شهدنا بعض التغيير السياسي. هل من المحتمل أن تزيل هذه التغييرات بعض العقبات؟

- يبدو أن العقبة السياسية قد أزيلت من حيث المبدأ، ويبدو أنها اختفت شكليّاً. أنا لا أتحدَّث، فحسب، عن الشعور بالخلاص، الأمل الهائل الذي كان من الممكن أن يولّده وصول اليسار إلى السلطة. أنا لا أتحدَّث، فقط، عمَّا يمكن أن ينتهي بواحدة من أكثر الخطوط التاريخية قتامةً منذ الحرب، في الجامعة، خاصّة. وهنا، يجب التأكيد على ذلك. لا! أنا أشير، على وجه التحديد، إلى الالتزامات الرسمية لـ«فرانسوا ميتران» خلال حملته الرئاسية، لأن هذا هو الموضوع الوحيد لمقابلتنا. مثل كلّ التزامات هذه الفترة، يجب أن تشكِّلَ ميثاق عمل الحكومة. ومع ذلك، كانت هناك، أوّلاً، المقترحات العشرة لـ«خطاب إيفري» (Discours d’Evry)، ثم هذه الرسالة إلى (Greph) التي نُشرت منذ ذلك الحين في «لوموند» يوم (27) مايو/أيار: «يجب الحفاظ على تدريس الفلسفة وتطويره»، «يمكن توسيعه في التعليم الثانوي» و«يجب تضمينه في جميع أقسام الدورة الثانية الطويلة». تستجيب هذه الالتزامات، على وجه التحديد، لمطالب الجمعيات العامّة. لن نسمح لهم بالنسيان أو الإهمال. من المُلحّ أن نتذكَّرهم اليوم، لأن المشاكل لا تزال قائمة.

لم تعلن الوزارة عن أيّة إشارة حتى الآن، ولا عن أدنى مبادرة في هذا المجال، ولم ترد إشارة رسمية إلى التزامات «فرانسوا ميتران»، ولم نطرح حتى فرضية مناقشة، أو مشروع دراسة أو استكشاف أوّلي.. لا شيء! حتى أننا نحافظ على قمع بعض التراخيص الحيوية

للفلسفة في بعض الجامعات (من طرف سونيي سييتي[2] Saunier-Séité). كثير من المدرّسين والطلّاب والتلاميذ مندهشون أو ساخطون من هذا، ويمكننا أن نشهد على ذلك. في عدّة مناسبات، في صيف وخريف هذه السنة، عرضت (Greph) المشاركة في هذه الأعمال التحضيرية الأساسية، على الأقلّ. يجب إشراك جميع الأطراف المهتمّة: الوزارة، والمفتشية العامّة، وأولياء أمور الطلّاب، وممثّلي التخصُّصات الأخرى، والنقابات، والجمعيات المهنيّة، مثل رابطة أساتذة الفلسفة (ليست «الجمعية التمثيلية الوحيدة»، والتي «كرّست عملها لأكثر من ثلاثين عاماً»، كما زعمت، للتوّ، لـ«توسيع التدريس الفلسفي»، حتى أن بعض أعضائها أعلنوا خشيتهم من توسّع التدريس الفلسفي في الأقسام التقنية). على أيّ حال، لا يمكن لأيّ إجراء (يتعلّق، فقط، بتعديل الجداول الزمنية في أقسام النهائي) أن يتناسب مع المشاكل التي نناقشها، والتي نكافح لأجلها.

هل مسألة الأقسام التقنية مهمّة جدّاً بالنسبة إليكم؟

- نعم، وبشكل جليّ. نتطرّق، هنا، وعلى عجل، إلى الصعوبة التاريخية التي تطرَّقنا إليها سابقاً، وبشكل خالص. لماذا تخاطر الأغلبية الجديدة في هذا المجال -على وجه التحديد- بلغة تكاد تكون مختلفة، باتّباع سياسة يبدو أنها حاربت منذ عقود؟ عندما كانت القوى التي دعمت حكومات الأمس، داخل المدرسة، وخارجها، تميل إلى تقييد التدريس الفلسفي، لم يكن اهتمامها حظرَ أو قمعَ تسييس معيّن لا يمكن السيطرة عليه، من خلال مثل هذه الخطابات أو النصوص أو الموضوعات السياسية، بالمعنى المقنّن للمصطلح مباشرةً.

لعب هذا القلق السياسي دوراً مباشراً، بلا شكّ، خاصّة بعد (68)، يمكننا أن نتذكّر عدداً من الأدلّة الجادّة على ذلك. ولكن، قبل كلّ شيء، كانت هناك قيود قويّة على السوق، والضرورات التقنية والاقتصادية، ومفاهيم معيَّنة، والبعض الآخر قد يقول (أيديولوجيا) أو -ببساطة- فلسفة التكيُّف الفوري للإلحاحات الجليّة للإنتاجية في المنافسة الوطنية، والدولية.

باختصار، ليس هناك ما هو «طبيعي» أكثر من هذا المنطق التقني، وهو إنتاجوية ووضعية أيضاً. بالنسبة إلى الفلسفة التي تدعمهم (إنها أيضاً فلسفة، وتقليد فلسفي عظيم، وفلسفة للفلسفة)، لا ينبغي أن يمتدّ تكوين الفلاسفة إلى حدّ معيّن من الدمقرطة، بما يتجاوز الطبقة الاجتماعية التي كان لها مونوبول احتكار الخطاب الفلسفي الملحوظ بسماته الخاصّة. لم يكن توسيع هذا التكوين مربحاً، ولم يكن «فعّالاً-أدائيّاً» بما فيه الكفاية. أعني بتكوين الفلاسفة أن المواطنين (تلاميذاً أو طلاباً في المقام الأوّل، وأحياناً مدرّسين أو باحثين) قد تدرّبوا على صرامة التخصُّص (كما ينبغي أن يكونوا



في تخصّصات أو معارف أخرى)، لكنهم، أيضاً، منفتحون عليه، وعلى ما بعده من المساءلات أو التساؤلات الذي يصعب برمجتها.

ماذا يحدث اليوم؟ هل نحن في وضع جديد، حقّاً، في هذا الصّدد، على الأقلّ؟

- لست متأكّداً. المشروع أو «الفكرة» الاشتراكية يجب أن تتقدَّم من خلال تناقضات جوهرية ومتعدّدة. على سبيل المثال، يجب أن تستجيب وتهرب من البرمجة التقنية، والاقتصادية للسوق والإنتاج، والإلحاحات الشديدة للمنافسة الوطنية، والعالمية في وضعها الرّاهن. يجب على هذا المشروع أن يستجيب، ولا يستجيب معاً، لقوانين هذه الآليّة، وأن يرضيها ويحاول إزاحتها. تناقض لا مفرّ منه، يمكن تتبُّع آثاره في تفاصيل التسيير والخطاب الاشتراكيَّيْن. إنه ليس شرّاً مطلقاً، أو رذيلة، أو حادثاً، لكن هناك سبباً للتفكير في هذا التناقض، وتحليله، دون التعامل معه بالجهل أو الإنكار.

هل تعتبر الندوة الوطنية حول البحث والتكنولوجيا، التي نظّمها «جان بيير شوفينمو»، مؤشّراً في هذا الصدد؟

- من حيث المبدأ، إنها مبادرة طيّبة للغاية. كيف لا توافق عليها؟ ولكن، مباشرةً من بروتوكولاتها الرسمية وأعمالها التحضيرية الأولى، فنحن مدعوّون لتسهيل «العبور» بين ضرورات التكنولوجيا أو الإنتاج (مفاهيم غامضة للغاية، أيّاً كان ما قد يقوله المرء)، ومن ناحية أخرى، التعليم والعلم والثقافة (المفاهيم لا تقلّ إشكاليّةً، وغالباً ما يتمّ أخذها كأمر مسلّم به، اليوم، بقدر ما هي عليه بالأمس)، وهي مدعوّة إلى «تكييف» «أساليب تكوين متعدّد التخصُّصات»، «مع الاحتياجات الجديدة للقطاعَيْن: الاقتصادي، والاجتماعي (الصناعة والزراعة...وغير ذلك)». لا شيء أكثر شرعيّةً، بالطبع.. لا أكثر من ذلك، ولكن أين التجديد في فكرة العلم والثقافة والتكنولوجيا والبحث والتعليم؟ على الرغم من أننا نخطّط لزيادة ميزانيات معيَّنة، لحسن الحظّ، لجعل الديموقراطية الاجتماعية، والإنسانية أكثر فاعليّةً، والتي ظلّت، بالأمس، شكلية وغير كافية، فإن نظام التقييم والأهداف يظلّ كما هو، إلى جانب الخطاب وفكرة الثقافة. ضمن هذه الاستمرارية، يمكن إحراز تقدُّم هائل، بالطبع.. وأنا من بين الذين يريدون ذلك. لكن، ألا يجب أن نتساءل عن هذه الاستمرارية، ونجعل إمكان هذا التساؤل فعّالاً في جميع المجالات؟ ألم يكن ذلك باسم الخطاب نفسه، و«المقاطع» ذاتها، و«التكيُّف» نفسه الذي أراده الناس، ذات مرّة، لإخلاء الفلسفة، وكلّ شيء لا يفي بمعايير «الأداء» المنتج، لما يسمّى «احتياجات اجتماعية»؟ هذا المفهوم الأخير ملتبس تماماً، وهو المثال الأسمى. ما هي الحاجة الاجتماعية؟ من يعرّفها؟ ما هو التكيُّف مع الحاجة الاجتماعية المفترضة مسبقاً، خاصّة للبحث والعلوم والثقافة والفلسفة (من باب أولى)، وهي شيء آخر تماماً؟

نعم. لكن لا يكفي القول إنه «شيء آخر تماماً». ربّما يكون هذا الغموض الفنّي هو ما يغذّي الخطابات اللاذعة ضدّ الفلسفة؟

- أنت محقّ، لكنني لن أرتجل، هنا، تعريفاً للفلسفة. أقتصر، فقط، على الاهتمامات المباشرة المشتركة بيننا، وأودّ القول إن «الفلسفة»، اليوم، تسمّي شيئَيْن، على الأقلّ:

من ناحية، من الواضح وجود تقليد غني جدّاً من النصوص، وكنوز من الخطابات والحجاج والأسئلة (الانتقادات المسبقة، وما هو أكثر من الانتقادات ماعدا النقد، فقط)، والميتافيزيقا، والأنطولوجيات الإقليمية، والسياسة، ونظرية المعرفة بالمعنى الأوسع، إلى غير ذلك.. هذه العناصر من النظام، أو هذه الأدوات القويّة ليست أدوات وتقنيات، فحسب، على الرغم من أنها كذلك، ومن الضروري ضمان التقليد الذي لا غنى عنه. على هذا النحو، لا تندرج الفلسفة، بالفعل، ضمن العلوم الدقيقة أو العلوم الاجتماعية أو الإنسانية التي يعتقد وزير البحث أنه يتمكّن، عبرها، من الرؤية أو الندم على «التأخير» (سؤال ضخم أذكره بشكل عابر، لا أكثر). إن الطابع العلمي والهدف من هذه العلوم يُمثّلان، أيضاً، أسئلة للفلسفة. في الماضي، كان، أيضاً، لإفساح المجال لـ«العلوم الإنسانية» التي أردنا تقليل أو اختزال تدريسها الفلسفيّ.

كما أن الفلسفة ليست مجرَّد نشاط إنتاجي، بل يمكنني القول إن انتماءها ضمن ما يسمّى «الثقافة» ليس بديهيةً لا تأتي من الذّات. دون الثورة، أو ضدّها، الفلسفة شيء آخر غير العلم والتكنولوجيا والثقافة. وفي هذه الحقول الأخيرة، يمكننا المراهنة على أن طفرة لا تعلن عن نفسها لا تظهر على حدود الفلسفة. أفضّل القول: «على الحدود»، على جانبَي الحدّ الذي ينظر داخل الفلسفة، وخارجها.

من ناحية أخرى، أيضاً، يرتبط اسم الفلسفة، بشكل صحيح، بأيّ «فكر» لم يعد يُسمَح بتحديده، عن طريق الصّواب، من خلال البرامج التقنية العلمية أو الثقافية، التي تزعجهم، أحياناً، وتسائلهم، وتؤكّد.. نعم، تؤكّد خارجها، دون أن يعارضها ذلك الفكر، بالضرورة، أو يقيّدها في الوضع «النقدي». قيمة «النقد» ليست سوى واحدة من الاحتمالات الفلسفية، ولها تاريخها الخاصّ، وجينيالوجيتها الخاصّة.

ما يسمَّى، على سبيل المثال، «تفكيكاً» لا يقتصر على واحدة من تلك العمليات النقدية المزعومة التي ألهمت (فضائلها، وضرورتها التي لا جدال فيها) كلّ المنافحين عن الفلسفة، والفكر «النقديّ» أمام السّلطات الموجودة. ما يثير اهتمامي في هذا «التّفكيك»، على وجه الخصوص، ذلك الفكر الإيجابي، باعتباره ليس تقنياً علمياً ولا ثقافياً ولا فلسفياً حتى، فهو يحتفظ بألفة أساسية مع الفلسفيّ الذي يعمل به -بكلّ ما تحمله الكلمة من معانٍ- في خطابه، وكذلك في هياكله المؤسّسية، والتربوية، والسياسية، وغيرها. يمكن العثور على هذا «الفكر» في جميع التخصّصات: في العلوم، والفلسفة، في التاريخ، والأدب، والفنون، وبطريقة معيَّنة في الكتابة، وممارسة أو دراسة اللّغات دون الاستحواذ على الأداء التقني والاقتصادي. إذا كان كذلك، فهذا الفكر لا يحصى، ويمثّل الحدّ الأقصى للتكنوقراطية.

هذه الأسئلة الغريبة والهشّة، على ما يبدو، وهذه المسارات غير المعتادة التي يجب أن نمنحها الفرصة، ليست -بالضرورة- تكهّنات عقيمة. علاوةً على ذلك، لماذا لا ندعهم يخاطرون باللاإنتاجية؟ يجب أن تعلم العقول المهتمّة بالربحية القابلة للحساب أنه، من

خلال هذه التجوال الهامشي والعشوائي، يتمّ الإعلان عن الطفرات أحياناً، وهو المستقبل المحدّد للاكتشاف الذي يأتي مقدّماً للتصدّع بتوقيعه الماكينات الأكثر ثقلاً وضماناً للبرمجة. نعلم جيّداً، أن الأفكار غير المسموعة والاكتشافات العلمية السّاحقة، بدت، أحياناً، وكأنها ضربات غير متوقّعة أو رميات نرد، أو ضربات قوّة.

لكن، ألا يوجد في النصوص التحضيرية لندوة «شوفينمو» نفسها احتجاجاً على التكنوقراطية، حتى لو كان خجولاً جدّاً؟

- بالتأكيد. وهذا هو السبب في أنني لا أنتقد هذه الندوة أو أشجبها، بل -على العكس- أعرض عليها مساهمتي المتواضعة، كما ترون، حتى لو بدت متناقضة بعض الشيء. في هذه النصوص التحضيرية يضيع الاحتجاج على التكنوقراط وسط ترنيمة للإنسانوية الديموقراطية التقنية الأكثر تأكيداً في شرعيَّتها، وضرورتها، وتفاؤلها، وتقدّمها. حسناً، كلّما كان هذا الخطاب أقوى، بدا أنه لا يمكن دحضه، وكلّما احتجنا (هناك «حاجة»!) للتساؤل حول أسسه النهائية، وحدوده، وافتراضاته، وتاريخه القديم وتاريخه الجديد، فلن نكون قادرين على القيام بذلك إلّا من أماكن بعيدة أو من لا- أماكن، من خلال خطابات الأقلّيّة والتفاتاتهم، غير العاديّة، وغير المؤكّدة من حيث قبولها الفوري، وفقاً لاستجوابات لا تسمح لهذا البرنامج القويّ بالسيطرة عليها أو ترهيبها.

بالنسبة إليَّ، على الفلسفة أو «الفكر»، بالأحرى، هذا اللاّ-مكان المتنقّل الذي يستمرّ فيه المرء أو يبدأ مرّة أخرى، بشكل مختلف، دائماً، أن يسأل نفسه: ما الذي تنطوي عليه التقنية في وضعية العلوم الدقيقة، قبل كل شيء، وفي الإنتاجية خاصّة؟. لاتتمتّع هذه «الفلسفة» بموقع قابل للتخصيص في ندوة حول البحث والتكنولوجيا، وهذا ما يجب إدراكه. قد نطلق عليه تسمية العبور بين «الأعمال المتعدّدة لنظام فلسفي أو تاريخي أو اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي»، لكنه لا ينتمي إلى سلسلة مثل هذه البحوث.

إذاً، هل بنية الجامعة والتعليم العالي هو ما يحتاج إلى المساءلة؟

- يجب أن تكون هناك مهمّة، متناقضة على ما يبدو، لكنها حيوية، تتمثّل في إنشاء مؤسّسات تترك فضاء ومتنفّساً لما ليس له وجه محدّد بعد. أنا لا أشير، فقط، إلى الفلسفة بالشكل الذي ندركه فيها كنظرية للعلم أو نظرية للمعرفة، كنظام يتعامل مع أسس العلم أو التقنية أو السياسة أو الإتيقا. هذه هي الفلسفة، بالطبع، لكن «فكراً» معيّناً، فلسفياً، على العكس من ذلك، يمكن أن يشكّك، أيضاً، في جينيالوجيّته وفي افتراضاته المسبقة عن الأصولية ذاتها، وحتى التسلسل الهرمي الأنطولوجي الموسوعي (الأنطولوجيا العامّة أو الأساسية، والأنطولوجيات الإقليمية والمعارف والإيجابيات، وما إلى ذلك)، وهو طلب أساسي.

لقد بنى هذا التسلسل الهرمي نموذج الجامعة الذي ما زلنا نعيشه منذ بداية القرن التاسع عشر، فدعونا لا ننسى ذلك. اليوم، هذا النموذج، في حدّ ذاته، ضعيف للغاية، وأعتقد أنه لا رجوع فيه. كلّ الجمعيات؛ الشرقية منها والغربية، تتركه أو تقتله لصالح مؤسّسات بحثية أكثر «كفاءةً» (من وجهة نظر التكنولوجيا العلمية، والصناعية، والعسكرية دائماً)، والتي تعتمد، بشكل أكبر، على التعليم، وتنقطع عن أيّ تعليم. سيكون من الضروري التوقّف، بإسهاب، عند هذا التطوّر، وطبعاً لا يمكننا القيام بذلك هنا. باختصار، ستكون المفارقة كما يأتي: وفقاً للنموذج الذي يمكن تسميته «حديثاً»، منذ بداية القرن التاسع عشر الأوروبي، وقبل كلّ شيء النموذج الألماني، تمثّل هذه الجامعة، بشكل غير مباشر، عقلانية دولية قديمة مدانة، لكنها يمكن أن تصبح، بفضول، حتى في شيخوختها، نوعاً من ملاذ لليبرالية؛ بمعنى أنه يمكن للمرء، أيضاً، التحدّث عن «الفنون الليبرالية»، وقد يكون حلاًّ احتياطيّاً وطارئاً للفكر الذي لا يزال يرغب في الهروب من التخطيط المقيّد الذي تحدَّثنا عنه حالياً، والذي يكتسب جميع أماكن البحث (ما أطلق عليه، في زمن «كانط»، نزاع الكلّيّات والأكاديميات والجمعيات العالمة مع القليلة والهامشية).

لا أعتقد أنه يتعيَّن علينا أخذ أحد الخيارَيْن. وعلى الرغم من أنهما قد يبدوان متناقضَيْن، هما ينضمّان معاً إلى النظام نفسه. لا! سيكون من الضروري إعادة بناء جميع العلاقات (بل، أحياناً، قطع جميع العلاقات) بين الدولة من أعلى إلى أسفل، وفي شكلها المؤسّسي، أوّلاً (المعرفة والتكنولوجيا والثقافة والفلسفة والفكر). ربّما يحدث ذلك، حتى لو لم يكن واضحاً جدّاً. ولكن، للحديث عن ذلك، يجب أن نتذكّر، على الأقلّ، التاريخ الكامل لهذه الإشكالية، بجدّيّة، وأن نعيد قراءة صراع الكلّيّات من بين أشياء أخرى، وإعادة كتابته بشكل مختلف، تماماً، اليوم. وإن إعادة كتابته بشكل مختلف تماماً أفضل وأسوأ ممّا عند «كانط» و«شلايرماخر» و«هيجل» و«هومبولدت» و«فيخته» و«شيلينغ»، و«كوزان» و«هيدجر»، وعدد قليل من الأشخاص الآخرين ممّن ورثوا هذه الموضوعات. لا يزال أمامنا المزيد من الزمن، والوسائل.

هوامش:

1 - Libération, 21-22 novembre 1981.

2 -أليس سونيي سييتي (1925 - 2003): سياسية فرنسية، تقلّدت منصب سكرتير الدولة بين (1976) و(1978)، ثم وزيرة الجامعات حتى مايو/أيار (1981). (المترجم)

المصدر:

Libération, 21-22 novembre 1981.

هل هناك لغة فلسفية؟[1]

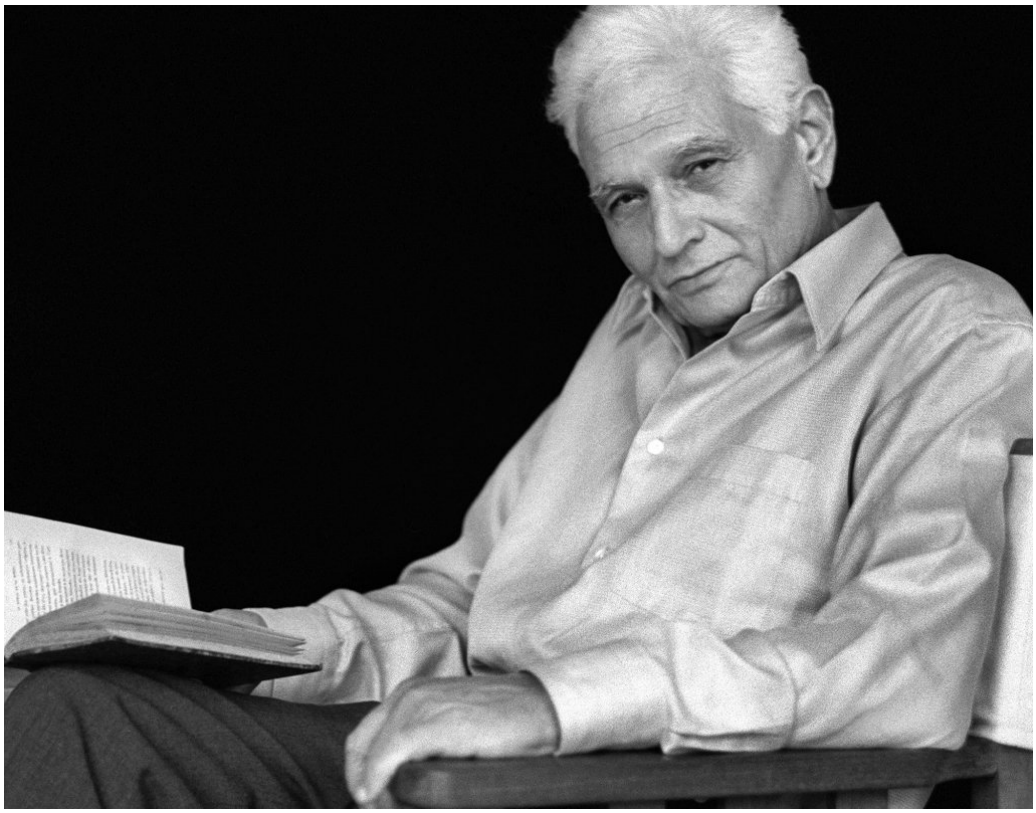
جاك دريدا: لا أعتقد أن هناك «كتابة فلسفية خاصّة»، كتابة فلسفية واحدة، حيث نقاؤها، دائماً، في نفسها، وتكون محميّة من كلّ أنواع التلوُّث. لهذا السبب الهائل، وقبل كلّ شيء، يتمّ التحدُّث بالفلسفة، وكتابتها بلغة طبيعية، لا بلغة عالمية يمكن إضفاء الطابع الرسمي عليها تماماً. بعد قولي هذا، وضمن هذه اللّغة الطبيعية، وفي استعمالاتها، فرضت أنماط معيَّنة نفسها، بقوّة (وهناك توازن قوى هنا)، باعتبارها فلسفية. هذه الأنماط متعدّدة ومتضاربة، ولا يمكن فصلها عن المحتوى نفسه وعن «الأطروحات» الفلسفية. النقاش الفلسفي هو، أيضاً، صراع لفرض صيغ خطابية وإجراءات توضيحية وتقنيات بلاغية وتربوية. في كلّ مرّة عارضنا فيها فلسفة ما، لم يكن ذلك من خلال الطّعن، فحسب، في الطابع الفلسفي الأصيل والصحيح لخطاب الآخر.

لقد اقترحتم، مراراً وتكراراً، أن النصّ الفلسفي يجب أن يؤخذ على هذا النحو، قبل أن يتمّ تجاوزه نحو الفكر الذي يحمله، و -من ثَمَّ- دفعتم إلى قراءة النصوص الفلسفية بعدسة قراءة النصوص نفسها، التي تُعدّ «أدبية» عموماً، وإلى تناوُل الأخيرة في الإشكاليات الفلسفية. هل هناك كتابة فلسفية محدّدة؟، وكيف تختلف عن غيرها من أشكال الكتابة؟ ألا يصرفنا الاهتمام بالأدبية عن الوظيفة البرهانية للخطاب الفلسفي؟ ألا يخاطر هذا بمحو خصوصية الأنواع، وإخضاع جميع النصوص للإجراء ذاته؟

- جاك دريدا: كلّ نصّ يختلف عن النصّ الآخر. يجب ألّا نحاول إخضاع النصوص لـ« الإجراء ذاته» دائماً. لاينبغي أن نقرأها، أبداً، «بالعين نفسها». كلّ نصّ يدعو -إذا جاز التعبير- «عيناً» أخرى. من المسلَّم به أنه يستجيب، أيضاً، وإلى حَدٍّ ما، لتوقّع مشفَّر ومحدَّد، إلى عين وأذن تسبقهما، وتمليهما بطريقة ما، أو توجّههما. ولكن، بالنسبة إلى بعض النصوص النادرة، تميل الكتابة، أيضاً (كما يمكن للمرء)، إلى رسم بنية وفيزيولوجيا للعين التي لم توجد بعد، ويقصد بها حدث النصّ، والتي تبتكر، أحياناً، وجهتها، بقدر ما تستقرّ عليه. ما هو النصّ الموجّه؟ وإلى أيّ مدى يمكن تحديد ذلك؟، وهل يتمّ من جانب «المؤلّف» أم من جانب «القرّاء»؟ لماذا تظلّ «لعبة» معيَّنة غير قابلة للاختزال، أو لا غنى عنها، في هذا التحديد ذاته؟ هناك، أيضاً، أسئلة تاريخية، واجتماعية، ومؤسّسية، وسياسية.

للالتزام بالأنواع التي ذكرتها، لم أستوعب، أبداً، ما يسمَّى بالنصّ الفلسفي، وما يسمَّى بالنصّ الأدبي. يبدو أن الاختلاف بينهما غير قابل للاختزال بالنسبة إليّ، فلا تزال معرفة الحدود بين هذَيْن النوعَيْن أكثر تعقيداً (على سبيل المثال، لا أعتقد أنهما نوعان، كما تقترح)، وقبل كلّ شيء أقلّ طبيعيّةً، أو غير تاريخية، أو معطاة ممّا نقول أو نعتقد. يمكن أن يتشابك النوعان في المدوّنة نفسها وفقاً للقوانين والأشكال التي لا تكون دراستها مثيرة للاهتمام، وجديدة، فحسب، بل ضرورية إذا كان المرء لا يزال يريد الإشارة إلى هويّة شيء ما على أنه «خطاب فلسفي» يعي ما نتحدَّث عنه. ألا يجب أن نهتمّ بالاتِّفاقات والمؤسَّسات والتأويلات التي تنتج أو تحافظ على جهاز القيود والتحديدات، مع كلّ المعايير، و-من ثَمَّ- كلّ الاستثناءات التي تسبِّبها؟ لا يمكن للمرء أن يتعامل مع هذه المجموعة من الأسئلة دون أن يسأل نفسه، من وقت إلى آخر: «ما هي الفلسفة؟» و«ما هو الأدب؟».

هذه الأسئلة صعبة وأكثر انفتاحاً من أيّ وقت مضى، فهي، في حَدّ ذاتها، بحكم تعريفها، وإذا تمَّت متابعتها بفاعليّة، على الأقلّ، ليست أسئلة فلسفية وأدبية، فحسب. سأقول الشيء نفسه في الحالة الأخيرة، بالنسبة إلى النصوص التي أكتبها، على الأقلّ، بقدر ما يتمّ العمل عليها أو يمليها اضطراب هذه الأسئلة، وهذا لا يعني تخلّيهم عن الحاجة إلى التظاهر (آمل ذلك على الأقلّ) بأكبر قدر ممكن من الدقّة، حتى لو لم تعد قواعد البرهان موجودة، باستمرار، كما لم تعد موجودة قبل كلّ شيء، كما هو الحال في ما تسمّيه «الخطاب الفلسفي». حتى داخلها، كما تعلمون، أنظمة البرهنة إشكالية ومتعدِّدة ومتحرِّكة. هم أنفسهم يشكّلون الموضوع الثابت لتاريخ الفلسفة بأكمله. يندمج الجدل الذي نشأ حول موضوعهم مع الفلسفة نفسها. هل



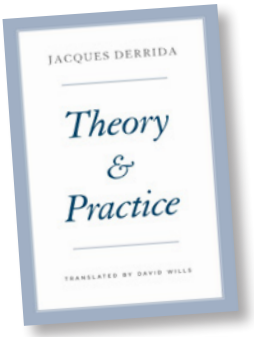
تعتقد، بالنسبة إلى «أفلاطون» أو «أرسطو» أو «ديكارت» أو «هيجل» أو «ماركس» أو «نيتشه» أو «برغسون» أو «هايدغر» أو «ميرلوبونتي»، أنه يجب أن تكون قواعد البرهان هي نفسها، والحديث قياس في اللّغة والمنطق والبلاغة؟

ليس اختزال «الخطاب الفلسفي» في الأدب، من أجل تحليله في شكله وأنماط تكوينه وبلاغته واستعاراته ولغته وتخييلاته وكلّ ما يقاوم الترجمة،... إلى غير ذلك. إنها مهمّة لا تزال فلسفية إلى حدّ كبير، حتى إن لم تظلّ فلسفية من خلال دراسة هذه «الأشكال»، وعبرها التي هي أكثر من أشكال، بالإضافة إلى الطرائق التي تؤوِّل الشِّعر والأدب وفقاً لها، وإسناد الأخيرة لوضع اجتماعي وآخر سياسي،وسعياً لاستبعادهم من جسدها الخالص، ادَّعت المؤسَّسة الأكاديمية للفلسفة استقلاليتها الخاصّة، ومارست الإنكار فيما يتعلَّق بلغتها الخاصّة، لما تسمّيه الأدبية والكتابة، بشكل عامّ، سوء فهم معايير خطابه الخالص، والعلاقة بين الكلام والكتابة، وإجراءات تقنين النصوص الرئيسية أو النموذجية.. وغير ذلك. أولئك الذين يحتجّون على كلّ هذه الأسئلة يزعمون حماية سلطة مؤسّسية للفلسفة، لأنها وصلت إلى طريق مسدود في لحظة معيَّنة.

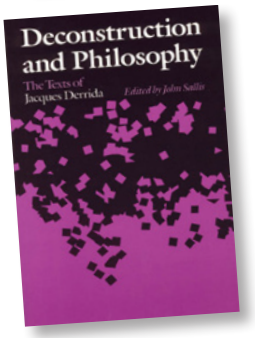
من خلال حماية أنفسهم ضدّ هذه الأسئلة، وضدّ التحوّلات التي يدعون إليها أو يفترضونها مسبقاً، هم يمارسون حماية المؤسَّسة، أيضاً، ضدّ الفلسفة. من وجهة النظر هذه، بدت لي دراسة بعض الخطابات، مثل خطابات «نيتشه» أو «فاليري»، على سبيل المثال، أمراً مثيراً للاهتمام، وهي تميل إلى اعتبار الفلسفة نوعاً من الأدب. لكنني لم أشترك فيه مطلقاً. أولئك الذين يوجِّهون لي تهمة اختزال الفلسفة في الأدب أو المنطق في البلاغة (انظر، على سبيل المثال، في كتاب هابرماس الأخير «الخطاب الفلسفي للحداثة»، بترجمته الفرنسية عن (غاليمار)، (1988)، فقد تجنَّبوا قراءتي بشكل واضح وحذر.

بالمقابل، لا أعتقد أن الأسلوب «البرهاني» أو حتى الفلسفة، بشكل عامّ، غريبان عن الأدب. مثلما توجد أبعاد «أدبية» و«تخييلية» في كلّ خطاب فلسفي (و«سياسي» للُّغة، بأكملها، فإن السياسة العامّة تكون محميّة هناك)، لذلك هناك فلسفات تعمل في أيّ نصّ يُعرَّف بأنه «أدبي»، و -بالفعل- في المفهوم الحديث كلِّيّاً، لـ«الأدب».

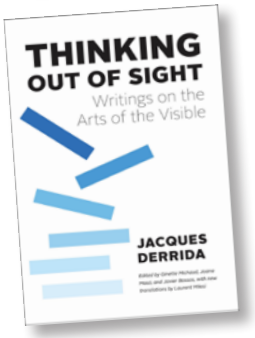
هذا التفسير بين «الفلسفة» و«الأدب» ليس مجرَّد مشكلة معقّدة، أحاول شرحها على هذا النحو، بل هو ما يتَّخذ، في نصوصي، شكل











كتابة تحاول؛ كي لا تكون أدبية، ولا فلسفية بحتة، ألّا تضحّي بالبرهنة، وبالتمظهر، وبالأطروحات، وبالتخييلية أو بشاعرية اللّغة.

باختصار، للإجابة عن الرسالة ذاتها التي وردت في سؤالك، لا أعتقد أن هناك «كتابة فلسفية خاصّة»، كتابة فلسفية واحدة، حيث نقاؤها، دائماً، في نفسها، وتكون محميّة من كلّ أنواع التلوُّث. لهذا السبب الهائل، وقبل كلّ شيء، يتمّ التحدُّث بالفلسفة، وكتابتها بلغة طبيعية، لا بلغة عالمية يمكن إضفاء الطابع الرسمي عليها تماماً. بعد قولي هذا، وضمن هذه اللّغة الطبيعية، وفي استعمالاتها، فرضت أنماط معيَّنة نفسها، بقوّة (وهناك توازن قوى هنا)، باعتبارها فلسفية. هذه الأنماط متعدّدة ومتضاربة، ولا يمكن فصلها عن المحتوى نفسه وعن «الأطروحات» الفلسفية. النقاش الفلسفي هو، أيضاً، صراع لفرض صيغ خطابية وإجراءات توضيحية وتقنيات بلاغية وتربوية. في كلّ مرّة عارضنا فيها فلسفة ما، لم يكن ذلك من خلال الطّعن، فحسب، في الطابع الفلسفي الأصيل والصحيح لخطاب الآخر.

يبدو أن أعمالكم الأخيرة تتميَّز باهتمام متزايد بمسألة التوقيع، واسم العلم. ما وزن هذا السؤال في مجال الفلسفة، ما دمنا نعتبر الإشكالات غير شخصية، وأسماء العلم، بالنسبة إلى الفلسفة، هي رموز هذه الإشكالات؟

- منذ البداية، كان على مشكلة جديدة تتعلَّق بالكتابة أو الأثر، أن تتواصل، بطريقة ضيّقة وضرورية للغاية، مع مشكلة اسم العلم (إنه، بالفعل، موضوعي ومحوري في الغراماتولوجيا) والتوقيع (خاصّة في هوامش الفلسفة). هذا أكثر أهمّيّةً لأن هذه الإشكالية الجديدة للأثر تنطوي على تفكيك بعض الخطابات الميتافيزيقية حول الذات المكوّنة بكلّ السمات التي تميّزها تقليدياً: الهويّة الذاتية والوعي والنيّة والحضور أو القرب من الذات والاستقلالية الذاتية والعلاقة بالموضوع؛ لذلك كان الأمر يتعلَّق بإعادة وضع أو إعادة كتابة الوظيفة المزعومة للذات، أو - إن شئت- بإعادة صياغة فكر للذات لا يكون دوغمائياً أو تجريبياً، ولا نقدياً (بالمعنى الكانطي) أو فينومينولوجيّاً (بالمعنى الديكارتي-الهوسرلي)، لكن مع الأخذ في الاعتبار، في الوقت نفسه، الأسئلة التي يطرحها «هايدغر» على ميتافيزيقا الذات (subjectum) كدعم للتمثُّلات وما إلى ذلك، وبدا لي أن التفاتة «هايدغر» هذه تتطلَّب أسئلة جديدة.

وعلى الرغم من التعقيدات التي حاولت أخذها بالحسبان، غالباً ما يعيد «هايدغر» إنتاج (على سبيل المثال، في حديثه عن «نيتشه») الالتفاتة الكلاسيكية والأكاديمية التي تتمثَّل في فصل القراءة «الداخلية» للنصّ أو «الفكر»، وحتى القراءة المحايثة للنسق، من ناحية، وعن «السيرة الذاتية» التي تظلّ في الأساس ملحقة وخارجية، من ناحية أخرى. هذه هي الطريقة المتَّبعة في الجامعة، بشكل عامّ، إلى جانب نوع من السّرد الكلاسيكي، لـ«المتخيَّل»، أحياناً، لـ«حياة الفلاسفة العظماء»، بقراءة فلسفية منهجية، أو حتى بنيوية، التي ننظّمها إمّا حول حدس فريد ولامع (نموذج مشترك بين برغسون وهايدغر)، أو حول «تطوّر»، على مرحلتَيْن أو ثلاث مراحل من الزّمن.

حاولت تحليل الافتراضات المسبقة لهذه المبادرة، وبدء التحليلات حول الحدود والتخوم والأطر والتهميشات من جميع الأنواع التي أُذن لها، عموماً، بهذه الانفصالات. يبدو لي أن الأسئلة المتعلِّقة بالتوقيع، واسم العلم تساعد على إعادة التفصيل. التوقيع، بشكل عامّ، ليس داخلياً، ببساطة، بالنسبة إلى جوهر النصّ الموقَّع (المدوّنة الفلسفية، على سبيل المثال)، ولا خارجياً ببساطة؛ أي قابلاً للفصل، ففي كلّ من هاتَيْن الفرضيَّتَيْن، ستختفي بوصفها توقيعاً. إذا كان توقيعك لا ينتمي، بطريقة معيَّنة، إلى المساحة نفسها التي وقّعت عليها، والتي تَمَّ تحديدها بوساطة نظام رمزي من الاصطلاحات (الرّسالة أو البطاقة البريدية أو الصّك أو أي شهادة أخرى)، فليس له قيمة التزام. من ناحية أخرى، إذا كان توقيعك محايثاً في النصّ المُوقَّع، ومسجّلاً فيه كأحد أجزائه، فلن يكون له القوّة التنفيذية للتوقيع. في كلتا الحالتَيْن (خارجياً أو داخلياً)، يمكنك الإشارة إلى اسمك أو ذكره ببساطة، وهو ليس توقيعاً. التوقيع ليس بالداخلي ولا بالخارجي، بل يقع على حدّ، يحدّده نظام وتاريخ من الاتّفاقات؛ ما أزال أستفيد، بسرعة، من هذه الكلمات الثلاث: النظام، والتاريخ، والاتّفاق، لكن لا يمكن لأحد أن يعتمدها دون سؤال عن الإشكالية التي أتحدّث عنها.

لذلك، كان الاهتمام بهذه المشاكل ضرورياً: «الاتفاق» و«التاريخ» للطوبولوجيا والحدود والتأطير، بالإضافة إلى المسؤولية والقوّة الأدائية أيضاً. كان من الضروري، أيضاً، إخراجهم من المعارضات أو البدائل التي تحدّثت عنها للتوّ. كيف يعمل التوقيع؟ الأمر معقَّد ومختلف دائماً، على وجه التحديد، من توقيع إلى آخر ومن لغة إلى أخرى، لكنه كان الشرط الذي لا غنى عنه لإعداد وصول صارم إلى العلاقة بين النصّ و«مؤلّفه»، النصّ وظروف إنتاجه سواء أكانت سير نفسية كما قلنا، أو سير سوسيو- تاريخية-سياسية. هذا ينطبق، بشكل عامّ، على أيّ نصّ وأي «مؤلّف»، لكنه يتطلَّب، بعد ذلك، عدداً من المواصفات اعتماداً على أنواع النصّ التي يتمّ النظر فيها. لا تمرّ الفروق بين النصوص الفلسفية والنصوص الأدبية، فحسب، بل تمرّ، أيضاً، ضمن هذه الأنواع، وفي حدود (حدود المصطلح) بين جميع النصوص، التي يمكن أن تكون قانونية، وسياسية، وعلمية، أيضاً، (ومختلفة في «مناطق» مختلفة،... وما إلى ذلك). في رسم هذا التحليل، على سبيل المثال، من جانب «هيجل»

أو «نيتشه»، من «جينيه» و«بلانشو»، من «أرتو» و«بونج»، اقترحت عدداً معيّناً من البديهيات العامّة، بينما أحاول مراعاة الاصطلاح، أو الرغبة في التعبير الاصطلاحي في كلّ حالة. أذكر هذه الأمثلة، هنا، لأن العمل المتعلّق بالتوقيع يمرّ، أيضاً، من خلال اسم العلم بالمعنى العادي؛ أعني الاسم العائلي (اسم الأسرة) بالشكل الذي نقلته، للتوّ. لكن، من غير أن أتمكّن من إعادة تشكيل هذا العمل، هنا، أودّ توضيح بعض النقاط، وذكر بعض الاحتياطات:

أ/ حتى عندما تتعرَّض دلالة اسم العلم، في شكله العامّ والقانوني، في هذا التحليل، للتوقيع، لا يمكن اختزال الأخير فيه. لم يتألَّف من مجرَّد كتابة اسمه العلم؛ وهذا هو السبب في أن الإشارات إلى الدالّ على اسم العلم، في نصوصي، حتى لو بدا أنها تشغل مقدّمة المشهد، تظلّ أوّلية وذات أهمّيّة محدودة، أساساً: في كثير من الأحيان، أضع علامة على عدم ثقتي فيما يتعلّق بالألعاب السهلة أو المسيئة أو المتوافقة، التي قد يؤدّي إليها ذلك.

ب/ لا يتمّ الخلط، بالضرورة، بين «اسم العلم» وبين ما نطلق عليه، عادةً، اسم الأب أو العائلة الرسمي، والمسجَّل في الحالة المدنية، على هذا النحو. إذا أطلقنا على «اسم العلم» مجموعة مفردة من العلامات والسِّمات والتّسميات، التي يمكن لشخص ما أن يحدّدها بنفسه أو يطلقها على نفسه، أو دون أن يختارها أو يحدّدها بنفسه تماماً، فإنك ترى الصعوبة في ذلك. ليس من المؤكَّد، أبداً، أن تأتي هذه المجموعة معاً، وأن هناك واحدة، فقط، لا تبقى سرِّية بالنسبة إلى البعض، وحتى بالنسبة إلى «وعي» حامليها؛ ما يفتح مجالاً هائلاً للتحليل.

ج/ لذلك يبقى أحد الاحتمالات مفتوحاً: أن اسم العلم غير موجود في نقاء تامّ، وأن التوقيع يظلّ مستحيلاً، تماماً، في نهاية المطاف، إذا كان أحدهم، على الأقلّ، لا يزال يفترض أن اسم العلم يجب أن يكون مناسباً تماماً، وتوقيعاً مستقلّاً تماماً (حرّاً)، واصطلاحياً بحتاً. إذاً، ولأسباب أحاول تحليلها، لم يكن هناك تعبير اصطلاحي خالص، أبداً، وعلى أيّ حال لا يوجد تعبير اصطلاحي يمكنني أن أعطيه لنفسي أو أبتكره في نقائه، ثم يترتَّب على ذلك أنَّ مفهومَيّ التوقيع واسم العلم -دون أن يتمّ تدميرهما- يجب إعادة صياغتهما. يبدو لي أن إعادة الصياغة يمكن أن تؤدّي إلى ظهور قواعد جديدة، لإجراءات قراءة جديدة، خاصّة فيما يتعلّق بعلاقات «المؤلِّف» الفيلسوف مع نصّه، ومع المجتمع، ومع مؤسّسات التدريس والنشر، ومع التقاليد والموروثات، لكنني لست متأكّداً من أن هذا يمكن أن يؤدّي إلى ظهور نظرية عامّة للتوقيع واسم العلم، على النموذج الكلاسيكي للنظرية أو الفلسفة (ميتا-لغة قابلة للتشكيل والملاحظة والموضوعية)؛ لأنه -للأسباب ذاتها- التي ذكرتها للتوّ، يجب توقيع هذا الخطاب الجديد حول التوقيع واسم العلم مرّة أخرى، وأن يتضمَّن في حدِّ ذاته علامة للعملية الأدائية التي لا يمكن للمرء أن يزيلها بالكامل وبكلّ بساطة؛ هذا لا يؤدّي إلى النسبية بل يطبع انحناءً آخر للخطاب النظري.

لقد سجّلت أعمالكم تحت مسمّى «التفكيك» معارضة لموضوع التقويض الهايدغري صراحةً. من «الانسحاب» إلى «الخطوة»، ومن «البطاقة البريدية» إلى «الإرسال»، ومن «الهوامش» إلى «الحوافّ»، ينسج التفكيك شبكة متزايدة الضيق من الأسماء التي ليست مفاهيمَ ولا استعارات، ولكنها تبدو معالم أو إشارات. هل النشاط التفكيكي مماثل لنشاط مسّاح الأراضي أو المهندس المسّاح؟ هل هذا «التخصيص» للعلاقة بالتقاليد لا يعزّز فكرة «إغلاق» هذا التقليد، على حساب تصوّر أكثر تمايزاً لتعدّد البنوة؟

- نعم، لطالما تميَّزت العلاقة بين «التفكيك» و«التقويض» الهايدغري، لأكثر من عشرين عاماً، بالأسئلة والإزاحات وحتى بالنقد كما نقول أحياناً، وقد تذكّرت هذا كما جاء في إحدى المرَّات في افتتاحية كتابي في الرّوح (جاليلي، 1987)، ولكنه كان كذلك بالفعل منذ الغراماتولوجيا سنة 1967.

تظلّ أفكار «هايدغر»، بالنسبة إليّ، واحدة من أكثر الأفكار صرامةً واستفزازاً وضروريّةً في هذا الزمن. سأسمح لنفسي أن أتذكَّر هذين الأمرَيْن لأقول كم هي صادمة ومثيرة للسخرية كلّ تلك التصنيفات التي أجدها مبسّطة، التجانسات السّريعة التي انخرط فيها البعض خلال الأشهر القليلة الماضية (أنا لا أتحدّث، فقط، عن الصحف). تهدّد هذه الإساءات والفظاظة بالظلامية نفسها، وهذا التهديد أخلاقي كما هو سياسي، ناهيك عن الفلسفة نفسها.

لتوظيف كلماتك، إذا تمّ اختزال «الشبكة» التي تستحضرها، ليس في نسيج من المفاهيم أو في نسيج من الاستعارات، فأنا لا أعرف ما إن كانت تتكوّن، فقط، من «نقاط مرجعية» أو «إرشادات». كنت سأغريك بسؤالي عمّا تعنيه بذلك. يبدو أن الجملة الآتية، في سؤالك، تشير إلى أنك تفضِّل، بهذه الكلمات، العلاقة بالفضاء، وفي الفضاء، بتجربة «مسّاح الأراضي» أو «خبير العقار». لكنك تعلم جيّداً أن الخبير بعلم الهندسة لم يعد «مسّاحاً» (أصل الهندسة، بقلم هوسرل، الترجمة والمقدِّمة، PUF 1962)، وأن تجارب عدّة للفضاء، كانت موجودة هناك.

لكن، أودّ العودة - أوّلاً- إلى سؤال المفهوم والاستعارة الذي أشرت إليه للتوّ. أذكر توضيحين: لم أحصر المفهوم أبداً في الاستعارة أو المنطق بالبلاغة كما اتَّهمني به «هابرماس»، مؤخَّراً (أكثر في الفلسفة منه إلى الأدب، كما قلنا سابقاً). هذا مذكور، بوضوح، في عدد من المواضع، ولا سيَّما في «الميتولوجيا البيضاء» (هوامش، مينوي، 1972)؛ حيث أقترح «منطقاً» مختلفاً، تماماً، للعلاقة بين المفهوم والاستعارة. يجب أن أقنع نفسي بالإشارة إليه هنا. مهما كان انتباهي للأسئلة،



وتجربة الفضاء -سواء أكان أصلَ الهندسة أو الكتابة أو التشكيل أو الرسم (الحقيقة في الرسم، فلاماريون، 1978)- فلا أعتقد أن «التماسف أو التنائي» يعني أن أتحدَّث عن مجرَّد «مكاني» أو «فضائي». إنه -بلا شك- يجعل من الممكن إعادة الاعتبار، إذا جاز التعبير، للمكانية التي أخضعتها بعض التقاليد الفلسفية، وجعلتها ثانوية، بل تجاهلتها. ولكن، من ناحية أخرى، إن «التنائي» يشير، أيضاً، إلى أن يصبح فضاء الزمن نفسه؛ يتدخَّل مع إرجاء في حركة تأجيل زمني (temporalisation)؛ قد يقول المرء إن التنائي هو الزمن أيضاً. من ناحية أخرى، لا يمكن اختزاله كفترة تفاضلية غير قابلة للبتّ بها، فإنه يكسر الحضور والهويّة الذاتية لكلّ الحضور، مع كلّ العواقب التي يمكن أن تترتّب على ذلك. يمكن متابعتهم في كثير من المجالات المختلفة.

أعترف، الآن، بأنني لا أرى جيّداً كيف لهذه الحركة، والتي ليست «تحييزاً» (spatialisation)، بالتأكيد، أن تشير إلى «إغلاق» «التقليد». يشير التباعد التفاضلي، على العكس من ذلك، إلى استحالة أيّ إغلاق. أما بالنسبة إلى «تعدّدية البنوة»، والحاجة إلى «تصوُّر أكثر تمايزاً»، فسيظلّ هذا «موضوعي»، دائماً، بطريقة ما، لا سيَّما تحت اسم التشظّي والتناثر. إذا أخذنا عبارة «تعدّد النسل» في رسالته العائلية، فإنها تكاد تكون «الموضوع» حتى في «التشظّي»، و«صيدلية أفلاطون»، وخاصّة في «نواقيس»، و«البطاقة البريدية». إذا أخذنا الأشياء عن قرب أو عن بعد (أحاول فهم الدافع الخفي لسؤالك)، فقد ميّزت دائماً «إغلاق» النهاية (الغراماتولوجيا)، وغالباً ما ذكرت أن التقليد لم يكن متجانساً (من هنا، يتولّد اهتمامي بجميع النصوص غير الشّرعية التي تزعزع استقرار التمثيل الذي قدّمه تقليد مهيمن عن نفسه). لقد قلت، في كثير من الأحيان، إلى أيّ مدى تبدو لي إشكالية فكرة الميتافيزيقا والمخطَّط الهايدغري لأهمِّيّة «ايبوخيه» الكينونة، أو الوحدة الموحّدة لتاريخ الوجود، حتى لو كان من الضروري أخذ هذا «التأويل الذاتي» بعين الاعتبار في مطالبته أو رغبته أو حدّه أو فشله. أضع «الذاتية» بين علامتَيْ تنصيص، لأنها دائماً عن هذه الهويّة، وقبل كلّ شيء هي هذه الهويّة الذاتية، تلك القوّة المتناسلة من الانعكاسية الشفّافة أو الشاملة أو الكلِّيّة التي أصبحت موضع تساؤل هنا.

تركّز أبحاثكم الأخيرة على «القومية الفلسفية». كيف تبدو لكم اللّغة وهي تشكِّل هويّة ما؟ هل توجد فلسفة فرنسية؟

- من الواضح أن الأمر كلّه يعتمد على ما نعنيه باللّغة، وأيضاً -اعذرني- بـ«الهويّة» وبـ«التكوين». إذا كنتم، كما أعتقد، تفهمون الهويّة التي تعني هويّة «القومية الفلسفية» أو -على نطاق أوسع لتقليد فلسفي- فبوسعي أن أقول إن اللّغة، بالطبع، تلعب دوراً مهمّاً، للغاية، فيها.

تجد الفلسفة عنصرها فيما يسمّى باللّغة الطبيعية. لم تكن قادرة، أبداً، على صياغة نفسها، بالكامل، بلغة اصطناعية، على الرغم من بعض المحاولات الرائعة في تاريخ الفلسفة. ومن الصّواب، أيضاً، أن هذه التشكيلة هي في العمل دائماً، وإلى حدّ ما (وفقاً للقوانين الاصطناعية التي تشكّلت في سياق التاريخ).

هذا يجعل اللّغة أو اللُّغات الفلسفية قابلة للتحديد، إلى حدّ ما، ومتماسكة في اللُّغات أو -بالأحرى- استخدامات اللُّغات الطبيعية. ويمكن للمرء أن يجد تكافؤاً وترجمات ثابتة بين هذه المجموعات الفرعية من لغة طبيعية إلى أخرى. وهكذا، يمكن للفلاسفة الألمان والفرنسيين الرجوع إلى اتّفاقات قديمة ومستقرّة إلى حدّ ما، لترجمة استخداماتهم الخاصّة لكلمات معيَّنة ذات محتوى فلسفي عظيم، لكنكم تعلمون جميعاً المشكلات التي تثيرها، ولا يمكن تمييزها عن النقاش الفلسفي نفسه.

من ناحية أخرى، إذا لم نفكّر ببساطة خارج كلّ اللُّغات، وكلّ الألسنة (وهو اقتراح يجب أن يكون مصحوباً باحتياطات عديدة مع ذلك؛ وهو ما لا يمكنني القيام به هنا)، فلن تتشكّل الهويّة، بالطبع، والهويّة الوطنية قبل كلّ شيء، في الفلسفة، خارج عنصر اللّغة.

بعد قولي هذا، لا أعتقد أنه يمكن للمرء إنشاء تطابق بسيط بين التقليد الفلسفي الوطني واللّغة، بالمعنى العادي لهذا المصطلح. إن ما يسمّى بالتقاليد «القارية» والأنجلوسكسونية (أو الفلسفة التحليلية)، لاستخدام تسميات ضخمة وفجّة، يتمّ تقاسمها بالتساوي، وبشكل غير متساوٍ إطلاقاً، مع الإنجليزية، والألمانية، والإيطالية، والإسبانية، وغيرها. إن «اللّغة» (أعني الشيفرة الفرعية) للفلسفة التحليلية، أو لهذا التقليد أو ذاك (الأنجلو أميركية: أوستن؛ أوسترالو-أنجلو-أميركية: فيتجنشتاين) منخرطة في علاقة تحديد مفرط فيما يتعلّق باللّغة. تسمّى القومية نفسها، ويتحدَّث بها مواطنو دول مختلفة (إنجليزية الأميركيين، وفرانكوفونية غير الفرنسيين). وهذا يفسِّر لماذا يتطوَّر، أحياناً، خارج ما يسمّى باللّغة الأصلية (للنصّ الأصلي)، تقليد القراءة الذي يظلّ من الصعب إعادة استيعابه من قبَل الأشخاص الذين يتحدّثون أو يعتقدون أنهم يتحدَّثون هذه اللّغة الأصلية. هذا صحيح من نواحٍ مختلفة جدّاً، بالنسبة إلى «فتجنشتاين» و«هايدغر». تواجه «قراءات» أو «استقبالات» «هايدغر» مقاومة كبيرة في ألمانيا (مثل هايدغر ذاته، ولأسباب ليست سياسية، فقط). أمّا بالنسبة إلى المتخصّصين الفرنسيين حول «فتجنشتاين»، فلا الناطقون بالألمانية ولا الناطقون بالإنجليزية مهتمّون بها كثيراً، دون أن يكون من الممكن القول إنهم يقاومونها.

إذاً، هل هناك فلسفة فرنسية؟ لا. وهذا أقلّ من أيّة فترة مضت، إذا أخذنا في الاعتبار عدم التجانسية، والصراعية أيضاً، وهو ما يميِّز كلّ ما يسمّى بالمظاهر الفلسفية: المنشورات، والتعاليم، والأشكال والمعايير الخطابية، والرّوابط بالمؤسَّسات، والمجال السوسيو-السياسي، والسلطة الإعلامية. حتى أنه سيكون من الصعب إنشاء تصنيف لذلك؛ وأيّ محاولة للتصنيف تفترض، مسبقاً، تفسيراً محدّداً من شأنه أن ينحاز إلى أحد أطراف النزاع. ستواجه، على الفور، عداءً متوقَّعاً من كلّ جانب، تقريباً، و -على الرغم، أيضاً، من أن لديّ فكرتي الخاصّة حول هذا الموضوع- لن أجازف بها الآن. من ناحية أخرى، رغم كلّ النقاشات والمعارك حول «المواقف» أو «الممارسات» الفلسفية، من يستطيع أن ينكر وجود تشكيل للفلسفة الفرنسية، رغم تعاقب الهيمنات تاريخيّاً وحركية التيّارات المهيمنة، حيث يشكّل هذا التكوين تقليداً، أي عنصراً يمكن التعرُّف إليه، نسبيّاً من النقل والذاكرة والتراث؟. في أثناء تحليلها، سيكون من الضروري مراعاة عدد كبير جدّاً من المعطيات، التي غالباً ما تكون قابلة للتحديد بشكل مفرط: تاريخية، ولغوية، واجتماعية، من خلال مؤسّسات محدّدة للغاية (ليست الخاصّة بالتعليم والبحث، فقط)، دون أن تنسى رأس المال الفلسفي كما يسمّونه، إن وجد! من الصعب جدّاً، والحارق جدّاً بالنسبة إليّ، المغامرة هنا في بضع جمل.

أعتقد أن هويّة الفلسفة الفرنسية لم يتمّ اختبارها، بشدّة، كما هي اليوم. تظهر علامات توتُّر السلطة الجامعية في هيئاتها الرسمية، وغالباً بالطريقة نفسها التي تظهر بها عدوانية صحافية معيَّنة. لنأخذ مثالاً واحداً، فقط: سأستشهد بالحظر الذي فُرض، مؤخَّراً، من قبل (2)(CNU) على لاكولابارث، مثلاً، ونانسي، أي على الفلاسفة الذين تَمَّ الاعتراف بعملهم واحترامهم في فرنسا، وخارجها، لسنوات عديدة، ليصبحوا أساتذة جامعيين.

أحياناً، ومن خلال هذه العلامات السخيفة للحرب التي لا تشلّ شيئاً، في النهاية، سوى ما هو خامل ومشلول بالفعل، إن «المحنة الشديدة» التي كنت أتحدّث عنها، للتوّ، تضفي تفرّدها على ما يسمّى «الفلسفة الفرنسية». إنه ينتمي إلى مصطلح، من الصّعب إدراكه من الدّاخل أكثر من الخارج كما هو الحال دائماً. الاصطلاح، إن كان واحداً طبعاً، ليس نقيّاً أو مختاراً أو واضحاً من جانبه، على وجه التحديد. المصطلح، دائماً، وفقط، للآخر، منتزع الملكيّة بشكل مسبق.

هوامش:

1 - Autrement Revue, n° 102 : «À quoi pensent les philosophes?», dirigé par J. Message, J. Roman et E. Tassin, Paris, novembre 1988.

تحرير ج. ميساج (J. Message)، وج.رومان (J. Roman)، وإ.تاسين (E. Tassin)، باريس، نوفمبر، 1988. هذا اللقاء هو مدخل إلى «إعادة التفكير في النصوص التي شكّلتها، بوصفها تقليداً، تجد الفلسفة نفسها مرتبطة بالكتابة بشكل من الأشكال. فماذا عن حدود إغلاق الخطاب الفلسفي؟ هذا ما كتبه «جاك دريدا» في أربعة ردود».

2 - المجلس الوطني للجامعات في فرنسا. (المترجم)

المصدر:

Autrement Revue, n° 102, novembre 1988.

إيف روكوت مع جاك دريدا[1]

التفكيك ومساءلة التقليد الفلسفي الغربي

في عام (1967)، برز «جاك دريدا» وهو في السابعة والثلاثين من عمره، أمام قرّائه، بثلاثة كتب: الكتابة والاختلاف، والصوت والظاهرة، وفي الجراماتولوجيا. كانت هذه بداية مغامرة «التفكيك»، التي ستقوده إلى التساؤل حول المخدِّرات والهجرة، أو المشاركة في تأسيس الكلِّيّة الدولية للفلسفة، أو تنظيم ندوات سرِّيّة في براغ بين (1981 - 1982)؛ ما أدّى إلى إلقاء القبض عليه. تمثّلُ هذه المغامرة مشروعه في تفكيك الميتافيزيقا واللّغات، وكذلك «المؤسّسات وحدودها وجدرانها». لكنه، في كتابه الجديد «Limited Inc»، لم يعد يحاول «إرباك» القارئ بكتاباته، كما فعل في «نواقيس» أو «البطاقة البريدية»: من «سقراط» إلى «فرويد» وما بعده، في كتاب «Limited Inc» الأسلوب «اتِّفاقي»، وقد نشرَ «دريدا» جزءه الأوَّل عام (1972)، وهو «التوقيع، الحدث، السياق» المنشور في هوامش الفلسفة. أمّا الجزء الثاني، وهو أهمّ من الأوّل بكثير، فقد نُشر عام (1977) باللّغة الإنجليزية، ويمثِّل جدلاً عنيفاً مع «جون سيرل» حول نصّه الأوّل. وفقاً لـ«سيرل»، المنظِّر وتلميذ الفيلسوف «أوستن» الذي تأمّل «أفعال الكلام»، إن إثقال العقل بتاريخ الفلسفة من أجل التفكير، ليس ضرورياً. بينما يتناول الجزء الثالث من الكتاب ما يجب أن تكون عليه «أخلاقيّات التواصل».

بصفتك مؤسّساً للكلّيّة الدولية للفلسفة، أعربتم عن رغبتكم في أن ينطلق تدريس هذه المادّة في البكالوريا (الثالث الثانوي) و -مع ذلك- تمثِّلون وكتبكم، بالنسبة إلى البعض، أنموذجاً معيَّناً من «الباطنية».

- دريدا: أحاول أن أكون مقروءاً وواضحاً قدر الممكن، لكن دون أن أتجنّب كثيراً من المطالب الفلسفية بحجّة «تسهيل» قراءة كتبي أو إنتاج وهم البساطة. سيكون الأمر غير مسؤول وديماغوجيّاً، وهذا يعني عدم احترام القارئ. في الوقت نفسه، أفضِّل، دائماً، أن أثق في القارئ، وأطلب منه القيام بالقراءة أو بعمل القراءة.

إنه عمل لا يمنح، أبداً، للمرسَل إليه قبل القراءة، فهو ليس ثابتاً؛ إذ يعمل ويتحوّل من خلال القراءة، مثل الشخص الذي يكتب. وهذه المشكلة الخطيرة جدّاً، في عمر الفلسفة نفسه. لماذا هو أكثر إلحاحاً، اليوم؟ يجب أن نرحّب بالدمقرطة، وأن نحافظ عليها بلا هوادة. لكن البعض يستفيد من امتداد «فورية ميديائية» معيَّنة (إذا كان بوسع المرء أن يسمّيها كذلك) لجعل الناس يعتقدون أن التواصل يجب أن يكون سهلاً وسريعاً وسلساً. يحاول نقل فكرة أن جميع «الرسائل» يمكن تلقّيها دون جهد، ودون ترجمة، ودون تحضير؛ أي بدون أيّة مراقبة.

ومن هنا، يكون نفاد الصبر الذي يشعرون به في مواجهة لغة تبدو محجوزة لأولئك الذين يعرفون قانوناً معيّناً، والذين يجرؤون -علاوةً على ذلك- على طلب عمل لا نهاية له من طرف الآخرين؛ عمل يُقال علناً، أو يظلّ مضمراً، وبما أن الفلسفة تتعامل مع الإشكالات الكونية، مثل الوجود والموت والسياسة والأخلاق، فلماذا يجب أن يكون هناك متخصّصون في الفلسفة؟ لماذا يحتفظون بسرّهم؟ ألا يجب اعتبارهم مشبوهين، لأن «خطابهم» يمنعني ممّا يحقّ لي معرفته؟

سيقولون لك إن هذه حجّة معقولة؟

- نعم. طالما أن الشعبوية أو الظلامية لا تختبئ وراءها.



يجب على الفلاسفة، بالطبع، أن يفعلوا كلّ شيء ليكونوا في متناول الجميع. هناك، بلا شك، وهذا ما تؤكّده الفلسفة نفسها، حق لكلّ فرد في الوصول إلى الفلسفة. لكنَّ افتراضَ أن هناك أنموذجاً للوضوح الطبيعي يُعطى على الفور، للجميع، في الشارع، أو في الصحافة أو في التليفزيون، هو خداع وتزوير عميق، أحياناً. حتى في الشارع وفي وسائل الإعلام، تتميّز اللّغة التي يسهل الوصول إليها -على ما يبدو- بالعديد من الشيفرات والشيفرات الفرعية -من ثَمَّ- بالعديد من الاستثناءات! أولئك الذين يطالبون الفلاسفة بأن «يتحدّثوا مثل أيّ شخص آخر»، يجب أن يفكّروا في الأمر.

ألا نواجه هكذا مطلباً متناقضاً؟

- متناقض ومؤلم أن يتمّ الاستماع إليها من قِبَل أكبر عدد لضمان الذاكرة أو إرث الفكر في الوقت نفسه، بسبب تعقيد المشاكل التي تتطلّب تحليلاً صبوراً ودقيقاً، بالإضافة إلى الاعتماد على حدود الزمان والمكان، كما هو الحال في هذه اللحظة بالذات.

كلّ شيء سيكون أسهل إذا لم تكن مضطرّاً للذهاب بسرعة: كتاب، مقال، مقابلة، تكون دائماً قصيرة جدّاً. ألا يكمن حلّ هذا التناقض الفلسفي، والأخلاقي، والسياسي في ترحيل معيَّن؟ ألن تأخذ شكل الوساطة الاجتماعية، والجماعية، والمؤسَّساتية؟ مؤلِّف واحد لا يستطيع حلّ

هذه المشكلة. يجب أن يكون لديه حلفاء، من المدرسة ومن وسائل الإعلام، أوّلاً؛ لذلك لا يوجد تناقض بين حقيقة كتابة شيء يعدّ صعباً والادّعاء الذي أشرت إليه: على سبيل المثال، مطالبة GREPH بتطوير تعليم الفلسفة، وتمديد فترة دراساتها.

يعترف «سيرل»، في أحد أعماله القصديّة، بأنه يتجاهل معظم أعمال التقليد. أين الفرق بينكما؟

- يتعلَّق الأمر في «Limitée Inc» بالتواصل. بدأ الجدل بمقال «التوقيع، الحدث، السياق»، الذي قُدم في أعقاب مؤتمر للجمعيّات الفلسفية الناطقة بالفرنسية (مونتريال، 1971)، وكان موضوعه «التواصل»، تحديداً. لا ينشأ إثبات الاتّصال بين مشاركَيْن يمكن تسميتهما «الفيلسوفَيْن»، فقط، من جهة، و«الجمهور» من جهة أخرى، وهو جمهور يعتقد الصحافيون أنهم وحدهم من يملكون السلطة على المخاطبة أو التحدُّث نيابةً عنهم، بالطريقة ذاتها، التي يوجد بها جمهور ومقيّمون، وبين أولئك الذين يظهرون أكثر في وسائل الإعلام الذين ليس لديهم المزيد من السلطة دائماً؛ لذلك وجدت، أيضاً، مجتمعات وتقاليد، وهناك مؤسَّسات فلسفية يصعب، أحياناً، تمييزها. تندمج هذه الصعوبة مع الفلسفة نفسها، التي تفترض، أيضاً، انعكاساً على الظروف المؤسَّسية أو غير المؤسّسية لخطابها، ولغتها، ونوع تواصلها.

لذلك، عندما يجرؤ سيرل على تأليف كتاب عن القصدية، مشيراً إلى أنه لا يعرف شيئاً عن تاريخ المشكلة، فهو لا يعترف بخطئه، فقط، بل يلقي باللوم على تقليد أوروبي «قاري» (وغالباً ما يكون فرنسياً)، يقول إنه لا يعالج مشكلة، أبداً، دون التفكير في تاريخها أوّلاً. بحسب منطق هذا الاتّهام، على عكس ذلك، يجب البدء في معالجته على الفور، ودون أيّة ذكرى، بإلحاح ما هو على المحكّ، اليوم. هناك تقارب معيَّن بين موقف «سيرل» وموقف بعض الصحافيين أو موقف بعض الفلاسفة المتسرّعين.

لكن، في الوقت الحالي، ثبت أن نصّ «سيرل» صعب مثل نصّي، وإن كان بطريقة مختلفة. علاوة على ذلك، هو بعيد جدّاً عن المنتدى العامّ إلى درجة أن أحداً لم يسأله عن ذلك. من ناحية أخرى، يلتزم «سيرل» بالافتراضات التاريخية أكثر ممّا يدركها؛ وهو أكثر مني في ذلك. إنه «قاري» وكما هو أكثر مني (هوسرليّةً)، عندما يدّعي، في تحليل أفعال الكلام الأدائية (الأمر أو الوعد أو التهديد) أنه يجب استبعاد الحقائق التخييلية والظواهر الشّاذة (الطفيليّات) بشكل منهجي، بسبب الاقتباس أو الخيال أو السّخرية والتعديل الأدبي، واستعادة النقاء المثالي والأصلاني للملفوظ الذي من شأنه أن يعبر، بجدّيّة، أو بشكل صحيح، عمّا يعنيه.

لكن «التفكيك» يستجيب، أيضاً، للتقليد الأوروبي نفسه.

- ربما ينطوي «التفكيك» على احترام هذا التقليد، وحركة التفكير في إمكاناته وحدوده؛ ما يعني، أيضاً، تجاوزاً وإزاحةً له.

هذا لا يحدث، فقط، في تكهّنات الفلاسفة المحترفين، بل إنه التجربة نفسها، حين نتعلَّق بـ «الطفيلي» و«المهاجر» و«الهامشي»، علينا أن نسأل أنفسنا: ماذا نفعل؟ ماذا تقصد هذه الكلمات؟ ما هي قيمتها المفترضة؟ ما العمل معها؟ هل يجب أن نستبعد شيئاً ما، ولو مؤقتاً؟ هل هناك حدّ للتسامح؟ ماذا تريد أن تستعيد؟ وينطبق الشيء نفسه على مشكلة الذات، وجسدها الخاصّ، سواء أكان فردياً أم كان اجتماعياً أم كان قومياً، واسمه الخالص، وتوقيعه، وصدقه؛ مع ملكية رأس المال أو الأرض؛ مع هويّة الذات، والهويّة الوطنية أو اللّغوية، والمسؤولية الفردية، واللاّوعي، والقانون.

وماذا عن مشكلة أوروبا؟

- يعتبر «التفكيك»، مسبقاً، أحد سلالات أوروبا، وهو محاولة للتفكير في فكرة أوروبا، أو في النظام المفتوح للمفاهيم، أو في البديهيات التأسيسية للفلسفة كمغامرة أوروبية، تتجاوز المركزية العرقية الأوروبية أو نقيضها. ومنطق ما يربط أوروبا بأخرى، وكذلك ما يعبِّر عن القومية في الكونية أو العالمية، هو سرب من المفارقات التي تقدّم نفسها للتفكيك.

لا يمكن أن يكتفي «التفكيك» بالهجمات الأوّلية على المركزية الأوروبية، كما أظهر عدد من العلامات المختلفة منذ فترة طويلة. ولا ينبغي أن يكتفي بضمير طيّب أو نشوة «أوروبية»، خاصّة في هذا الزّمن، حيث تنتصر النّرجسية هنا وهناك، وتعلن، أحياناً، «نهاية التاريخ» ومحاولة تنقية كلّ خطيئة، تسرّع المسرنم، وروح الرأسمالية الليبرالية. والأهمّ من ذلك أنه يخاطر بالارتباط بأشكال مزعجة من القومية البغيضة أو الدوغمائية الدينية.

ضدّ الإجماع، هل تستعدّون لإعادة قراءة «ماركس»؟

- دريدا: لطالما تميَّز طعم الخدج بالتساؤل التفكيكي. ضدّ دين الإجماع، وضدّ استعادة الأرثوذكسية البسيطة، ليس هناك شكّ في أنه يجب إعادة قراءة ماركس، ونيتشه، وفرويد، وقليل من الآخرين! يجب أن يتمّ ذلك مع فلاسفة الشرق، أو -إذا لزم الأمر- ضدّهم، لأن المناقشات معهم تنمو وتتطوّر بأقصى سرعة.

هامش:

1- Yves Rocaute avec Jacques Derrida, L'événement du jeudi, 284, avril 1990, p 114-116.

المصدر:

L'événement du jeudi, n° 284, avril 1990.

مع خوسيه ماندير

الفكر روح، جسده اللّغة

جاك دريدا: يجب أن يكون الفكر حدثاً، وابتكاراً في اللّغة، و -من ثَمَّ- يجب أن يكون شعرياً إلى حدٍّ ما. حدث اللّغة هو ابتكار شعري. حيثما توجد أحداث فكرية، يوجد، أحياناً، شِعْر أكثر ممّا يوجد في أعمال شعراء «لهم الأولوية». بالنسبة لي، لا يوجد فرق -لأقول سريعاً بعض الشيء، طبعاً- بين أفكار الشاعر وطريقة كتابته. في الأساس، لا يوجد فرق.. هذا لا يعني أن كلّ شيء موجود في كلّ شيء، وأن جميع النصوص التي تهمّني هي، في الوقت نفسه، فلسفية. أنا أؤمن بالاختلاف، بالتخوم بين الفلسفة والأدب، حتى لو كانت قابلة للاختراق، بين تعاطف الفكر الفلسفي وتعاطف الشعر. لا أريد أن أخلط بين الأمور، لكن في أصل الأشياء، وما يهمّني هو التفكير، والتفكير في الفلسفة، والكتابة شعراً، والعيش كشاعر، فكلّ هذا متشابه.

هل يمكن اعتبار الأيديولوجيا أحد أشكال الكذب، أو ضرباً من الكذب؟

- لمفهوم الأيديولوجيا تاريخ قويّ. استحضرت، في المؤتمر، النظريات الحديثة للكذب، والتي أعيرها اهتماماً كبيراً، لأنها تطرح مسألة تاريخ الكذب والحداثة السياسية للكذب، مع الأخذ بعين الاعتبار تحوّلات التقنية والصور، وسائل الإعلام، وغيرها. يثير منظّرو الكذب المعاصرون اهتمامي كثيراً؛ ومع ذلك هم لا يشيرون، أبداً، إلى هايدغر أو فرويد أو النظرية الماركسية للأيديولوجيا. وعلى الرغم من وجود الكثير ممّا يمكن قوله ضدّ المفهوم الماركسي للأيديولوجيا، هو مثير للاهتمام؛ بمعنى أنه يشير إلى المكان، مكانٍ إشكاليّ، حيث لا يكون تزوير الحقيقة وتشويهها كذباً، لا يستجيب ببساطة لنيّة واعية وطوعية لتشويه الواقع، بالضرورة. هناك تشوُّه يفرض على عدد كبير من الأشخاص رؤية معيَّنة للواقع، أو تأويلاً معيّناً، لكنه لا يمرّ عبر نيّة واعية لفعل الكذب. الأيديولوجيا ليست كذبة، ولا وهماً، ولا خطأً؛ لذلك، هناك، على الجانب الماركسي، محاولة للتفكير في شيء أيديولوجي، شيء ليس خطأً أو كذبةً أو وهماً. أعتقد أننا بحاجة إلى صنف جديد من التفكير، وتشويه، وتحويل للواقع الذي ليس مجرَّد كذبة. ومع ذلك، هناك كذبة، وأريد الاحتفاظ بالمفهوم القديم للكذب. هناك كذبة سياسية: أكاذيب بسيطة، مقصودة، متعمّدة، عبر وسائل الإعلام والآلات الكبيرة، وهي رأسمالية وتقنية وعالمية في الوقت نفسه. هناك، أيضاً، تحوّل في الواقع، وتأثيرات أيديولوجية، وهي ليست أخطاءً أو أكاذيب تتطلّب تصنيفات أخرى، فحسب؛ فمن وجهة النظر هذه، لا أعتقد أن صنف الأيديولوجيا الماركسية كافٍ، على أيّة حال.

إن إنكار الماركسية، اليوم، هو أكثر من مجرَّد موقف نظري، أو اتّفاقية اجتماعية، أو ميثاق صمت. هل يمكننا أن نستنتج بعض التبرير لـ«ماركس» من كلماته؟

- لا. إنها ليست عودة إلى «ماركس». إنها ليست إعادة صياغة لـ«ماركس»؛ إنها، أوّلاً، وقبل كلّ شيء، احتجاج على التسرُّع الذي أرادوا به دفن «ماركس» وإغلاق الكتاب والحلقة الماركسيَّيْن. أعتقد أنه يتعيَّن علينا الحذر من هذه النشوة النيوليبرالية الرأسمالية بقولها: «ماتَ ماركس». إنها بادرة احتجاج من جهتي، لأن المثقَّفين يتحمَّلون مسؤولية عدم المشاركة في هذه الجنازة المتهلِّلة والمنتشية للرأسمالية الليبرالية التي تمرّ بأزمة، والتي تعمل بشكل سيّء للغاية، وتحاول دفن «ماركس» بطريقة سحرية، مثل عمليّة طرد سحري للأرواح الشريرة. لكن، في الوقت نفسه، لا يتعلَّق الأمر باستعادة «ماركس»، بل بالبحث عن النصائح الثورية في قراءة «ماركس»، وهو أمر يساعدنا على التفكير في عصرنا، والتصرُّف بشكل مختلف معه. هذه واحدة من التفاتاتي المعقَّدة تجاه «ماركس». على سبيل المثال، ما قلته، للتوّ، عن الأيديولوجيا: التصنيف الماركسي للأيديولوجيا معقّد جدّاً، وتوجد فيه إشارة إلى شيء يجب البحث عنه هو الصوت، على الرغم من أنها ليست مسألة استعادة دوغمائية للمفهوم الماركسي للأيديولوجيا.

هذه الحالة، على الأقلّ، في المنطقة الغربية، تعايش عدداً من الخطابات غير المهيمنة، التي تشكّل نوعاً من «التنافر» الأيديولوجي والتنافر الثقافي؛ فهل هو الأكثر قبولاً؟

- لا شيء مقبول، على الإطلاق. هذا جزء من

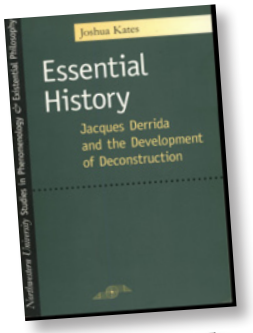


الأيديولوجيا من وجهة نظر الماركسية. لطالما كانت هناك تعدّدية للخطابات. إن المجال الأيديولوجي -على افتراض وجوده- يتكوّن، دائماً، من منافسة مفاهيمية لعدد من الخطابات. لم تكن هناك أيديولوجيا متجانسة أبداً. وحتى في الدول الشمولية، التي تحاول فرض مثل هذه الأيديولوجيا، هناك، دائماً، توتّرات وصراعات. حتى من وجهة النظر الماركسية، لا يزال بإمكاننا تحليل التناقضات داخل الأيديولوجيا المتجانسة، كما أن ثمّة نشازاً (تنافراً للأصوات). نتحدّث، اليوم، عن خطاب يقترح غياب الأيديولوجيا. في النشاز الحالي، هناك صوت يقول إنه ليس هناك نشاز، فحسب، بل نهاية للأيديولوجيات. أعتقد أن ما تسمّيه نشازاً، أي مجموعة من الخطابات المتنافرة دون أيّة سيطرة، يتوافق مع شيء أكثر خطورة من الأزمة. إنها ليست مجرَّد أزمة. الأزمة هي، دائماً، لحظة توتُّر مرضي تميل إلى التلاشي، عندما يكون ما نمرّ به أكثر خطورةً. وفي هذه التجربة التي نعيشها، اليوم، تحاول هذه الخطابات المختلفة التي استشهدت بها ترميم هذا النوع من الجرح الذي انفتح عندما تحدّثنا عن نهاية الإنسان، ونهاية التاريخ، ونهاية الأيديولوجيا، ونهاية الميتافيزيقا.... في مواجهة هذا النوع من الهاوية أو الفراغ، بعد موت الماركسية، نحاول السير بسرعة كبيرة، لتعديل خطاب يطمئن، ويرمِّم، لكنني لا أعتقد أن هذا مقبول.

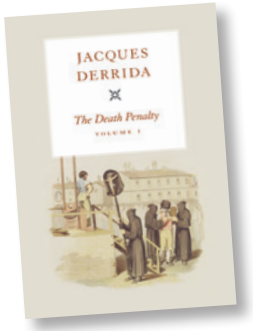
من بين الفضائل التي يطرحها النقد في عمله، تتجلّى، دائماً، حالة مُبتكِر الاستعارات، خالقِ اللّغة. هل تعتبر نفسك كَاتباً فلسفياً؟

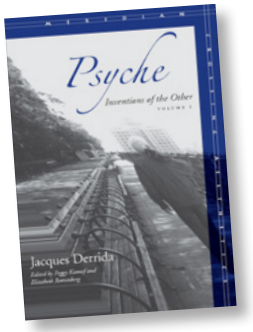
- هنا، الإجابات كثيرة. من ناحية، صحيح أن في تكويني، في مرحلة المراهقة، عندما كنت صغيراً جدّاً، رغبة، بالفعل، في أن أغدو كاتباً فيلسوفاً، وكانت هناك نماذج لذلك. وفي العشرينات من عمري، كان «سارتر» و«كامو» و«ميرلوبونتي» قدوة لي من الفلاسفة الذين كتبوا الأدب أيضاً. كان هذا ما أثار اهتمامي، فقد أردت أن أكتب وأقرأ. من ناحية أخرى، لا أعتبر ما أفعله، الآن، فلسفة خالصة وبسيطة. ما أسمّيه (تفكيك الفلسفة) هو نوع من التفكير، أو -إن شئتم- التأمُّل في الفلسفة، من مكان بعيد قليلاً عن الفلسفة. على الرغم من أن لديّ تكوين فيلسوفٍ، وأستاذ للفلسفة، لا أعتبر ما أكتبه فلسفياً، بالمعنى الدقيق للكلمة (stricto sensu).

بالإضافة إلى ذلك، يجب أن يأخذ الخطابُ النظري اللّغةَ بعين الاعتبار؛ يجب ألّا يكون مجرّد عمل على تصوّرات غريبة عن اللّغة. الفكر مثل الروح، جسده هو اللّغة. أعتقد أن المفاهيم تعيش في أجساد لغوية، لذا يجب أن يكون الفعل الفكري اصطلاحياً (idioma-











tique)؛ كل هذا يعني أنني، عندما أكتب أشياء فلسفية، أكون منتبهاً جدّاً لطريقة الكتابة وطريقة التعامل مع اللّغة الفرنسية. وبطريقة ما، أشعر أنني أكتب شيئاً خلاّقاً، وإذا نجحت في كون ما هو مكتوب مرتبط ارتباطاً وثيقاً باللّغة الفرنسية، إذا لم يصبح غير قابل للترجمة، فمن الصّعب جدّاً ترجمته.

هذا يقربنا من مفهوم الفكر الشّعري، والفكر كفعل من أفعال الخلق.

- ما قلته، للتوّ، يسير بالفعل، في هذا الاتّجاه. أعتقد أن الفكر الفلسفي، فكر الفلسفة -الذي يثير اهتمامي- هو فكر لا-فلسفي. يجب أن يكون الفكر حدثاً، وابتكاراً في اللّغة، و -من ثَمَّ- يجب أن يكون شعرياً إلى حدٍّ ما. حدث اللّغة هو ابتكار شعري. حيثما توجد أحداث فكرية، يوجد، أحياناً، شِعْر أكثر ممّا يوجد في أعمال شعراء «لهم الأولوية». بالنسبة لي، لا يوجد فرق -لأقول سريعاً بعض الشيء، طبعاً- بين أفكار الشاعر وطريقة كتابته. في الأساس، لا يوجد فرق.

الآن، هذا لا يعني أن كلّ شيء موجود في كلّ شيء، وأن جميع النصوص التي تهمّني هي، في الوقت نفسه، فلسفية. أنا أؤمن بالاختلاف، بالتخوم بين الفلسفة والأدب، حتى لو كانت قابلة للاختراق، بين تعاطف الفكر الفلسفي وتعاطف الشعر. لا أريد أن أخلط بين الأمور، لكن في أصل الأشياء، وما يهمّني هو التفكير، والتفكير في الفلسفة، والكتابة شعراً، والعيش كشاعر، فكلّ هذا متشابه.

اسمحوا لي بالعودة إلى محاضرتكم. من الممكن أن يكشف الزمن عن الكذب في حَدّ ذاته، ولكن كيف نكتشف الكذاب في مجتمعنا الإعلامي، حيث أضعفتم المسؤولية في التكرار؟

- عليك أن تكون حذراً بشكل مضاعف. من ناحية أخرى، شهدت تطوُّر تقنيات الوسائطية: حيث الحالة المتغيّرة للصورة، والقوى الكبيرة المركّزة على المعلومة؛ ما يعني أنّ الحديث عن الأكاذيب، ببساطة، لم يعد ممكناً. لم نعد نعرف من المسؤول. انتبه إلى حقائق التقنية التي يبدو أنها تبدّد الكذب. كلّ هذا صحيح، لكني، في الآن ذاته، لا أعتقد أننا يجب أن نتخلّى عن فئة الكذب أو عن فكرة أن يكون هناك ذنب أو جرم. هناك أناس قدّروا الكذب بتعمُّد.

الصعوبة التي واجهتها، والتي أردت نقلها خلال المحاضرة هي ما يلي: الحفاظ على منطقَيْن متوازيَيْن: الأوّل هو منطق التقنية الذي يميل إلى تبديد المسؤولية الفردية، والآخر هو الحاجة إلى الحفاظ على الفئة القديمة من الأكاذيب؛ لأنه لا يزال هناك أشخاص يكذبون (السياسيون، خاصّة)، ويكذبون ببساطة، بالمعنى الأكثر كلاسيكية للكلمة، وينبغي أن يحاكَموا على ذلك، وأن يحاسَبوا، مذنبين بهذا الكذب. هذان المنطقان يصعب التوفيق بينهما.

يبدو أن أحدث مغامرة سياسية أوروبية هي الوحدة. هل هناك فكر حول أوروبا، موازٍ للظاهرة السياسية؟

- اليوم، في الفلسفة، كما في كلّ شيء، تقريباً، تنتج ظاهرة العولمة؛ بعبارة أخرى: يسافر الفلاسفة كثيراً، مثل الآخرين، والكتب، أيضاً، تسافر كثيراً. بحسب اللّغة، أنا أميركي كما أني أوروبي. إذا كان معنى سؤالك هو معرفة ما إذا كانت هناك فكرة تحاول المطالبة بأوْرَبَتها والتفكير في أوروبا، حول مستقبل أوروبا، فسأقول: نعم. يكافح معظم الفلاسفة، اليوم، لفهم ما تعنيه أوروبا، ومن أين أتت أوروبا. بالطبع، كلّ شخص لديه رأيه الخاصّ. يتمثّل الخطر الفلسفي الكبير في الإجابة على سؤال: من أين تأتي أوروبا؟ بافتراض أنها كانت هويّة، ولكن أكثر من ذلك، للتنبُّؤ بما ستصبح عليه، وكيف يجب أن تكون ثمّة أوروبية أو مضادّة لها، أي: ما مصير أوروبا؟، وهذا سؤال ممتاز.

عندما تتحدّثون عن الأكاذيب، مثلما تتحدَّثون عن الأيديولوجيا أو اللّغة، يكون لدى المستمع انطباع بأنك تبحث، دائماً، عن جيوب من الحرّيّة الفردية. نزهات من أجل حرّيّة، تشعر أنها مهدّدة؛ فهل هذا آمن؟

- إنه سؤال واسع. سأقدِّم لكم إجابة مختصرة إلى حَدّ ما، وناقصة الشكل، لأن سؤال الحرّيّة هو سؤال فلسفي كبير. للإجابة بسرعة، بهذه الطريقة، يمكنني أن أقول: ليس مؤكّداً أننا نريد أن نكون أحراراً. لقد ربطتم الحرّيّة بالأمل، وكأن ما نريده، قبل كلّ شيء، هو أن نكون أحراراً، وذلك ليس مؤكّداً. على سبيل المثال، لست متأكّداً من أنني أريد أن أكون حرّاً، أي منفصلاً. أريد، أيضاً، أن أكون ملزماً، وأن أكون مطلوباً، لا حرّاً فحسب. من الواضح أن الرابط، الرابط الحقيقي، مأخوذ بحرّيّة.

عندما أفكر في كلمة الحرّيّة، وأتساءل عن جينيالوجيَّتها، ومن أين أتت، يتكوَّن لديّ انطباع بأن الحرّيّة سياسية، إنها ديموقراطية حرّة. لكني في الوقت نفسه، أريد أن أكون حرّاً مع حرّيّة ليست كحرّيّة مواطن فحسب، فأنا أريد أن أكون حرّاً في التفاعل، متجاوزاً الحرّيّة السياسية؛ أن يكون لك فكر عن الحرّيّة لا يتطلّب التحدُّث عن الحرّيّة. الحرّيّة في الشعر، في الفضاء الأدبي، في الرؤية، في الإدراك. حرّيّة العيش، والإدراك، والتمتُّع، قبل أن تصبح هذه الحرّيّة مسألة سياسية عن الحقّ. إنها إمكانية المواطن الذي يعيش في فضاء من الحرّيّة المدنيّة: أن يكون قادراً على حجز مساحة غير مشبعة بالسياسة.

هامش:
أجري الحوار في مدريد، بعد إلقاء محاضرة دريدا في (22) أبريل/نيسان (1997)
المصدر:
« Los intelectuales », Résidence, VII-IX, 1997.

فلسفة تفكيكيّة

في نوفمبر/تشرين الثاني (1995)، كان «دريدا» في زيارة إلى سانتياغو (تشيلي)، وهناك أجرى مقابلتَيْن عموميَّتَين؛ إحداهما في جامعة أرسيس (L'université Arcis)، والأخرى في صالون الكتاب، وقد حُرّرت التسجيلات من طرف مجلّة «النقد الثقافي - Revista de Critica Cultural» في تشيلي، ومنها اخترنا بعض المقاطع النصّيّة لهذا المقال.

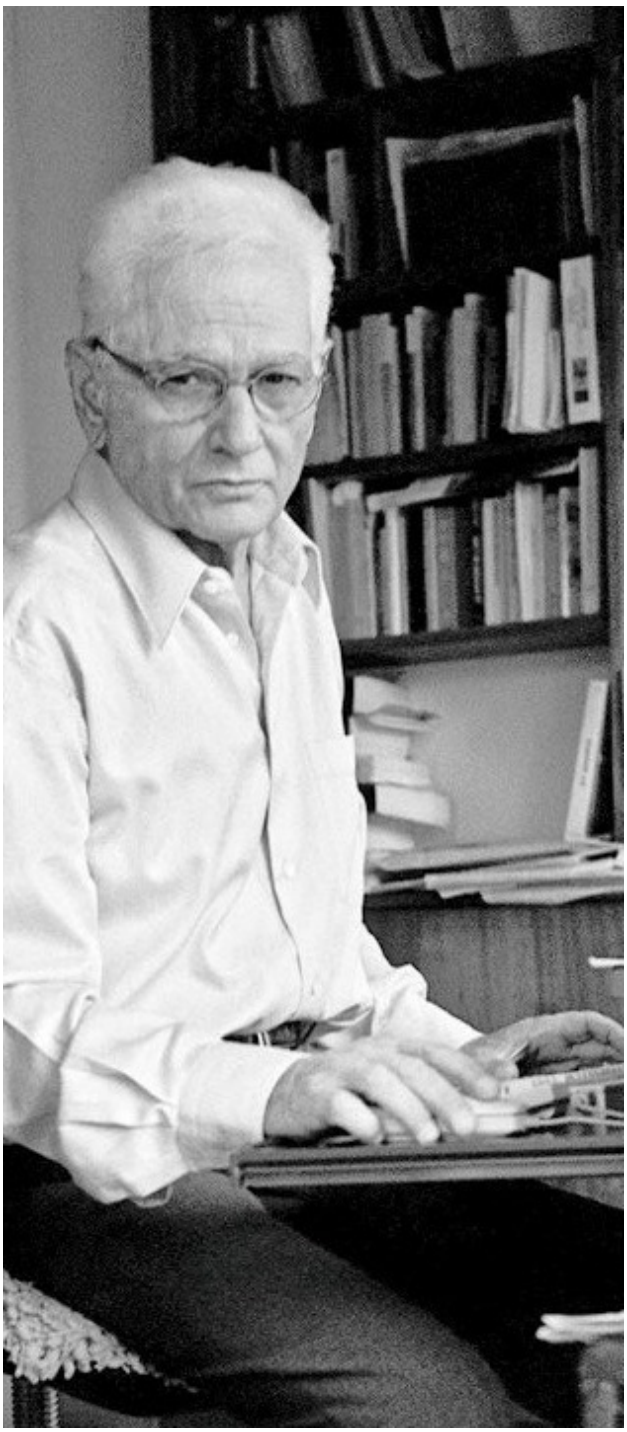
منذ شهر، تقريباً، توفِّي «جيل دلوز»، واسمه -مثل اسمك- يمثِّل جزءاً من كوكبة فلسفية وفكرية مرموقة (لاكان، وبارت، وألتوسير، وفوكو،...وغيرهم)، والتي تضمّ (مايو 68) كمرجع سياسي.. أنت عشت حدث (مايو 68)، فكيف كان له تأثير على الهيكلة الجامعية، برأيك؟ (نيللي ريتشارد)

- دريدا: أودّ، في البدء، تكريم ذكرى «جيل دلوز»، الذي أثّر موته فيّ بطريقة مؤلمة خاصّة. أثّرت وفاته في نفسي، وكذلك ظروف هذه الوفاة، حيث شارك فيها عدد من الفلاسفة الفرنسيين من هذا الجيل، وهم أصدقائي: «دلوز» و«ألتوسير» و«فوكو» و«بارت»، حقيقةَ الموتِ في مواقف غير عادية إطلاقاً. أشعر بالوحدة قليلاً، فأنا الناجي، أو الباقي على قيد الحياة تقريباً. أنا أنتمي إلى الجيل نفسه الذي عايشه «دلوز». ومنذ البداية، كانت أفكاره تعني لي الكثير. لطالما شعرت بالإعجاب الشديد بالتقارب بين ما كان يعمل عليه وما حاولت أن أعمل عليه بنفسي: التقارب الذي ينبع من الاهتمام المشترك بفكر الاختلاف غير القابل للاختزال، للجدليّ والمتناقض والمعارضة؛ فكر مؤكّد لتكرار حيث تتأسّس الجينيالوجيا مع «نيتشه». أمّا حول (مايو 68)، فقد أعلن «دلوز»، في مقابلة أعدت قراءتها مؤخّراً، أنه كان زلزالاً عميقاً، يتجاوز ما نتصوّره في ذلك الزّمن، والذي استمرَّت موجاته الصّادمة بعد ذلك بكثير. بالنسبة إليّ، على الرغم من تعاطفي مع تمرُّد (مايو 68)، أعترف بشعوري، في ذلك الوقت، ببعض التردّد في مواجهة النشوة العفوية. لقد كان حذراً، نوعاً ما، من رثاء العاطفة، ومن عفوية معيَّنة من الكلام المتحرّر والشفّاف. لكنا، في السنوات التي أعقبت (مايو 68)، شهدنا ردّ فعل سياسي في فرنسا، نتج، من وجهة النظر البرلمانية والانتخابية، عن تدفُّق هائل لليمين، لم يسبق له مثيل، كما نتج، من الناحية الأكاديمية، عن منعطف المحافظة الارتكاسي والعنيف والمتوتِّر.

عندها، بدأت بأعمال قتالية داخل المؤسَّسة الأكاديمية للاحتجاج على القوى الرجعية.

لقد نشرتم، مؤخَّراً، كتاباً بعنوان «أطياف ماركس». ما الذي دفعكم إلى العودة إلى «ماركس»، أو -على الأقلّ- إلى شبحه؟ (مارتن هوبينهاي)

- دريدا: إذا كتبت كتاباً عن «ماركس» متأخِّراً جدّاً، كتاباً إيجابياً يحيي «ماركس» وأولئك الذين ما زالوا يناضلون باسمه (الكتاب مخصّص لشيوعي من جنوب إفريقيا)، فذلك -بالتحديد- لأن القيام به أمر عفا عنه الزمن أو -بالأحرى- في غير أوانه. أعتقد أن مسؤولية التفكير النقدي تكمن، أيضاً، في حساب عدالة في غير زمانها: يجب على المرء أن يقول ما يعتقد أنه لا يقوله. اليوم، يخبرنا الخطاب السائد حول العالم بأن الماركسية ماتت، والشيوعية قد دُفِنت. على وجه التحديد، لأنني لم أكن، أبداً، مناضلاً للماركسية في وقت كان فيه من المغري جدّاً أن أكون واحداً من مناضليها، ولأنني قاومت عقيدتها، أعتقد أنه من الضروري، اليوم، معارضة صوت مناوئ لهذا الإجماع الحالي على رأسمالية السّوق الحرّة، والديموقراطية البرلمانية. أفعل ذلك، بالطبع، بطريقتي الخاصّة التي تتألَّف من تحليل، في كتاب «أطياف ماركس»، عمل المبارزة السياسية التي يتمَّ التعبير عنها من خلال الخطاب المهيمن المناهض للماركسية اليوم، والذي يبدو لي انتصاراً مهووساً، كما يقول «فرويد»، كمن يصرخ بالنصر بصوت عالٍ جدّاً. صرخته عالية لإسكات القلق والتوتُّر، والجزع كعَرض على أنّ كلّ شيء ليس على ما يرام، فيما كان يعتَبر انتصاراً. أحاول أن أتبع عمل الحداد في نصّ «ماركس»، لالتقاط قيمة الطيف، كقوّة لاستجواب التحليل النفسي المرتبط بالحداد. خطاب «ماركس» مليء بالأشباح، لكنه يسعى، أيضاً، إلى القضاء عليها والتخلّص منها. حاولت فكّ رموز النصّ، ورؤية الحدود الفلسفية لـ«ماركس»



بوصفه فيلسوفاً أيضاً: هناك دوافع ليست ميِّتة فحسب، بل لاتزال مفتوحة على المستقبل كدوافع ما تفتأ تنذر، وهناك، أيضاً، دوافع تنتمي إلى التقاليد. كتابي بمنزلة تكريم لـ«ماركس» الأمس والغد، ولتفكيكه أيضاً. يرث التفكيك نفسه واحداً من أرواح «ماركس»، لكن ليس كلّها: كما هو الحال في أيّ ميراث (هو نفسه مع هايدغر، أو فرويد، أو نيتشه)، لا يتعلَّق الأمر بتلقّي مدوَّنة متجانسة عالمياً، بل بتشغيل إنقاذ انتقائي يرشح ما يسعى الوريث إلى تأكيده من النصّ الموروث.

من وجهة نظركم، كيف يمكن إقامة علاقة بين النصّ والممارسات الاجتماعية؟ (تيريزا ماتوس)

- دريدا: تفترض الحاجة إلى إقامة هذه العلاقة تصوُّرَيْن يبدوان قابِلَيْن للنقاش أو إشكاليَّيْن، بالنسبة إليّ؛ ما يفترض، أوّلاً، وقبل كلّ شيء، تصوُّراً ضيِّقاً للنصّ كشيء يقتصر على وسيط مكتوب. ما حاولت القيام به، في الغراماتولوجيا، هو توسيع مفهوم النصّ إلى ما هو أبعد من الداعم المحدود، على وجه التحديد: الحركة/ الإشارة أو العمل عبارة عن نصوص أيضاً. في المقابل، تمرّ «الممارسة الاجتماعية»، بالضرورة، من خلال وساطة النصوص والخطاب. لا توجد معارضة أو تمييز قويّ بين النصّ والممارسة الاجتماعية. أيّة ممارسة اجتماعية تمرّ عبر النصوص، وأيّ نصّ هو، في حَدّ ذاته، ممارسة اجتماعية. طبعاً، ليس ضرورياً الخلط بين كلّ شيء، أو الارتباك، مثل: نشاط نشر مقالات في مجلة مع نشاط العمل في مصنع. يجب التساؤل عن التعارض القائم بين النصّ والممارسة الاجتماعية، صياغة أدوات مفاهيمية جديدة تعيد ابتكار استراتيجية لمعالجة الاختلافات التي تفصل، فعليّاً، بعض النصوص والممارسات عن بعضها الآخر، في الوقت نفسه.

في الثمانينيات والتسعينيات، نرى ظهور منعطف نقدي يربط التفكيك بروح معيَّنة من النقد الماركسي. أشير، قبل كلّ شيء، إلى مشكلة «مسامية الحدود بين «الخاصّ» و«العامّ»، مشكلة التحوُّل العميق للفضاء العامّ من قِبَل «جهاز الإعلام التقني»، وتبديد «البنية الطوبولوجية» للباب العامّ والفضاء العامّ، التي تؤدّي إلى عدم وجود مكان للسياسة، والوعد الديموقراطي.

- دريدا: يدور السؤال حول التحوُّلات التي غيّرت عملي في الثمانينيات والتسعينيات. يجب أن أعترف أن ما يذهلني، في المناسبات النادرة جدّاً، عندما أعيد قراءة نفسي، هو الإصرار والتكرار الرتيب، تقريباً، لبعض الزخارف خلال كتاباتي: ما أعتقد أنني أقوله لأوّل مرّة، في عام (1990)، هو، غالباً، شيء لا أستطيع تذكّره، منذ وقت طويل. لكن هناك، بالطبع، مصطلحات أو مفاهيم جديدة، وخاصّة النبرات الجديدة التي تغيُّر من شدّة الفكر. على سبيل المثال، «الوسائط التقنية عن بُعد» التي أتحدَّث عنها، اليوم، من وقت إلى آخر بوصفها مشكلة، هي مذكورة، بالفعل، في الغراماتولجيا؛ وهو ما يجبرنا عليه التسارع المفرط، في تطوير هذه الحالة التي تحوّل الفضاء العامّ، والتفكير في الأمر بإلحاح أكثر من أيّ وقت مضى.

إن مقاربتي الأخيرة، في التعامل مع المشاكل القانونية وقضايا القانون الدولي، هي ما جعلتني ألحظ الفرق بين القانون والعدالة بشكل أوضح. إن التشكيك في تقاليد القانون، والتغيير النقدي للحقوق الممنوحة،

هو شرط أيِّ عمل سياسي أو أيّ إصلاح أو ثورة. لكن هذا التفكيك لمفهوم القانون يتمّ، دائماً، باسم مطلب معيَّن للعدالة لاينبغي الخلط بينه وبين القانون، لكنه يشير إلى عدم كفاية هذا المفهوم مع نفسه. عندما تكون لديك خبرة في أن حقوق الإنسان العالمية ليست كما ينبغي، وهي دعوة لتوسيعها (للعمال، والنساء، والأطفال، وغيرهم)، فإن هذا الادِّعاء يتمّ تقديمه باسم العدالة التي لا يمكن تفكيكها. نحيل، أيضاً، إلى نصّ لبنيامين من عشرينيات القرن الماضي هو «نقد العنف» لربط فكرة العدالة بالمسيحانية، وأيضاً للتمييز بين المسيحية والمسيحانية: تشير المسيحية إلى صورة يمكن التعرُّف إليها (المسيح)، بينما المسيحانية هي وعد بدون أفق التوقُّع، أو أفق مجيء غير متوقَّع للآخر، موعود ولكن دون احتساب وصوله. أحاول أن أشرح هذا التقاطع بين العدالة غير القابلة للتدمير، والوعد المسيحي والطيفية. لا يمكن أن يأتي طلب العدالة من القانون، أو من المفهوم القانوني العامّ الذي يجب أن يطيعه، مثل المطالبة بأن ينتصر العقل، فهو لا يأتي من العقل نفسه، وليس له ما يبرِّره عقلانياً.

ما الفرق بين النظرية والبلاغة؟ إذا لم يكن هناك فرق، فكيف نميِّز بين البلاغة وصناعة الترفيه؟ إذا كان الأمر كذلك، فهل يمكن أن يكون بمنزلة أساس للحديث عن الإتيقا؟ (كارلوس بيريز سوتو).

- دريدا: بالطبع، هناك فرق بين النظرية والبلاغة. غالباً ما اتُّهم التفكيك بأنه مجرَّد بلاغة أو أدب. تشير النظرية إلى إنتاج منطق لا يمكن اختزاله في البلاغة، بمعنى فنّ التحدُّث أو الإقناع. لكني أعتقد أنه تَمَّ التغاضي عن الآثار المترتِّبة عن البلاغة لأجل الخطاب النقدي، بشكل عامّ. ما حاولت فعله هو ضبط التحديد البلاغي لأشكال الخطاب، واستخدام المجاز أو الكناية في الخطاب النظري والخطاب الفلسفي فوق كلّ ذلك. يجب الحفاظ على التمييز بين النظرية والخطاب، ولكن، في الوقت نفسه، يجب إعادة النظر في هذه الحدود. من الواضح أن صناعة الترفيه بأكملها، وبصفتها منظَّمة غير فردية للخطاب، تمرّ عبر الآلات الرأسمالية العظيمة التي تنطوي على البلاغة. إن إنتاج عرض كما يفعل المطربون أو السياسيون أو المحاضرون يفترض، مسبقاً، خطاباً ليس لفظياً، فحسب، بل يستعين بالإشارة، والجسد، وما إلى ذلك.

على سبيل المثال، السياسي الذي يتحدَّث اليوم على شاشة التليفزيون لمخاطبة جمهوره، يقرأ نصّاً مكتوباً، بالفعل، في أثناء النظر إلى «المتحدِّث»، ويتظاهر بالنظر إلى أعيننا: لقد تدخّلت البلاغة الخطابية لفنّ الإقناع، وتَمَّ تعديلها بوساطة هذه الآلات الجديدة. تطلب منّا الإتيقا أن نتجاوز بلاغة المشهديّ، وتفترض أن فعل مخاطبة الأمّة ينطوي على التغلُّب على أداتية الآلة الإعلامية-البلاغية. لكن، في الوقت نفسه، لا يمكن إنتاج خطاب دون المرور بجهاز الوساطة وإعادة الإنتاج: فمجرَّد إنتاج جملة يعني النحو وقواعد التركيب، وما إلى ذلك. والنحو هو تقنية تتدخَّل في الكلام، مهما كان حيوياً أو مباشراً أو أصلياً. يجب أن تذهب الإتيقا إلى ما هو أبعد من الخطابة، وتتفاوض، في الآن نفسه، حول هذا الإفراط، مع الأخذ في الاعتبار جميع الحيل البلاغية.

العلاقات بين التفكيك والهيرمينوطيقا معقّدة، أيضاً. ما يسمّى، عموماً، بـ«الهيرمينوطيقا» يشير إلى تقليد التفسير الديني الذي يمرّ عبر شلايرماخر، واللاهوت الألماني، ومصادر أخرى، وصولاً إلى غادامير، ويفترض أن تأويل النصوص يجب أن يكتشف «معناها» الحقيقي والمخفي. لا علاقة للتفكيك بهذا التقليد، بل -على عكس ذلك- تتحدّى الفكرة القائلة بأن القراءة يجب أن تكتشف، أخيراً، حضور معنى أو حقيقة خفيَّيْن في النصّ. لكن هناك، أيضاً، طريقة أخرى للتفكير في الهيرمينوطيقا، يُدركها نيتشه أو هايدغر، حيث لا يتألَّف التأويل من البحث عن آخر مثال لمعنى خفيّ، ولكن في قراءة نشطة ومنتجة: قراءة تحوّل النصّ من خلال اللعب على معانٍ متعدِّدة ومتناقضة. هذا المعنى النيتشوي للتأويل أقرب كثيراً إلى التفكيك، تماماً كما ذكر هايدغر (hermeneuin) الذي لا يسعى إلى الكشف عن المعنى المودع في النصّ، أو إلى فكّه، بل إلى إنتاجه بفعل شعري، بخلق قوّة للقراءة والكتابة.

ما هي منزلة النقد، اليوم؟ إذا كان لا ينبغي التفكير فيه إلّا على أساس أنه قوّة للتعبير. ألا يزال لشكل المفكِّر «كعامل ثقافي» معنًى؟ هل يُمنح، اليوم، إمكان التحدُّث لصالح شيء، وضدّ آخر من الفكر النقدي؟ (سيرجيو روجاس)

- دريدا: ما يشغلني، لفترة طويلة، في عملي، هو المشاركة بطريقتي الخاصّة، من مكاني في تطوير فكر نقدي يتكيّف مع عصرنا، مع إلحاحه السياسي، والأخلاقي، التاريخي، وغير ذلك، في الوقت نفسه، وهذه هي النقطة الأولى التي أودّ التأكيد عليها. يبدو لي أن هذين المفهومَيْن عن «الذاتية» و«النقد» يستدعيان أسئلة ذات طبيعة تفكيكية، ينبغي أن تزعج سلطتها، وتضعفها. من ناحية، لا أريد أن أتخلّى عن «الذاتية النقدية» في مواجهة ما يسمّى «ذاتية الموظّف» ولا عن العمل النضالي لممارسته، ولكن، من ناحية أخرى، يتطرَّق السؤال إلى البنيوية: تميَّزت البنيوية بالتشكيك في سلطة الذات، ولا يمكن للمرء أن يتحدّث بلغة بنيوية عن الذاتية النقدية. بدأت حركة التفكيك، التي لها عدد من الصلات مع البنيوية، بالتشكيك في بديهياتها؛ لا لإعادة تأهيل الذات، بل لمناقشة بعض الافتراضات المسبقة

لنقدها. يتطرَّق التفكيك إلى بعض المفاهيم الأساسية التي ما زالت سارية المفعول في البنيوية. من ناحية، هذه هي الطريقة التي ينظر بها التفكيك إلى ميراث البنيوية، ويُشكّك فيها؛ لذلك ينطبق الشيء ذاته على الماركسية.

لا يتعلَّق الأمر بتفكيك الفكرة النقدية للعودة إلى الدوغمائية السابقة للنقد، بل بإعادة تنشيط ذاكرة مفاهيمية مرتبطة بتاريخها. إن هذين المطلبَيْن المتناقضَيْن ظاهريّاً؛ وهما عدم التخلّي عن التقليد النقدي لـ«كانط» أو «ماركس» أو مدرسة فرانكفورت، على سبيل المثال، وضرورة التشكيك في حدودها، في الوقت نفسه، ليسا مطالب فلسفية أو تأمُّلية، فحسب، بل يتمّ قياسهما، أيضاً، في الممارسة السياسية اليومية. لنأخذ مثالاً على ذلك: تستدعي بعض المطالب الخاصّة بالتحرُّر الاجتماعي أو القومي أو الجنسي تشييداً تأسيسياً، واعترافاً بذاتية نقدية: أقلّيّة اجتماعية تناضل من أجل الاعتراف بهويّتها في عمل نشط للنضال السياسي. أعتقد أنه يجب دعم هذا الادّعاء بالتحرُّر، وهذا النضال من أجل الهويّة الاجتماعية، ولكن دون التخلّي عن المبادرة النقدية الأخرى لتفكيك فكرة الهويّة التي تدفعها لمنعها من أن تصبح مؤسّسية، تعطيل خلق دوغمائية جوهرية جديدة وتوتُّرات قومية، أيضاً، منذ المطالبة المشروعة بلغة أو مجموعة أقلّيّة، يمكن أن ينتهي بها الأمر إلى أن تصبح عنصرية، وتولِّد كراهية الأجانب، وما إلى ذلك. فقط، من خلال مساءلة مفهوم الذاتية على أنها هويّة الذات الحاضرة لنفسها، والمستقرّة والآمنة، يمكن للمرء أن ينتقد، بنشاط، الهويّات التي تستقرّ أو تتمأسس. عند الحديث عن هاتَيْن الحركتَيْن، لا أتحدَّث عن تحالف بين نظريَّتَيْن بل عن توتُّر نشط، لا في مجال الخطاب، فحسب، بل في مجال النضال السياسي أيضاً.

تجبرنا هذه الصعوبة على تحمُّل مسؤوليّاتنا. إذا لم نواجه هذه المهمّة المزدوجة التي تنطوي على إشارات متناقضة، فلن تكون هناك مسؤولية أو قرار، بل آلة برنامجية ومبرمجة. يجب أن يجتاز القرار أو المسؤولية اختبار التناقض وعدم القدرة على اتِّخاذ القرار. لا يوجد تناقض بين القرار، وما هو غير قابل للتقرير؛ فغير القابل للتقرير هو شرط القرار. يفترض كلّ قرار تقييماً للوضع الفردي الذي يتمّ فيه تحمُّل المسؤولية، للتوضيح والتفاوض بشأن هاتَيْن الحركتَيْن المتناقضتَيْن. لا توجد قاعدة عامّة أو ضمان مسبق. نحن، دائماً، محاصرون في فضاء يتعلَّق بالذاتية النقدية، والذاتية الرسمية أو المؤسَّسية. لا أعتقد أن هذه المعارضة تسمح لنا بالاختيار بين الاثنين، فلا توجد مناطق جامحة من اللامؤسسية.

أعتقد أنه يجب بذل كلّ ما في وسعنا -باسم النقد التحرّري؛ لتجنُّب أن نصير مثقَّفي دولة أو مثقَّفين عضويِّين أو موظَّفين، أو حتى «وكلاء ثقافيِّين». نحن، في الواقع، نشارك -حتماً- في كلّ ما نرفضه: الأمر لا يتعلَّق بإنكار هذا الوضع، بل بالقيام بعمل يزعج أو يعطِّل النسق المهيمن للثقافة. أنا أكره كلمة «ثقافة» لأنها محيِّرة. وبالنسبة إليّ، الفلسفة والفكر هما شيء آخر، هو عكس ما يسمّى «الثقافة». ومع ذلك، إن الثقافة لديها القدرة على استعادة كلّ ما هو وراءها، باستمرار، وعلى الرغم من عدم وجود شيء يقف في طريق الثقافة أكثر من التفكيك، يجب أن أعترف أن هناك ثقافة تفكيكية، وتأثيرات ثقافية للتفكيك؛ لذلك، لا يتعلَّق الأمر بالانتفاضة ضدّ المؤسَّسات، بل يتعلَّق بتحويلها، من خلال النضالات، ضدّ الهيمنة أو السيطرة أو الغطرسة في كل مكان؛ حيث يتمّ تنصيبها، وإعادة إنشائها.

سؤال آخر عن أطياف ماركس: في بداية كتاب «الثامن عشر من برومير لويس بونابرت»، يقول ماركس: كتب هيجل أن التاريخ يعيد نفسه، لكنه نسي أن يضيف أنه يكرِّر نفسه مرّتين؛ الأولى كمأساة، والثانية كمزحة. فيما يتعلَّق بهذه البداية من وقوع الأحداث في نصّ ماركس، يتبادر إلى ذهني أن أتساءل: لماذا «أطياف» ماركس لا ماركس «بصفته عائداً» مثل الطيف، مثل الظهور مرّة أخرى؟ (جوستو ميلادو باستور)

- دريدا: أعتقد أن عنوان الكتاب «أطياف ماركس» يعني كلّاً من الأطياف التي يتحدَّث عنها ماركس في عمله، والصور الطيفية المختلفة لماركس نفسه التي تظهر اليوم، مرّةً أخرى، في عدّة مناسبات. ما أودّ تذكّره هو اهتمامي الطويل الأمد بالطيفية والأشباح الموجودة، بالفعل، في نصوصي الأولى، والتي لا تنفصل عن اهتمامي بالتقنية. يفتح تطوير التقنيات والاتِّصالات السلكية واللاسلكية، اليوم، مساحة لواقع طيفي. أعتقد أن هذه التقنيات الجديدة، بدلاً من قمع الشبح -لأننا نعتقد أن العلم يطرد الوهم- تفتح المجال لتجربة الطيفية التي لا تكون فيها الصورة مرئية أو غير مرئية، محسوسة أو غير محسوسة. وكلّ هذا يمرّ بتجربة حداد لطالما ربطتها بمسألة الطيفية التي نواجه فيها الأثر، والمتواري، واللاّحضور. أنا أصرّ كثيراً على مسألة الإعلام وتحويل الفضاء العامّ من خلال تقنيات الوسائط المتعدّدة الجديدة التي هي آلات لإنتاج الأطياف. لا يوجد مجتمع يمكن فهمه، اليوم، بلا هذه الطيفية الإعلامية، أو من غير الإشارة إلى الموتى والضحايا والمختفين الذين يشكّلون خيالنا الاجتماعي. لا يوجد تحليل سياسي للحقل الاجتماعي، ما لم تحدّده هذه الوفيات.

المصدر:

Revista de Cultural Critica , novembre 1995.

عن الضّيافة

جاك دريدا: لا تُختَزل الضيافة ببساطة، في الاستخدام الذي يوظّفه «ليفيناس» لهذا المصطلح، على الرغم من أنها كذلك أيضاً، من أجل: ترحيبه بالغريب في منزله، وفي وطنه، وفي مدينته. من اللحظة التي أنفتح فيها على الغير، أنا «مضيف»؛ توظيفاً لمصطلح «ليفيناس» للإشارة إلى الآخر، فأنا تحت تصرُّف (لجوء) حتى في الحرب، والرفض، وكراهية الأجانب تعني أنه عليّ التعامل مع الآخر، و -من ثَمَّ- أنا منفتح، بالفعل، على الغير، والانغلاق ليس أكثر من ردّ فعل على الانفتاح الأوّل.

أخبركم إيمانويل ليفيناس بالكثير. وقد نشرتم الخطاب التأبيني الملقى في جنازته، الذي كان أيضاً دراسة عن عمله الفكري، بعنوان (وداعاً، إيمانويل ليفيناس)، ذلك الخطاب المثير للدهشة في علاقته بليفيناس (فيلسوف الآخر) قبل كلّ شيء. قد نقول إن الآخر سيبقى، دائماً، شخصاً آخر، حتى لو تخيّل المرء الآخر أنه هو نفسه، وحتى لو كان أحدهم تخيّل الآخر كآخر، بصفته واحداً، فهناك دائماً بقايا من الغيرية لا يمكن أن تُحاط بالكامل، أبداً. هذه نقطة أساسية بالنسبة إليكم، الآن...

- دريدا: فكر «ليفيناس» هو فكر عظيم عن الآخر. يجب أن أقول، قبل محاولة الإجابة عن سؤالك، إن بعض المفردات، في الوقت الحالي، أصبحت مزعجة بعض الشيء، من قبيل: «الآخر»، و«احترام الآخر»، و«الانفتاح على الآخر»، وما إلى ذلك. هناك شيء أصبح ميكانيكياً في هذا الاستخدام الأخلاقي لكلمة «الآخر»، وفي بعض الأحيان، يوجد، أيضاً، في الإشارة إلى «ليفيناس»، شيء كان ميكانيكياً إلى حدّ ما، وسهلاً بعض الشيء (ويقود إلى التقوى والفضيلة) لسنوات عديدة؛ لذلك أودّ، باسم هذا الفكر الصّعب، أن أعترض على هذا التبسيط.

باسم فكر الآخر؛ أي عدم قابلية الآخر للاختزال اللانهائي، حاول «ليفيناس» إعادة التفكير في التقليد الفلسفي بأكمله. مشيراً بمثابرة وإصرار عنيد، إلى ما لا يزال غير قابل للاختزال في الآخر، أي الآخر بلا حدود. تساءل عمّا يسمّيه (الأنطولوجيا)، وأعاد تسميتها، على أنها فكرة تنتهي، دائماً، باسم الكينونة، باختزال هذه الآخرية، منذ «أفلاطون» إلى «هايدغر»؛ كما عارض هذه الأنطولوجيا ضمن ما يسمّيه، بطريقته الخاصّة (الميتافيزيقية)أو (الفلسفة الأولى)، وإعادة هيكلة هذه الفلسفة التي تستمدّ جميع نتائجها من التعالي اللامتناهي للآخر. من وجهة نظره تلك، تمتّع ليفيناس بعلاقة غير وفيّة مع الأنطولوجيا؛ ما جعل تفكيره أحد أكبر الصدمات في عصرنا. لازمتني هذه الفكرة طوال حياتي. بطبيعة الحال، كانت هناك تفسيرات وبدايات؛ ربَّما، إن لم تكن الخلافات، والتحوُّلات التي لطالما جعلتني تحت وطأة الدّهشة، على الأقلّ.

هل يمكن أن تشرح لنا كيف أن هذه المسافة اللامتناهية مع الآخر، اللامعرفة غير القابلة للاختزال للآخر، هي عنصر صداقة، وضيافة، وعدالة بالنسبة إلى ليفيناس؟

- بالإشارة إلى الحسّ السليم البسيط -إذا جاز التعبير-، لا يمكن أن تكون هناك سوى صداقة أو ضيافة أو عدالة حيث تؤخذ فيها آخريّة الآخر بعين الاعتبار، كآخريّة مطلقة ولانهائية وغير قابلة للاختزال في آن معاً، حتى لو كانت في ما لا يُحصى. يذكّرنا ليفيناس بأن اللّغة، أي الإشارة إلى الآخر، هي، في جوهرها، صداقة وضيافة. ومن جانبه، لم تكن هذه الأفكار سهلة: عندما تحدّث عن الصداقة والضيافة، لم يستسلم لـ «المشاعر الطيّبة».

مع ذلك، إن مصطلح الضيافة ليس واضحاً كما يبدو، ويمكنك شرحه بنفسك من خلال العودة إلى الجينيالوجيا الخاصّة بكم، لا سيَّما مع تحليلات بنفنست. يبدو لي أن ليفيناس حاول الانفصال عن مفهوم محتمل للضيافة، والتي يربطها بالحقّ، أي بمفهوم (الماهو)، و(الأنا) المضياف الذي يتولّى السلطة على الآخر.

- لا تُختَزل الضيافة ببساطة، في الاستخدام الذي يوظّفه «ليفيناس» لهذا المصطلح، على الرغم من أنها كذلك أيضاً، من أجل: ترحيبه بالغريب في منزله، وفي وطنه، وفي مدينته. من اللحظة التي أنفتح فيها على الغير، أنا

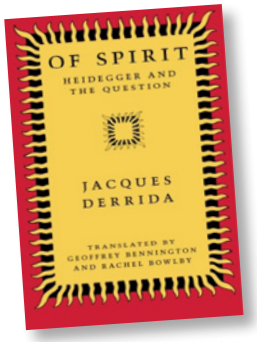


«مضيف»؛ توظيفاً لمصطلح «ليفيناس» للإشارة إلى الآخر، فأنا تحت تصرُّف (لجوء) حتى في الحرب، والرفض، وكراهية الأجانب تعني أنه عليّ التعامل مع الآخر، و -من ثَمَّ- أنا منفتح، بالفعل، على الغير، والانغلاق ليس أكثر من ردّ فعل على الانفتاح الأوّل.

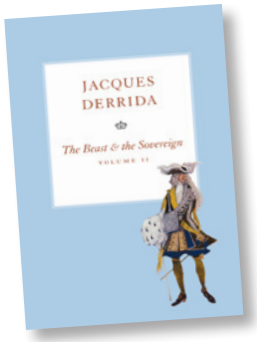
من هذه الرؤية، تكون الضيافة هي الأولى. أن أقول إن هذا هو الأوَّل يعني أنه حتى قبل أن أكون نفسي، هو ومَنْ أكون وما أنا عليه، أعتقد أن انفصال الآخر يجب أن يكون قد أسّس لهذه العلاقة مع نفسي؛ بعبارة أخرى، لا يمكنني أن أكون على علاقة مع نفسي ذاتها، مع «كينونتي فيّ»، إلّا بقدر ما سبق انفصال الآخر عن (أنايَ) الخالصة. لهذا السبب، في مسار «ليفيناس»، ما أحاول إعادة تشكيله، بطريقة معيَّنة، في هذا الكتاب الصغير، هو نقطة البداية، وهي فكرة الاستقبال/الترحيب، وهو الموقف الأوَّل للذات تجاه الآخر؛ من فكر المضيف إلى فكرة الرهينة. أنا، بطريقة ما، رهينة الآخر، وحالة الرهائن هذه التي أكون فيها، بالفعل، ضيفاً للآخر من خلال الترحيب بالآخر عندي، حيث أكون ضيفاً لـ /أو /على آخر، يحدّد هذا الوضع الرهينة مسؤوليّتي الخاصّة. عند الكلام عن «أنا هنا»، أنا مسؤول أمام الآخر، «أنا هنا» تعني أنني، بالفعل، فريسة للآخر («الفريسة» هي تعبير ليفيناس). إنها علاقة متوتِّرة. هذه الضيافة ليست بسيطة وهادئة. أنا فريسة للآخر، والرهينة الأخرى، ويجب أن تستند الإتيقا على بنية هذه الرهينة.

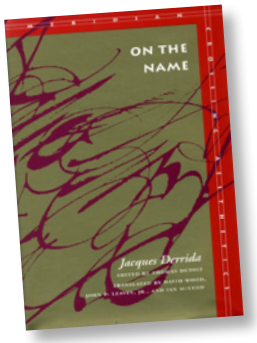
نحن نفهم، من خلال الاستماع إليها، ما يميِّز هذه الفكرة عن فكرة المشاعر الطيِّبة. لكن، ألا تعطي كلمات الاحترام للآخرين وصفاً أفضل لفكر «ليفيناس»؛ احترام الآخريّة بقدر ما تكون الآخريّة، دائماً، أمراً يبعدني؟

- لهذا المفهوم تاريخ فلسفي طويل. عندما تحدّث «كانط» عن الاحترام، تحدَّث عن احترام القانون، لا احترام الآخر؛ فحسب. احترام الإنسان، بالنسبة إلى «كانط»، ليس مثالاً وحيداً؛ الإنسان هو مثال واحد، فقط، من القانون الذي يجب أن أحترمه. بالنسبة إلى «ليفيناس»، إن مفهوم الاحترام، قبل أن يكون وصيّة، يصف حالة المسافة اللّامتناهية التي كنّا نتحدَّث عنها: الاحترام هو النظرة، والنظرة عن بعد. كما تعلمون، يعيد «ليفيناس» تعريف الشخص، والأنا، والآخر بصفتها وجوهاً. ما يسمّيه الوجه، سواء في التقاليد اليهودية أو وفقاً لمصطلحات جديدة، يستحقّ الاحترام. منذ اللحظة التي أكون فيها، بالنسبة إلى وجه الآخر، حين أتحدَّث إلى الآخر، وفيها أستمع إلى الغير، يكون بُعد الاحترام مفتوحاً؛ لذا، على الأخلاق أن تتماشى مع هذا الموقف، بالطبع، وأن تقاوم كلّ أشكال العنف التي تتكوّن من











قمع الوجه، أو تجاهله، أو تقليل الاحترام لحامله.

هناك مصطلح (ليفيناسيّ) آخر، قمتم بتحليله في هذا العمل، هو مصطلح «السلام». ومفهوم السلام، بدوره، يأتي، أوّلاً، مثله مثل مفهوم الضيافة.

- لنفترض أن السلام، بالنسبة إليه، يأتي أوّلاً، تماماً، مثل الضيافة والصداقة؛ إنها بنية اللّغة الإنسانية ذاتها. هذا لا يستبعد الحرب، ويبدو أن «ليفيناس» يقبل بإمكان حدوث الحرب. عندما يعارض دولة داود ضدّ دولة قيصر، فإنه يقبل هذا الاحتمال. إنه في علاقة تناقض أو انسجام مع الموقف (الكانطي): بالنسبة إلى «كانط»، إن الحالة الأصلية للعلاقات بين البشر، في الحالة الطبيعية، هي علاقة حرب؛ لهذا السبب، يجب أن يكون السلام مؤسَّسة، يجب أن يتمّ بناؤه كمجموعة من الأدوات، ومن المشاريع الثقافية، بطريقة معيَّنة (سياسية بشكل خالص)، للحدّ من هذا العداء الأصلي.

مع «ليفيناس»، يحدث العكس بطريقة ما: إنها مسألة منّة على السلام الأوّل، والاعتراف بهذا السلام الأوّل من أجل محاولة للتوجُّه نحو سلام أخرويّ نوعاً ما، من خلال الحرب، أحياناً. إنها لفتة تختلف عمّا قام به «كانط»، وفي الوقت نفسه مماثلة لها، لأن «كانط» يريد، أيضاً، من خلال المؤسَّسة (مؤسَّسات السلام العالمي، ومعاهدات السلام العالمية، على سبيل المثال) إعادة اكتشاف كرم الضيافة عالمياً. شرح «كانط» أن القانون الطبيعي -على الرغم من وجود حالة حرب في الطبيعة- يعني، ضمناً، ضيافة عالمية: لا يمكن أن يتشتّت البشر بشكل لا نهائي على سطح الأرض؛ و -من ثَمَّ- يجب أن يتعايشوا؛ لذلك، في كلتا الحالتين، هناك سلام شامل ودائم في أفق التاريخ. في هذه المرحلة، يتقاطع «كانط» و«ليفيناس»، كما يحدث غالباً، من خلال الكيازم.

أنتم تشتغلون على السياسي، وأنتم تفعلون ذلك بشكل متكرّر لتعطيل المفاهيم التقليدية: أفكر، قبل كلّ شيء، في مفهوم الكونية أو التسامح، الذي تعتبرونه غير مرض، والذي كان، مع ذلك، مهمّاً جدّاً للتنوير، لكنه، اليوم، غير كافٍ؛ في مفهوم الإخاء، الذي تنتقده، أيضاً، لأنه يطمس ديموقراطية معيَّنة قادمة. أودّ لو تخبرنا عن هذه الطريقة في إزعاج المفاهيم التقليدية بشكل مفرط.

- هذه، بالفعل، ثلاث عقد أساسية. بالطبع، أدعو إلى مزيد من الكونية. الكونيون من كلّ البلدان .. جهد إضافي.. يلعب مع ساد، وماركس، وهذا يعني أننا لسنا، بعد، كونيّين بما يكفي، وعلينا أن نفتح الحدود؛ لكن الكوزموبوليتانية، في الوقت نفسه، ليست كافية. الضيافة التي كانت تنظّمها الدولة، ببساطة، من خلال العلاقة مع بعض المواطنين، على هذا النحو، لا تبدو كافية. الاختبار؛ التجربة الرهيبة لقرننا، كان (ومايزال) تهجيراً لأعداد كبيرة من السكّان الذين لم يشكّلوا صفة مواطنين، والذين لم تكن قوانين الدول القومية كافية لهم؛ لذلك، يجب أن تتكيّف أخلاقنا الترحيبية، سياستنا الترحيبية، مع ما وراء الدولة، و -من ثَمَّ- يجب أن نتجاوز الكونية. في قراءة لكانط، أحاول أن أوضّح إلى أيّ مدى تُعتَبر كوزموبوليتانيةُ كانط العالمية شيئاً رائعاً، يجب أن نتَّجه نحوه، ولكن يجب أن نعرف، أيضاً، كيف نتجاوزه.

بخصوص التسامح؛ حاولت أن أبيّن، في ملاحظة قصيرة، إلى أيّ مدى أُشير إلى مفهوم التسامح، الذي يحظى لديّ باحترام كبير، بالطبع، مثل أيّ شخص آخر، في النصوص التي تدمجه. على سبيل المثال، في «فولتير»، من قبل تراث مسيحي. إنّ التقليد مفهوم مسيحي، محترم بهذا المعنى، لكنه قد يكون غير كافٍ -ربّما- من منظور الضيافة أو الانفتاح على ثقافات معيَّنة أو مساحات لا يهيمن عليها الفكر المسيحي. سيقال الشيء نفسه فيما يتعلق بالإخاء. إنني أكِنّ احتراماً كبيراً للإخاء، فهو سبب كبير للشعار الجمهوري، حتى لو ظهر، في أثناء الثورة، كثير من المشاكل لجَعْل قبول الإخاء أمراً مسيحياً صرفاً.

لقد حاولتُ، في سياسات الصداقة، أن أسائل مفهوم الإخاء بشكل مزعج؛ لعدّة أسباب: أوّلاً، لأنه متجذّر في الأسرة، مع الجنيالوجيا، مع الأصالة؛ ثانياً، لأنه يتعلّق بمفهوم الأخوّة، وليس عن الأخوّة، أي أنها تؤكّد على هيمنة ذكورية، و -من ثَمَّ- بقدر ما يدعو إلى التضامن البشري بين الإخوة لا الأخوات، يجب أن يلهمنا بعض الأسئلة، وليس المعارضة فقط. ليس لدي أي شيء ضدّ الأخوّة، لكني أتساءل عمّا إذا كان الخطاب الذي تهيمن عليه القيمة التوافقية للأخوّة، ليس له تضمينات مشبوهة. (الأخوّة، الإخاء، التآخي).

تستمرّون في توضيح قانون غير مشروط للضيافة اللامحدودة، في كتابكم عن الضيافة. ولكن، عندما يتمّ تنفيذ هذه الضيافة، أحياناً، في القوانين أو القانونية، أي في القانون، سنتموقع في نطاق محدود، في نظام الحقوق والواجبات التقليدية. مع ذلك، بين القوانين التي تفرض قيوداً، بالضرورة، على الضيافة والقانون اللامحدود، يجب أن نسعى لإيجاد شيء يوفّر اللعب، ووسيلة للتدخُّل.

- هذه «اللعبة» هي مكان المسؤولية. على الرغم من حقيقة أن لامشروطية الضيافة يجب أن تكون لانهائية، و -من ثَمَّ- غير متجانسة مع الظروف التشريعية، والسياسية، وما إلى ذلك، وهذا التباين لا يعني المعارضة. لكي تتجسّد هذه الضيافة غير المشروطة، لكي تصبح فعّالة، يجب تحديدها، وهي، تؤدّي، من هنا، إلى اتّخاذ تدابير عملية، لسلسلة من الشروط والقوانين، التي لا تنسى فيها التشريعات المشروطة حتمية الضيافة التي تحدَّثتم عنها. (هناك لاتجانس بدون معارضة، لاتجانس وما لا يمكن فصله).



لهذا السبب، يجب أن نميّز، باستمرار، مشكلة الضيافة، بالمعنى الدقيق لمشكلة الهجرة، والسيطرة على تدفّقات الهجرة: ليست مسألة لها البعد ذاته، حتى لو كان الاثنان لا ينفصلان. يتمثّل الابتكار السياسي، والقرار السياسي، والمسؤولية في إيجاد أفضل التشريعات أو أقلّها سوءًا. هذا هو الحدث الذي يجب ابتكاره في كلّ مرّة. من الضروري أن نبتكر في وضع متماسك ومحدّد. على سبيل المثال، في فرنسا، اليوم، هناك أفضل تشريع حتى يتمّ احترام الضيافة على أفضل وجه. هذا هو المكان الذي يدور فيه النقاش السياسي، والبرلماني بين جميع القوى الاجتماعية. لا توجد معايير مسبقة، ولا أيّ قاعدة أوّلية؛ هناك، عليك أن تبتكر القواعد الخاصّة بك. هذا هو المكان الذي تتصادم فيه جميع القوى الاجتماعية، والسياسية، لتحديد ما يعتبره الجميع أفضل معيار.

العدل لا ينفصل عن القانون؟

- وهذا ما حاولت أن أبيّنه في الواقع؛ أي أن العدالة كانت غير حاسمة أمام القانون، وأن هناك تجاوزاً للعدالة فيما يتعلّق بالقانون، لكن هذا يتطلّب أن تكون العدالة ملموسة وفعّالة، أن تتجسّد في القانون والتشريع. بطبيعة الحال، لا يمكن لأيّ قانون أن يكون مناسباً للعدالة، و -من ثمّ- يوجد تاريخ للقانون؛ ولهذا السبب تتطوّر حقوق الإنسان، ولهذا السبب يوجد تحديد وإمكانات لا نهاية لها، بدون نهاية للقانوني، على وجه التحديد، لأنّ نداء العدالة لانهائي. (هناك، مرّة أخرى، العدل والقانون غير متجانسَيْن، ولا ينفصلان،وكلّ منهما بحاجة إلى الآخر).

لقد تطرَّقتم إلى مسألة اللغة عدّة مرَّات. يقال إن الحَدّ الأدنى هو مراعاة الاختلاف في اللُّغات الموجودة عند الأجانب، حينما نريد التحدُّث عن الضيافة. عندما نقرأ لكم، في البداية، بطريقة بسيطة للغاية، يبدو أن الأمر يتعلَّق بمسألة اللّغة المنطوقة، فقط، وأنه يجب ترجمة هذه اللّغة. في الواقع، يتعلَّق الأمر، أيضاً، بمسألة النماذج الثقافية وأنواع التدخُّل، مع مراعاة تراث مختلف عن تراثنا. إن الإصغاء إلى الآخر، والعودة إلى «ليفيناس»، في مجملها، في آخَريَّتها، يعني مراعاة تراثها في آخَريَّتها الكلّيّة، بما في ذلك الآخَريّة اللغوية.

- مشكلة درامية. إن الحفاوة بالآخر، في لغته، تعني -بطبيعة الحال- أخذ لغته بعين الاعتبار، وليس مطالبته بالتخلّي عن لغته، وكلّ ما تجسّده من الأعراف والمعايير والثقافة (ما نسمّيه ثقافة)، والعادات، وغير ذلك.. اللّغة جسد، لا يمكننا أن نطلب من الآخر التخلّي عنها... إنها تقليد، ذكرى، أسماء العلم. يبدو من الصعب، اليوم، ومن الواضح، أيضاً، مطالبة دولة قومية بالتخلّي عن مطالبة المرحَّب بهم بتعلّم لغتها، وثقافتها بطريقة معيَّنة.

إنه النموذج الاندماجي السائد، في فرنسا، اليوم، من جهتَي اليسار واليمين. يقال إنه من الجيّد الترحيب بالأجنبي، ولكن شريطة الاندماج، أي أن يعترف الأجنبي أو المهاجر أو المواطن الفرنسي الجديد بقيَم العلمانية والجمهورية، واللّغة، والثقافة الفرنسية. يجب إيجاد القرار الصّائب، مرّة أخرى، بين فائض النموذج الاندماجي الذي سينتهي به الأمر، ببساطة، إلى محو كلّ غيرية، من خلال مطالبة الآخر بالنسيان، فما إن يصل حتى ينسى كلّ ذاكرته، وكلّ لغته، وكلّ ما فيها. الثقافة، والنموذج المعاكس يتمثّلان في الاستسلام الذي يتطلّب أن يتعلّم الوافد لغتنا.

وهكذا، سواء في المجال السياسي أو في مجال الترجمة الشعرية أو الفلسفية، إن الحدث المراد ابتكاره هو حدث للترجمة. لا توجد ترجمة في تجانس لا لبس فيه، ولكن اجتماع اللُّغات المتَّفق عليها والمقبولة، دون إعطاء أكبر قدر ممكن من تفرُّدها، يعدّ اختياراً صعباً في جميع الأوقات.

هامش:

حوار مُتَلفَز مع جاك دريدا على «فرانس كولتور». إنتاج أنطوان سبير، (19) ديسمبر (1997)

المصدر:

Jacques Derrida, Sur Parole: instantanés philosophiques, éditions de l'aube, 1999.

مفكّر الحدث

ثراء كتابيّ يتاخم ثمانين مجلَّداً. إنّ العمل الذي طوّره «جاك دريدا» منذ ما يقارب أربعة عقود، يُعتَرف به، اليوم، في جميع أنحاء العالم؛ باعتباره أحد المكوِّنات الأساسية لحداثتنا الفلسفية. «التفكيك»، وفقاً للاسم ذاته الذي أطلقه المفكِّر على عمله، يتجاوز الإطار الصارم للدراسة الأكاديمية: حين تتعلَّق كتبه بنصّ أفلاطون، ونصّ القانون الدولي. ومع ذلك، فهذه كلمة السرّ: كن منفتحاً على ما سيأتي، لما سيأتي، على الآخر.

منذ عقد ونيفٍ، لقيت كتبكم استقبالاً في المجال السياسي. مثل الكتب التي تُفتَح، أحياناً، على سياسة الصداقة، وأحياناً حول سياسة الذاكرة، أو حتى على سياسة الضيافة. كيف تفهمون مصطلح السياسة؟

- دريدا: سأجيب، بالضرورة، بشكل تخطيطي وتيليغرافي: إذا كانت نصوصي، لفترة طويلة، تُعدُّ محايدة سياسياً (بينما كانت تحيُّزاتي اليسارية معروفة)؛ فذلك لأنني كنت، دائماً، منتبهاً للسياسة، ولم أتعرَّف إلى نفسي، ولم أدرك ما أريد أن أفكّر فيه، وهي القوانين السياسية المهيمنة؛ وهو ما يفسِّر لماذا لم أقم، مطلقاً، لفترة طويلة، بقول كلمة واحدة ضدّ «ماركس»، كما لم أقل كلمة واحدة لصالحه، بينما بقيت منتبهاً جدّاً لما كان يحدث في هذا الجانب. ومع ذلك، كنت منفتحاً على إتاحة خطاب سياسي يأخذ في الاعتبار عمل التفكيك الذي شرعت فيه. انتظرت أن أكون قادراً على التعبير عن عملي في التفكيك، بمفهوم متجدّد للسياسة.

بالنسبة إليَّ، بدا هذا ممكناً عندما انهارت ما تسمّى الأنظمة الشيوعية، وعندما تأكَّد موت «ماركس» في كلّ مكان. اعتقدت أنه كان غير عادل، وضارّاً سياسياً، وخطيراً. أطياف «ماركس» هو كتاب معقَّد ومتعدِّد الطبقات، ومتناقض بشكل متعمَّد، ليس «لأجل» «ماركس» فقط، بل بطريقته الخاصّة، أيضاً، لـ«ماركس». منذ ذلك الحين، سعيت، في جميع أنواع الكتب والخطَب والتعاليم، للتفكير في ما يمكن أن تكون عليه أممية جديدة، مع مراعاة العولمة والمشاكل الجديدة للسيادة، وكلّ ذلك في السياسي، في عملية الانفصال عن قلب السياسة: الدولة القومية الإقليمية المرتبطة، بطريقة أساسية، بالجذور القومية. إنها مسألة إعادة التفكير، لا في السياسة، بل في السياسيّ نفسه، وفي القانون الدولي، وتوازن القوى، لتحليل وفهم الهيمنة الأميركية، والوهن النقدي والمتناقض للولايات المتَّحدة الأميركية أيضاً، والأماكن الجديدة، والطرق الجديدة لتنظيم الحركات السياسية، ولتغايرية في حراك قوى العولمة البديلة، التي أعتقد أنها ستقرّر مستقبل «العالم».

عند القراءة، يبدو أن شبحاً آخر يطارد نصوصكم، وبعض المفاهيم التي تطوِّرونها من الإتيقا، مثل: العدالة، والصّفح، والضيافة.

- بطريقة ما، كانت الأسئلة الإتيقية موجودة دائماً. لكن، إذا كنّا نعني بالإتيقا نظاماً من القواعد والمعايير الأخلاقية، فعندئذ لا أقترح إتيقا؛ فما يهمُّني، في الواقع، هو أپوريات[1] الإتيقا، وحدودها، لا سيَّما حول مسائل الهبة، والصفح، والسرّ، والشهادة، والضيافة، عن الحيّ - الحيوان أم غير ذلك. كلّ هذا يعني فكرة اتّخاذ القرار: يجب أن يتحمّل القرار المسؤول لا أن يمرّ، أو يتجاوز تجربة غير قابلة للتقرير، فحسب. إذا كنت أعرف ما عليّ فعله، فأنا لا أتَّخذ قراراً، أو أطبِّق المعرفة، أو أنشر برنامجاً. لكي يكون هناك قرار، يجب ألّا أعرف ماذا أفعل.

هذا لا يعني أن نتخلّى عن المعرفة: يجب أن نعلّم أنفسنا، ونعرفها قدر الإمكان، ومع ذلك، إن لحظة القرار، واللحظة الإيتيقية -إن صَحّ التعبير- مستقلّة عن المعرفة. يُطرح السؤال الأخلاقي في لحظة «لا أعرف ما هي القاعدة الصحيحة». ما يقلقني، إذاً، هو هذه اللحظة الأخلاقية المضادّة (إيتيقيّاً) للإتيقا، هذه اللحظة التي لا أعرف فيها ماذا أفعل، عندما لا تكون لديّ معايير متاحة، لكني أشارك لأخذ حيّز من العمل والحركة لعمل مسؤولياتي، وتحمُّلها.

عاجلاً، ودون انتظار. ما أفعله هو لا إيتيقي بقدر ما هو إيتيقي. أشكّك في الاستحالة كاحتمال للإتيقا: الضيافة غير المشروطة مستحيلة، في مجال القانون أو السياسة، وحتى الإتيقا بالمعنى الضيِّق. ومع ذلك، المستحيل هو ما يجب القيام به؛ إذا كان الصّفح

ممكناً، فعليه أن يصفح عمّا يتعذّر على الصفح، أي فعل المستحيل. إن القيام بالمستحيل لا يمكن أن يكون إتيقا، ومع ذلك هو شرط من شروطها. أحاول التفكير بإمكانية المستحيل.

تقولون «إمكانية المستحيل»؛ هذه، أيضاً، الطريقة التي تُعرّف بها التفكيك. الآن، لا يسع المرء إلّا أن يفكّر، عند قراءة هذا، في الهجمات الإرهابية على الولايات المتَّحدة في سبتمبر/أيلول (2001). في كتاب سيتمّ نشره، مفهوم (11) سبتمبر، تكتب أن ما حدث يهدد الجميع مرّة واحدة « نظام التأويل، والبديهيات، والمنطق، والبلاغة، والمفاهيم والتقييمات التي من المفترض أن تجعل من الممكن فهم وشرح شيء مثل (9/11)، بدقّة. نريد أن نعود إليكم، هذا فيما يتعلّق بأحد الأسئلة التي تطرحونها: «هل نكسر طبلة أذن الفيلسوف، ويستمرّ في سماعنا؟»

- ربّما، أرغب في تفجير طبلات آذان الفلاسفة، دون أن تنفجر الفلسفة في كلّ ذلك. ما يهمّني يجب أن يُسمع من مكان فلسفي، لكن دعنا نترك ذلك. للرجوع إلى السؤال الملموس الذي تطرحه، أعتقد أن المفاهيم التي تَمَّ التلاعب بها، والتي كانت مفيدة في تأويل (9/11)، هي، بالفعل، مفاهيم تخضع، الآن، إلى تفكيك جذري، وهو ليس تفكيكاً نظرياً أو تفكيكاً عملياً. إنه قيد التقدّم، كما أقول في كثير من الأحيان «ما يحدث/ما يأتي»: ذريعة الحرب على الإرهاب لا تصمد، لأن مفاهيم الحرب والإرهاب لم تعد قائمة. وقد أشار إلى ذلك الأمين العامّ للأمم المتَّحدة «كوفي عنان» خلال جلسة واحدة: ليس لدينا تعريف صارم للإرهاب الدولي. وينطوي مفهوم الحرب، في القانون الأوروبي القديم، على صورة الدولة للأعداء، وإعلان الحرب من لدن دولة على أخرى. وليس هذا ما هو الحال عليه. لا حرب دولية، ولا حرب أهلية. حتى مفهوم «حرب العصابات» الذي اقترحه «كارل شميت» يفتقر إلى الأهمّيّة. «الإرهابيون» (من نوع القاعدة) لا يمثّلون دولة (فعلية أو افتراضية)، ولا إرادة لتأسيس دولة أو استعادتها. في أحداث يوم (11) سبتمبر/أيلول، لا يوجد شيء من هذا القبيل. كلّ الأجهزة المفاهيمية التي نستخدمها لم تعد تعمل كالعادة.

لا حرب ولا إرهاب كما قلنا، لكن المعارضات المفاهيمية مثل الوطني / الدولي، والمدني/ العسكري، لا تعمل أيضاً. كلّ هذا يحتاج إلى إعادة تشكيل. وليس لديَّ ظنون في أنها ستكون طويلة وتدريجية، مع تفاوتات واسعة في التنمية، كما اعتدنا أن نقول في البلاغة الماركسية. نهاية الدولة، وزوال الرغبات في السيادة ليس ليوم غدٍ، بل يؤثّر في عالمنا. ما لا يمكن التنبُّؤ به، كما هو الحال دائماً، هو الزمن، أو -بالأحرى- إيقاع هذه الطفرات الحتمية.

الولايات المتَّحدة هي مرفأ رحّبَ بكم كثيراً. هل هناك أسباب محدّدة لهذا؟

- لقد سافرت كثيراً، إلى بلدان كثيرة، لا إلى الولايات المتَّحدة، فحسب. أودّ التحرّر من هذه الصورة «الأميركية»، فهي لا تتوافق مع الواقع، بل مع رغبات أو مصالح القلّة، فقط. يجب أن نتحدَّث، أيضاً، عن جميع القارّات، وجميع دول أوروبا. السنة الأولى التي قضيتها في الولايات المتَّحدة (1955 - 1956) كانت طارئة: تحصَّلت فيها على منحة بفضل مدير المدرسة العليا للذهاب إلى هارفارد، ثم عدت إلى الولايات المتَّحدة بعد عشر سنوات، بدعوة من «رينيه جيرار» لحضور ندوة. المحاضرة التي ألقيتها، آنذاك، كانت حول نقد البنيوية، وكان لها وقع القنبلة. لقد لامسنا هناك، عن خطأ أو عن صواب، أوَّل إشارة لما يسمّيه الأميركيون، منذ ذلك الحين (ما بعد البنيوية). دُعيت إليها مرّةً أخرى، ثلاث مرّات متتالية، لثلاث سنوات. وأخيراً، طلبت مني «جامعة ييل»، ثم «جامعة إرفين» في كاليفورنيا ونيويورك، إلقاء حلقات دراسية لمدّة أسابيع قليلة، ولمرّة واحدة في السنة. لم أُقِم، أبداً، لفترات طويلة في الولايات المتَّحدة. بعد قولي هذا، كان استقبال عملي في الولايات المتَّحدة، بالفعل، أكثر سخاءً، وأكثر انتباهاً، كما هو الحال في أيّ مكان آخر، فقد واجهت رقابة أقلّ، وحواجز وصراعات أخفّ حدّةً، مقارنةً بفرنسا.

حتى لو كان التفكيك موضوع معارك ضارية في الولايات المتَّحدة، لكن النقاش كان أكثر انفتاحاً من نظيره في فرنسا، وهو ما ترك لي مساحة أكبر. أخيراً، بفضل أو بسبب تاريخ الجامعة الأميركية، غالباً ما كنّا نعمل هناك، بشكل جيّد، وسريع جدّاً، على أيّ حال، ضمن الدوائر الأكثر ألفةً بالنسبة إليّ.

بلد آخر، ميّزَ وجودكم، هو الجزائر. لقد ولدتم، وترعرعتم هناك. منذ مغادرتكم مدينة الجزائر عام (1949)، مرّت هذه البلاد بأزمات اجتماعية، وسياسية متعدِّدة. ما علاقتكم، اليوم، بهذه الأرض الأولى؟

- توضيح أوَّل للحكاية، وبدقّة: لم أفارق ضاحيتي «الأبيار» في الجزائر العاصمة، إلى أن بلغت التاسعة عشرة من عمري. لم أكن أعرف «العاصمة/الميتروبول»، على الإطلاق. الحكاية الأخرى: في أعقاب عام (1996)، خصّص برلمان الكُتاب إحدى جلساته للجزائر، وهو البرلمان الذي شاركت في تأسيسه، وشغلت فيه منصب نائب الرئيس في ستراسبورغ. قبل ساعة من المناظرات، كان المتحدّثون مجتمعين في غرفة المعيشة، وإلى جانبي شابّة جزائرية، تسألني: «هل عشت في الجزائر،

شارع أوريل دو بالادين؟ (?rue d'Aurelles-de-Palladine)» - نعم. -«في 13؟» - نعم.- «أنا أيضاً». تقدّم الشابّة نفسها لأكتشف أنها ابنة الجزائريَّيْن اللذين ترك لهما والدي شقَّته، عندما اضطرّا لمغادرة الجزائر. منذ ذلك الحين، اضطرّت هي، أيضاً، إلى مغادرة الجزائر، بسبب وضعها المزدوج: امرأة، ومثقّفة. هذه الشابّة الجزائرية نشأت في المنزل الذي ترعرعت فيه، وقد حضرت هذه الجلسة لبرلمان الكتاب، لتشهد على الدراما الجزائرية، وعلى اغتيال المثقّفين، وعلى التعصُّب الذي عصف بالبلد. أعيش، اليوم، في هذا التناقض المؤلم: المحاكمة الجزائرية - مع المعاناة والنوستالجيا التي تنطوي عليه (أسمّي هذا «حنيني الجزائري - ma nostalgérie»)، أعيش في فرنسا، وهي أيضاً بلدي، وأراقب، من هناك، التاريخ المؤلم لـ«الجزائر المستقلّة».

في أثناء دروسكم الإعدادية في باريس، «لوي لوجران - Louis-le-Grand»، انصبّ إعجابكم الأوَّل على «سارتر» و«برغسون». مع ذلك، أخذتكم حياتكم المهنية بعيداً عن هذين الفيلسوفَيْن. كيف تنظرون إليهما، اليوم؟

- صحيح أن «برغسون» كان، بالنسبة إليَّ، مذهلاً، وكما هو الحال بالنسبة إلى جميع أبناء جيلي، كان «سارتر» شخصية عظيمة، وفيلسوفاً، وكاتباً ملتزماً. كيف أنظر إلى هذه الإعجابات الماضوية؟ أنا لا أنكرهما. إذا كان لديّ الوقت والحرِّيّة، أودّ أن أقرأ هذين المفكّرين مرّةً أخرى، وألقي دروساً عنهما. لكني، وأنا أشيد بهما، أحاول، حتى في تحليلاتي التفكيكية، أن أشير إلى شغفي بالنصوص. لم أكن لأفعل ذلك دون إعادة ترسيخها في أصالتها، وضمن حدودها، تلك الخاصّة بالتقاليد الفلسفية، والمؤسّسية الفرنسية. مع «برغسون» و«سارتر»، هناك طرق عمل وتفكير وكتابة لم نجدها في الألمانية أو في الإنجليزية، وهي غريبة، تماماً، عن الغريب.

ثم كان هناك، من بين أصدقائكم، فلاسفة وكتّاب على قدر من الأهمّية: ألتوسير، وليفيناس، وبلانشو، وكذلك جيل دلوز، وجان فرانسوا ليوتار. لكن الصداقة تتطلَّب الحوار. هل يمكنم قراءة عملكم على أنه حوار مع هؤلاء الأصدقاء؟

- نعم. لكن وجود حوار -وهي كلمة لا أثقفها كثيراً- لا يعني أن الكتب، الواحد تلو الآخر، هي إجابات أو أسئلة خاصّة بهؤلاء المفكّرين. في الحقيقة، هناك معالجة أكثر من الحوار. تَمَّ توجيه بعض نصوصي، بشكل خاصّ، إلى هؤلاء الأصدقاء، ولكن دون أن تكون غير مقروءة للآخرين، مع كتبي عن «بلانشو» أو «ليفيناس». وبالمثل، لا أستطيع شرح «أطياف ماركس» دون تسليط الضوء عليه، يستخرج التاريخ الكامل لعلاقاتي مع «ألتوسير»، أي ليس، فقط، مع «ألتوسير»، بل، أيضاً مع الذين كانوا قادرين على الإحاطة به في أثناء قيامنا بالتدريس في مدرسة المعلّمين العليا. في اللحظة الألتوسيرية، في حقبة ما، في ما تَمَّ فعله بعد ذلك معه، من حوله: قراءة «رأس المال» لأجل «ماركس»، أعمال لم أرضَ عنها، لكن دون أن أكون معادياً لها. الشيء نفسه بالنسبة إلى «دلوز». شعرت بأنني قريب جدّاً من أطروحاته، لكنني لم أكن لأكتبها مثله أبداً: لقد تقدَّمنا، وكتبنا بطريقة مختلفة، كما تأثَّرت كثيراً بعمله عن نيتشه، على سبيل المثال، لكنني لم أستطع متابعة «أوديب» مضادّاً، كما أنني أختلف مع ما قاله عن «آرتو»، رغم أنني أشاركه اهتمامه به. علاوةً على ذلك، أخبرته بأن علاقاتنا الشخصية كانت، دائماً، ودِّيّة للغاية، كما هو الحال مع ليوتار؛ حيث يُسجّل النوع نفسه من التقارب. كلّ هذا معقَّد جدّاً، وسيتطلب الأمر عدّة أعداد من الإنسانية لشرحها.

اشتهر أحد أقوالكم المأثورة: «لا يوجد شيء خارج النصّ». إذا كان كلّ شيء نصّاً، فكلّ شيء يتأثَّر بطريقة التفكيك. ألا يتعارض هذا مع التنوّع في أنساق فهم العالم التي يبرزها تطوُّر العلم؟

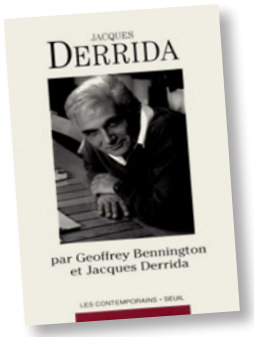
- منذ ما يقرب أربعة عقود، بدأت بالتفكير في الكتابة وفي النصّ. ما كان يهمّني، في البداية، هو الكتابة الأدبية، على الرغم من أنني أصبحت «فيلسوفاً» من جهة المهنة. تساءلت: ما هي الكتابة؟ ماذا يحدث عندما نكتب؟ للإجابة عن ذلك، كان عليَّ توسيع مفهوم النصّ، ومحاولة تبرير هذا التوسُّع. لا تعني عبارة «لا يوجد شيء خارج النصّ» أن كلّ شيء عبارة عن ورق، ومشبع بالكتابة، بل أن كلّ تجربة تُهيْكل شبكة من الآثار التي تشير إلى شيء آخر غير نفسها؛ بمعنى آخر، لا يوجد حاضر لا يتكوَّن دون الرجوع إلى زمن آخر، أو حاضر آخر. الأثر-الحاضر هو أثر مضاعف يَقتفي، ويُقتفى. لقد وسّعت مفهوم الأثر ليشمل الصوت نفسه، مع فكرة إعادة النظر فيه داخل الفلسفة، منذ العصور اليونانية القديمة، كما أولي اهتماماً بالكتابة على حساب الكلام (مركزية اللوغوس)، وحضور الصّوت الحيّ (مركزية الصوت). بعد قولي هذا، وعلى الرغم من ضرورة النقد، لا يكون التفكيك -برأيي- نقداً أو حكماً تقييمياً، أو عملية تنحية، هو أكثر من طريقة أو منهج، إن جاز توظيف مفردتكم. تفترض فكرة «الطريقة» مجموعة من الإجراءات المنظّمة، قبل تجربة القراءة أو التأويل أو التدريس، بالإضافة إلى إتقان معيّن. إذا اكتشف البعض تكراراً معيَّناً؛ فهذا ما تشير إليه طريقة الكلمات، أليس كذلك؟ إن التفكيك أو الدوافع ليس طريقة أو منهجاً. ليس «نقداً» ولا «منهجاً»، ويمرّ، أيضاً، عبر التاريخ أو جينيالوجيا أفكار «النقد» أو «الطريقة»،

كما يسمح التفكيك بتأويلات القراءة والكتابة وتحويل النصّ العامّ، وهي كلّها أحداث. إنهم يصنعون أشياء جديدة، ممّا يثير الدهشة لمَنْ يختبرها. لا يوجد إتقان للتفكيك، وهو ببساطة، مواجهة «شيء آخر»، في كلّ مرّة يملي عليك شخص آخر قانونَ القراءةِ الفردي، الذي يأمرك بالتنازل عن المسؤولية، للإجابة عن قراءتك. مع ذلك، إذا لم يفلت شيء من النصّ، فلن يتمّ تجميع هذا النصّ.

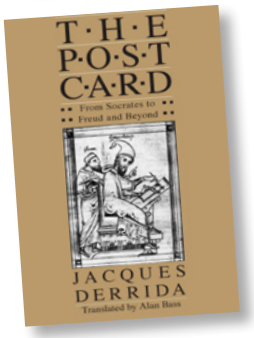
بسبب بنية الآثار نفسها التي تتكوَّن منها، والتي تنفتح على شيء آخر غير نفسها، لا يمكن إغلاق الكليّة. هذا يستثني التجميع والإغلاق، واكتمالية النصّ، و-من ثَمَّ- قيمة النظام. التفكيك ليس نظاماً، أكثر من كونه فلسفة: إنه يشكّك في المبدأ الفلسفي. إنه مغامرة فردية تعتمد حركتها، في كلّ مرّة، على الموقف، والسياق (السياسي، على وجه الخصوص)، وعلى الذات وجذورها في مكان ما، وزمان ما، والتي تسمح لها بالتوقيع على المبادرة التفكيكية، بطريقة ما.

الزمن، في نهاية المطاف، هو جوهر تفكيركم، لكنكم لا تقدّمون فلسفة للزمن. نفضّل أن يكون لدينا انطباع بالتعامل مع فلسفة الحدث. سيلعب الموت، بعد ذلك، دور المفهوم المحوري؛ ما يسمح لكم بالتعبير، بدقّة، عن الزمن والحدث؟

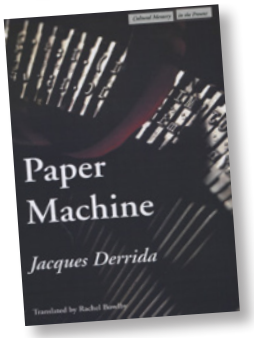
- أنت محقّ؛ لا توجد فلسفة للزمن فيما كتبته، لكن لا توجد فلسفة للحدث البتّة، ولا للموت. لا توجد فلسفة لأيّ شيء. في الواقع، بدأت بالعمل على التراث الفلسفي فيما يتعلّق بالزمن («كانط» و«هوسرل» «وهايدغر» قبل كلّ شيء)، وامتياز الحاضر في فكر الزمن. تخبرنا الفطرة السليمة بأن كلّ شيء موجود في الحاضر: يتمّ الإعلان عن الماضي، وعن المستقبل بعبارات هي، دائماً، خاصّة بالحاضر، الحاضر الحيّ؛ هذا هو الوضوح الذي حاولت أن أعقّده قليلاً. بقيت مسألة الزمن هذه في العمل أو في كلّ أعمالي، ومع ذلك، إن ما تقوله عن الاهتمام المميَّز بالحدث صحيح. أصبحت مُصِرّاً عليه أكثر فأكثر. الحدث كما يأتي منفرداً، بشكل غير متوقَّع، ليس فقط «ما» يأتي، بل «مَنْ» يأتي (الآتي). السؤال: «ماذا تفعل بـ (ما) يأتي؟» يأمر بفكر الضيافة والهبة والتسامح والسِّر والشهادة. تَمَّ التأكيد على الرهانات السياسية لهذه التأمُّلات، كلّ هذا يتعلَّق بـ «(ما) يأتي»، أي الحدث غير المتوقَّع. ونظراً لوقوع حدث متوقَّع، بالفعل، لم يعد حدثاً. ما يهمّني، في هذا الحدث، هو تفرّده؛ فهو يحدث مرّةً واحدة فقط؛ لذلك إن الحدث فريد من نوعه، ولا يمكن التنبُّؤ به، أي بلا أفق، لذا يكون الموت هو الحدث، بامتياز: لا يمكن التنبُّؤ به حتى عندما يكون متوقّعاً، فهو يحدث، ولا يحدث منذ حدوثه، ولا يمكن التنبُّؤ به، ولم يعد يحدث لأيّ شخص. من هنا، تنامى اهتمامي بنصّ «بلانشو» عن الموت باعتباره مستحيلاً. الموت، بكلّ بساطة، هو الموضوع الأكثر استمراراً في كلّ ما كتبته، قبل وقت طويل، في نواقيس (جاليلي، 1974) أو الإماتة (جاليلي، 1999)، كلّ شيء يبدأ بفكرة الموت، وكلّ شيء يعود إليها. يمكنني أن أعطي، كمثال، ثلاثة أنواع من التأمُّلات التي تمسّ فكرة الموت هذه. السمة الإيصائية للكتابة (في الغراماتولجيا، مينوي، 1967). عندما أكتب، أعلم جيّداً أن ما أكتبه يمكنه أن يخلّصني، أو يبقيني على قيد الحياة، وأن ما هو في أصل الأثر يمكن أن يختفي دون أن يختفي الأثر، إن بنيتها كذلك، وهي البنية التي سمَّيتها (الإيصائية) أي من الوصية؛ و(الطيفية) أيضاً، التي لا تنفصل عن مفهوم الأثر، الذي وجد انعكاسه بداخلي، قبل فترة طويلة من أطياف «ماركس»: الأثر ليس حيّاً ولا ميّتاً. ما أربطه، أخيراً، بالمسألة الكبرى المتعلّقة بعقوبة الإعدام (أودّ التأكيد، هنا، على أسباب سياسية) التي كرَّستُ لها ندوة منذ عدّة سنوات، وأردفتها بالتفاتات متشدّدة، خاصّة فيما يتعلّق بـ«قضية» مومیا أبو جمال، الذي أعددت عنه أحد الكتب «مباشرة من طابور الإعدام»، لا ديكوفيرت، (1999). بدا لي تاريخ عقوبة الإعدام حاسماً في حدّ ذاته، كما كان في الوقت نفسه، بمنزلة خيط إرشادي رائع للتفكير في الدولة، والسيادة، والسلطة.











هوامش:

1 - الأبوريات: جمع أبوريا (Aporia)، وتعني الاستعصاء أو المعضلة التي ليس لها حلّ نهائي. (المترجم)

المصدر:

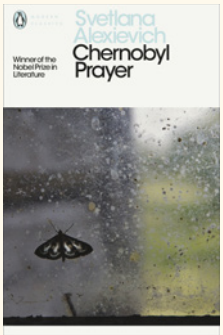
الإنسانية، 28 يناير (2004). حوار مع جاك دريدا - جيروم ألكسندر نيلسبرغ

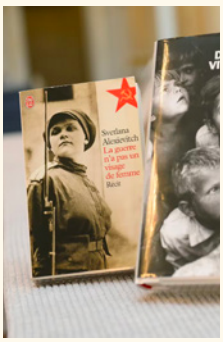
L'Humanité, 28 janvier 2004.



سفيتلانا أليكسيفيتش:
مخاطر العظمة

يبدو أن الهروب من التاريخ مستحيل بالنسبة لـ«سفيتلانا أليكسيفيتش» الحائزة على جائزة «نوبل» لعام 2015. بعد تأريخ الاتحاد السوفياتي من خلال «رواياتها الوثائقية»، التي غالباً ما تُفهم -خطأ- كتاريخ شفوي، بدأت منذ عام 1985، العمل على كتابين جديدين، أحدهما عن الحب، والآخر عن الشيخوخة والموت. رأت في هذه المواضيع فرصةً لتجربة شيء مختلف، غير مرتبط بتاريخ ما تسميه «الفرد الأحمر» في الاتحاد السوفياتي السابق.







لكن بعد ثورة 2020 المُتفجرة في بيلاروسيا، وهروبها اللاحق إلى المنفى (الثاني لها في أكثر من عقدين بقليل)، حيث اضطرت للتخلي عن مخطوطاتها، والغزو الشامل لأوكرانيا من قِبَل روسيا في فبراير/شباط 2022، أدركت أن مشروعها لم ينتهِ بعد.

هذه المرّة، تركّز «أليكسيفيتش» أنظارها بشكلٍ ملموس أكثر على اللحظة الراهنة من خلال توثيق الثورة والهجرة من الأراضي البيلاروسية. ومع ذلك، تظل آثار الماضي راسخة. استولت القوات الروسية الغازية على تشيرنوبيل لأسابيع، وهو ما يفسِّر المخاوف التي عبَّرت عنها في كتابها الشهير، «صلاة تشيرنوبيل». القصص المُرعبة عن وحشية الحرب وأهوالها يتردّد صداها في رواياتها الثلاثية: («الوجه غير الأنثوي للحرب»، «آخر الشهود»، «فتيان الزنكي»).

في الفترة الماضية أعلنت الحكومة الروسية عدم اعترافها بالدولة الأوكرانية، واعتبرت أن شعبها نازي، أو أسوأ من ذلك، تماماً كما يدعي «فلاديمير بوتين» أنها جزءٌ من روسيا الكبرى على أي حال. من خلال الاستماع إلى «أليكسيفيتش»، الناطقة بالروسية والمولودة لأبٍ بيلاروسي وأمٍ أوكرانية، وهي تناقش صدمةَ الدمار الذي حلَّ بما كانت تسميه ذات يوم موطنها، نحاول فهم عبثية آلة الدعاية. معركتها الآن، كما كانت دائماً، تتركّز في اتجاه الدفع نحو المُبالغة في التبسيط.

مؤخراً تمَّ تذكيرنا جميعاً أننا نعيش في عالَم تشيرنوبيل، سواء كنّا على علم بذلك أم لا، بسبب الغزو الروسي لأوكرانيا. من بين جميع الأخبار المأساوية الأخرى، ما موقفك من سيطرة روسيا على محطتي تشيرنوبيل و«زابوريزهزيا» النوويتين؟

- كما تعلم، كتابي، «صلاة تشيرنوبيل»، له عنوان فرعي: تاريخ المُستقبل. لقد كتبته منذ فترةٍ طويلة، لكن حتى ذلك الحين افترضت بالفعل وجود عالَم جديد. كان من الواضح أن عالَماً جديداً بصدد الظهور، عالَم لا يتوافق مع معرفتنا وأخلاقنا. بالطبع ستكون هناك انفجارات أخرى. كانت هناك فوكوشيما. عندما ذهبت إلى هناك، فكّرت في الإرهاب، بالطبع، وكيف سيستخدمون محطات الطاقة النووية. كل محطة طاقة نووية هي قنبلة نووية ضخمة.

كان من المُمكن أن تدمِّر محطة «زابوريزهزيا» النووية أوروبا بأكملها، لو لم يتمكن الناس هناك من السيطرة على النار في منتصف الليل. الأمر يتعدَّى مجرد الخوف. وقد تعاظمت مخاوفنا عندما أدركنا أن قدراتنا التكنولوجية لمُجابهة ما صنعناه بأذهاننا غير كافية. لو وصل الحريق إلى



محطـة الطاقـة، لمـا كان بإمكاننـا فعـل أي شـيء.

نعـم، كان الاجتيـاح مروِّعـاً، لا سـيما وأن إحـدى الفـرق كانـت تعمـل هنـاك فـي محطـة تشـيرنوبيل وقـد أَسَـرَهم الجيـش الروسـي. كانـوا يوفِّـرون لهـم الطعـام والراحـة، ولكـن بخـلاف ذلـك، هـم يواصلـون العمـل هنـاك. هـل يمكنـك أن تتخيّـل حالـة الإرهـاق التـي أصابـت هـؤلاء العامليـن؟ كيـف حالهـم مـن الاكتئـاب؟ إذن، لدينا العامل البشـري مهـمّ هنـا.

مـن المُتعـارف عليه عـدم قصف المحطـات النووية، ولا القتـال بالقـرب منهـا، ولكـن بالطبـع يحـدث ذلـك، ولسـنا محمييـن مـن هـذا الجنـون، كمـا نـرى الآن. لا توجـد آليـة يمكنهـا العثـور علـى هـؤلاء الأشـخاص المجانيـن ومنعهم مـن فعـل الأشـياء التـي تتبـادر إلـى أذهانهـم المجنونـة.

إنهـا حالـة مقلقـة للغايـة نعيـش فيهـا جميعـاً جنبـاً إلـى جنـب مـع فيروس كورونـا. الثورة في بيلاروسـيا، والأحداث الجاريـة فـي أوكرانيـا أسـوأ بكثيـر.

عند إعادة قراءة «صلاة تشيرنوبيل» مع طلابي مؤخراً، ناقشـنا علاقتهـم بأحـداث 11 سـبتمبر/أيلول باعتبارهـا تشـبيهاً محتملاً لعلاقة الأجيال الشابة مع تشيرنوبيل في بيلاروسيا وأوكرانيا كشيء واسع النطاق والأهمّية بشكلٍ ملحوظ لم يشهدوه بأنفسهم، ولكن تمَّ تضمينه بقوة في الثقافـة فطـوّر الأسـاطير الخاصـة بـه. بعـد مـا يقـرب مـن ثلاثة عقود منذ الانتهاء من النسخة الأولى من «الصلاة»، ما هي انطباعاتك عما تعنيه تشيرنوبيل للأجيال الشابة

واهتماماتهم البيئية؟

- أعتقد أن تشيرنوبيل ستلاحق كل جيل، لأننا بعد تشيرنوبيل دخلنا إلى عالَم مختلف تماماً، عالَم يتجاوز ثقافة الحرب المألوفة، التي كان الناس على دراية بعنفها وحدودها وإمكانياتها. مهما كانت قاسية، لم تكن مثل تشيرنوبيل. ستظل العديد من الجسيمات المشعّة موجودة لآلاف السنين، والآن هناك الكثير من المواد النشطة. على سبيل المثال، قد تحترق القرى الموجودة في تلك المنطقة الميتة المُغلقة. هناك الكثير من الحرائق والعواصف. هناك أناس يختبئون من السلطات. كل شيء خطير جداً. إنه يفوق الخيال. إذا كنّا في زمن الحرب، سيعود الناس من القتال وسيبدؤون حياة جديدة.

لكن فيما يتعلَّق «بتشيرنوبيل»، لا يمكننا العودة، لأنها ستظل موجودة لمئات السنين في هذه المرحلة النشطة. أنا من بيلاروسيا، وفي بيلاروسيا، نشرب تشيرنوبيل، ونأكل تشيرنوبيل، ونتنفس تشيرنوبيل. لقد اخترقت جزيئات تشيرنوبيل تربتنا وأرضنا ومياهنا. كل شيء ملوَّث. بيلاروسيا هي مختبر تشيرنوبيل الضخم، مختبر المُستقبل.

ولكن كيف يمكن أن تتخيّل ما تعنيه تشيرنوبيل للأجيال الشابة اليوم؟ من الصعب قول ذلك، رغم أنني أعتقد أنه يجب عليهم الابتعاد عن عالَم التكنوجينيك هذا الذي يفكّرون فيه. وعن ما يشاهدونه وما يهتمّون به. أعتقد أنه يمكنهم تخيّل مدى خطورته ومدى قدرته على إثارة فضولهم، لأنهم مجبرون على العيش في هذا العَالَم، ولم تتمكن البشرية من احتوائه بعد. بعد أربعة أيام، كانت غيوم تشيرنوبيل موجودة بالفعل في إفريقيا. لقد دمّرت تشيرنوبيل مفاهيم البعيد والقريب. هل كان هناك حديث عن المسافة البعيدة عندما كانت الغيوم فوق إفريقيا بالفعل، عندما كانت بالفعل فوق السويد؟

لا يقتصر الأمر على عدم قدرة العلم الحديث على حلّ هذه المُشكلات فحسب، بل فشله أيضاً في تخيّل الخيارات التكنولوجية المُمكنة لاحتوائها وإدارتها - مثل فوكوشيما. نحن لا نفهم تماماً فوكوشيما. ذهبت إلى هناك العام الماضي، ولا يمكنك الاقتراب أكثر من عشرة كيلومترات. إنها منطقة محظورة. هناك معلومات محدودة جداً حول ما إذا كان هناك أي عادم، أو أي جسيمات خطرة، أو أي شيء في المُحيط، في طعامنا. سأقولها مرّة أخرى: لقد ابتكرنا تقنيات لا تتماشى مع أخلاقنا أو تصوُّراتنا البشرية المُسبقة، والتي من أجلها نشنُّ الحروب. كلها تبدو أقلَّ جدية مقارنةً بالمقياس الكوني لهذه المشاكل.

وبالتالي، فإن القضية الرئيسية عندما يتعلَّق الأمر بتشيرنوبيل تتعلَّق بكيفية تمثيل ما حدث، وكيفية فهم حادث شاسع جداً وطويل الأمد ومن المستحيل تصويره بالطرق التقليدية. إنه تحدٍ فنّي وتحدٍ وجودي، ويذكّرني بشيء قرأته في «صلاة تشيرنوبيل» - أنه لأول مرّة منذ تشيرنوبيل تساءلتِ ما إذا كان يجب عليك أن تكتبي أي شيء على الإطلاق لأن تلك المنطقة كانت «أقوى من أي شيء يمكن أن يقوله الأدب». في ضوء الأحداث التي تصفينها، كيف تعتقدين أن تشيرنوبيل قد غيّر الفنّ أو الأدب أو الثقافة بشكلٍ عام خلال السنوات الـ35 الماضية؟

- لسوء الحظ، لن أقول إنه لا تشيرنوبيل ولا فوكوشيما أحدثا الانفجار في الفنّ والفلسفة والأدب الذي كان ينبغي أن يحدث. ربما يتعلَّق الأمر بحقيقة أن البشرية لم تبذل جهودها بعد، ولم تخترق هذه المُشكلة حقاً، ولم تفعل ذلك، لأنها غير قادرة عليها. لكنني أعتقد أنه على الرغم من أن تقنياتنا لا تستطيع حمايتنا من هذه الكوارث التي ننتجها، إلّا أننا ما زلنا بحاجة إلى محاولة فهمها.

على سبيل المثال، قال أحد أبطالي في «صلاة تشيرنوبيل» إن ثقافتنا كلها تتلخّص في هذا الصندوق الكنز من المخطوطات القديمة. لم أجد أي شيء هناك من شأنه أن يساعدني، لأن الناس لم يعتادوا غسل الحطب. لم يتناولوا طعامهم في راحة بال لعدّة قرون، ولم يضطروا أبداً إلى إخراج الأطفال من المدارس، وهناك الكثير من هذه الأمثلة لهذه الحياة المُختلفة تماماً، لكننا تمكنا من التعايش معها جزئياً فقط، بالمعنى الطبي ومعاداة الشيوعية. كانت الشيوعية تحطّم الباب عند رحيلها ولم تترك لنا ميراثاً. لكننا لم نفكّر مطلقاً في هذه المسألة، بالتأكيد ليس من الناحية الفلسفية.

كيف تعتقدين أن ذكرى تشيرنوبيل وأسطورة تشيرنوبيل يجب، أو يمكن معالجتها في الفنّ للمضي قدماً، إن لم نقم بذلك بالفعل؟ ما الوسائل المُمكنة لتحقيق ذلك في المُستقبل؟

- كرّرت هوليوود فكرة نهاية العَالَم لفترة طويلة الآن، في محاولة لبناء واقع حولها، لكن عندما أتيت إلى تشيرنوبيل، ما رأيته هناك كان أقوى بكثير من أي أفلام أو تخمينات في هوليوود. كان الواقع أكثر تعقيداً. أفكّر فيما رأيته هناك. تقترب من نهر، وتشعر برغبة في لمس الماء هناك، وترى قطيعاً من الأبقار يقترب من النهر، ويبتعد عنه فوراً، لأنه يمكن أن يشمَّ ويشعر أنه لا ينبغي حتى الاقتراب منه.

يقول الأشخاص الذين يعرفون شيئاً عن النحل إن النحل لم يغادر خلاياه منذ أسابيع، بينما ذهب الناس إلى المُظاهرات بعد أيام وأكلوا بيروشكي في الشوارع. لقد أدرك النحل. اتضح أن النحل، الكائنات الحية، أكثر قوة بطريقة ما، لديهم غريزة أفضل للبقاء على قيد

الحياة. يبدو الأمر كما لو أن لديهم ذاكرة أجداد أفضل تفتقر إليها البشرية. خرجنا بعد فترةٍ وجيزة، تجوَّلنا في منطقة تشيرنوبيل. كان الناس يلعبون كرة القدم مع الأطفال في الشارع. لا يمكن للبشر تغيير حياتهم بهذا الشكل. واصل الناس حياتهم بالطريقة التي كانوا عليها من قَبل. ما حدث كان بعيداً عن فهمهم.

بالنسبة لي على الأقل، كان التحدي الذي أواجهه في الفنّ هو كيفية التعامل مع هذا الواقع الجديد. بالتفكير في كتاباتي السابقة، كان الأمر أسهل بطريقة ما، لأن هناك ثقافة أدبية كاملة في الكتابة عن الحرب. أي مفهوم: الخير والشر. ولكن بالنسبة إلى تشيرنوبيل، إنه نوعٌ مختلف تماماً من الشّر. أنت تتنفس الهواء، وهذا الهواء يقتل. تريد أن تأكل تفاحة وهذه التفاحة ستقتلك. تريد أن تجلس على العشب، وهذا سيقتلك.

لذلك، تصبح تحت رحمة هذا العَالَم الجديد تماماً، ولا يمكنك الانتصار في مواجهة هذه الكارثة. لا تملك اللّغة المُناسبة لذلك. ليس لديك حاسة الشم الصحيحة. الإشعاع لا رائحة له. ليس لديك أي عضو حسّي لتشعر بالإشعاع. لا يمكن للإشعاع أن يخبرك بما هو مرعب وما هو غير مرعب. الموت في كل مكان من حولك بكل هذه الأشكال.

كان أمامي خيار وحيد بسؤال الناس عن كيفية فهمهم لهذا الوضع برمته في الوقت الحالي. وقد حدث ذلك اليوم: كيف يفهمون هذا الشكل من الموت الذي يحصد الأرواح، ويصيبهم بالأمراض، وما طبيعة مشاعرهم وتفكيرهم، وكيف يحاولون إنقاذ أطفالهم. كان عليّ أن أسلك هذا الطريق: التحدُّث إلى الناس. في ذلك الوقت، شعرنا بصدمة شديدة جراء هذه الأحداث، وتحدّث الناس لفهم ما جرى. كانت الفلسفة صامتة. كانت الثقافة صامتة. كان الناس يحاولون البقاء على قيد الحياة. كان من الرائع التحدُّث معهم.

فيما يتعلَّق بموضوع المعرفة، من الرائع أن نكتشف تجربتك ودوافعك في اختيار أسلوب كتابتك. أعتقد أن هناك العديد من الافتراضات والأفكار حول كيفية عملك وكيف جمعت هذه الكتب معاً والفهم الذي يحصل من خلالها. برأيك ما هو أكبر سوء فهم لحقَ بعملك؟

- كثيراً ما أسمع من الصحافيين أنني أتنقَّل وأسجِّل ما أسمعه -فقط- ويصبح الكتاب جاهزاً. هذا هراء بالطبع. تأليف هذه الكتب يتطلب منّي نسج العَالَم معاً من خلال العديد من التفاصيل. عليك أن تغتنم حياة الطبيعة؛ عليك أن تلتقط صوراً للناس في لحظات الاضطراب.

كثيراً ما يسألني الناس، «لماذا يتحدَّث الناس بشكلٍ جميل في كتبك؟» أجيب أنني ألتقط لحظات من الحب، والاضطرابات الكبيرة، والموت: الحرب، تشيرنوبيل. مثل هذا الشخص يتحدَّث بشكلٍ جميل. إنه يُخرج من داخله أقصى ما يمكنه فعله. حتى أبطال روايتي قالوا لي ذلك أحياناً، «لم أكن أعرف حتى أنني أعرف ذلك». من المُهمّ بالنسبة لي الوصول إلى الناس بهذه الطريقة.

لقد أمضينا الكثير من الوقت في نزع هذا الحجاب من التفاهة، لأننا نعيش في عالم من التفاهات: الصحف، ومعظم الكتب من هذا القبيل. هذه التفاهة يجب أن ينزعها الشخص للوصول إلى نصه الخاص، حتى يقول تلك الأشياء التي لم يقلها الآخرون ولم يعرفها الآخرون. عندما يتمكنون من رؤيتها، يجب أن أكون مستعدة لتطوير هوائيات لأتمكّن من رؤيتها وسماعها، لأنه إذا كنت ترغب في سماع شيء جديد، عليك أن تطلبه بطريقةٍ جديدة.

سيقول الناس، «أنت تذهبين هناك وتكتبين تلك الأشياء فقط - الأوساخ الوجودية التي هي حياتنا». لا، عليك أن تزيل كل الفائض من حياتنا، كل ما هو سطحي، مبتذل، ثمَّ ننغمس مع الشخص في هذه المعرفة الذاتية. هذا عمل هائل وصعب. يجب أن تشمل هذه المجموعة من القصص الرجال والنساء والشيوخ والأطفال. يجب أن تكون لديهم وجهات نظر مختلفة، ومهن مختلفة، لأن مهننا تغيِّر وجهة نظرنا، كلنا. أنت معتاد على رؤية العَالَم بطريقةٍ معيَّنة. عليك أن تجمع كل ذلك معاً، وتمنحه شكلاً معمارياً - شكل الحياة الواقعية التي نعيشها.

أصعب شيء أن يعتقد الجميع أن عملي وثائقي بالأساس، كأنني أخذت كل شيء من الأشخاص الذين استمعت إليهم. لا، كل شيء في كتبي هو ما قاله الناس حقاً، لكن عليك أن تقدِّم لكل هذا شكلاً معيَّناً، عليك أن تنسجه معاً، بحيث يكون عملاً فنّياً بحق.

بالحديث عن المهن، كيف تغيَّر فهمُك لمُهمّتك أو هويتك ككاتبة خلال هذه العقود العديدة، خاصة في ضوء خيبة الأمل في التسعينيات التي تحدَّثت عنها باعتبارها فرصةً مهدورة للتعرُّف على معاناة الناس في حقبة ما بعد الاتحاد السوفياتي؟ من وجهة نظرك، كيف يمكن للكلمات أن تؤثِّر في التغيير الهادف وتساعد في الحرب اليوم؟

- ما أكتبه منذ أربعين عاماً هو قصة الشخص الأحمر، الفكرة الحمراء. لقد بدأت منذ ظهور تلك الفكرة. قابلت أشخاصاً رأوا لينين وستالين. الناس الذين قاتلوا في أفغانستان. الناس الذين ماتوا في تشيرنوبيل. كل هؤلاء الناس. أدركت في النهاية أنني لم أكن حريصة كفاية على تأليف كتابي بعنوان «الزمن الثاني» عن سقوط الإمبراطورية والكتابة عن نهاية «الشخص الأحمر». اتضح لي أنني كنت ساذجة.

في ذلك الوقت، في التسعينيات، كنّا نظن أن

الشيوعية قد انتهت، وأن هذه الفكرة لن يتمَّ إعادة صياغتها بأي شكلٍ من الأشكال، لا الإمبريالية، ولا أي شيء آخر. اتضح أننا لم نكن على صواب. الشيوعي لم يمت. الفرد الأحمر يقوم بتغيير أشكاله مرّة أخرى، ويتحوَّل.

أفكر فيما يمكن أن يحدث لهذا الشخص، حتى يدمِّر خاركيف، ويسويها تماماً بالأرض. هذه المدينة الجميلة التي أحببت زيارتها. كانت لديّ علاقة شخصية للغاية بهذه المدينة. كيف تدمرها وتمسحها من على وجه الأرض؟ كيف يمكنك أن تحاول هدم هذا العَالَم الآخر، هذه الحضارة؟ كل الحضارة الأوكرانية والعَالَم الأوكراني. كيف تنكر حقها في الوجود؟ لماذا؟

هل تستطيع أن تتخيل كائنات فضائية -أنا لا أتحدَّث حتى عن دول حقيقية- يقولون: «حسناً، الشعب الروسي غير موجود؛ العَالَم الروسي مجرد أسطورة». ماذا سيحدث لروسيا؟ كيف سيكون شعور الروس؟ ماذا حدث لهم؟ ما الإذلال الذي تحمّلوه حتى نزلوا إلى هذا الحد؟ والآن أفهم قوة وكرامة الأوكرانيين الذين يموتون ولكنهم يدافعون عن أنفسهم، ويدافعون عن عالَمهم، ويدافعون عن حق أطفالهم في أن يكونوا أوكرانيين، ويتحدَّثون لغتهم الخاصة.

الآن، اتضح أنني أذهب إلى أبعد من ذلك مع هذا الشخص الأحمر، وأرى كيف يقتربون من شيء أخشى أن أقوله بصوت عالٍ - الفاشية. نحن نتعامل مع الفاشية الروسية، بصدد التشكُّل أمام أعيننا.

أحد جوانب مشكلة الفاشية التي واجهناها كثيراً مؤخراً هو الانبهار بفكرة «العظيم»: كل الأشياء عظيمة، اجعل أميركا عظيمة مرّة أخرى، الهوس بالعظمة في روسيا الذي نراه في الحرب والدعاية، روسيا العظمى. سؤالي من جزأين. أولاً، كيف تشخّصين جاذبيتها؟ ما الذي يحافظ على هذه الأسطورة، ما الذي يجعل ما وراء السرد قائماً في عصرنا؟ ثانياً، كيف ينبغي لهذا الاعتقاد في «العظمة» أن يغيّر علاقتنا بالثقافة الروسية، إذا كان ينبغي بالفعل تغييرها؟

- نعم، هذا سؤال مثير للاهتمام. أخشى كلمة «عظيم»، وخاصة الآن. كنت مرّة في الحرب في صربيا، وسمعت عن «صربيا العظمى». نحن نعلم كيف انتهت. ونعلم جميعاً كيف انتهت «ألمانيا العظيمة». الآن لدينا «روسيا العظمى». دائماً ما ينتهي ذلك بالدم. لا توجد طريقة أخرى، لأن المنظور البشري مبني على التنوُّع. كلنا مختلفون. حتى جيراننا، حتى أفراد الأمة الواحدة، كلنا مختلفون. كم نحن مختلفون!

الأذربيجانيون والأرمن والأوكرانيون، أياً كان - إنه هذا العَالَم المُلوَّن بالكامل والمشرق. ليس من قبيل المُصادفة أن الرب جعلنا نختلف عن الخارج. يمكنك أن تقول، حسناً، شخص ما يشبه الآخر في الظاهر، لكنهم مختلفون حقاً: عيون مختلفة، ورموش مختلفة، وآذان مختلفة، وكل شيء آخر. وبالتالي، فإن هذه الرغبة في توحيد العَالَم، كما أعتقد، هي تبسيط يقلّل من مستوى الثقافة.

في الماضي، كان من المُمكن فهم مثل هذه الأنشطة على أنها رجعية، ولكن في الوقت الحاضر، في القرن الحادي والعشرين، هذه الأشياء غير مقبولة تماماً. هذا يعني فقط أن روسيا لم تنجح في الانضمام إلى عالَمنا الكبير المُشترك. ظلت في ضواحي الحضارة، وهي تظهر لنا عدوانية بأقصى شكلٍ ممكن. الكثير من الناس غير مرتاحين بالفعل لعبارة «العَالَم الروسي»، لأنه ماذا يعني عالَم مختلف، عالَم أفضل؟ عندما نكون مختلفين، عندما يكون لدينا العديد من الأفكار المُختلفة، عندما يكون لدينا العديد من الأفكار والأشكال المُثيرة للاهتمام، ومحاولات العثور على معنى الحياة.

عندما عدت إلى موطني، لم أتمكن من تشغيل التليفزيون، لأنه في كل ساعة كنت أسمع أنه لدينا الآن صواريخ جديدة، وبعض السفن الرائعة الجديدة، وبعض الغواصات التي لا تصدَّق، والدبابة التي لم يمتلكها حتى الأميركيون. قِيل هذا دائماً بحماسٍ خاص. عندما كنت أستمع إلى كل ذلك، كنت أفكِّر، «يا إلهي، لم يكن حتى القرن التاسع عشر، الذي حاول على الأقل التخلّص من الثقافة الماديّة والارتقاء بهذه الثقافة الروسية العظيمة في القرن التاسع عشر».

اليوم لا توجد حتى الثقافة الروسية على هذا المُستوى، لأن المُستوى الروحي العام، على ما يبدو، قد تراجع. الآن كل العَالَم، ربما، يختبر هذا السقوط، لأن السر البشري -هذه مجرد فرضيتي- قد تمَّ استبداله بالمعلومات، وسر الحياة لا علاقة له بهذه المعلومات. إن سر الحياة شيء أكثر تعقيداً، شيء لا يمكن فهمه؛ يمكننا فقط الرقص حوله، والنظر، والتعجب، ولكن لا نستبدله بهذه المعلومات، بالكيلوبايت، والجيجابايت. أعتقد أن التكنولوجيا قد جعلت عالَمنا أكثر تعقيداً وأكثر تبسيطاً، فكرياً.

أعتقد، أيضاً، أنه يمكن اعتبار تهديد الدعاية أحد أشكال مشكلة المعلومات المذكورة. هناك فكرة أن الدعاية لا تنجح إلّا إذا شارك السكّان افتراضاتهم الأساسية، وكتب «ميخائيل زيغار»، (المُحرِّر المُؤسس لقناة Dozhd)، آخر قناة إخبارية روسية مستقلة، مؤخراً أن روسيا تشبه رئيسها بشكلٍ متزايد. هل توافقين على أن الشعب الروسي ككل، من الناحية الأيديولوجية، يوافق رئيسه بشكلٍ متزايد في موقفه وأهدافه؟

- لا، لا أعتقد ذلك. في النهاية، ستفوز الثلاجة على جهاز التليفزيون. لكنني أقول إن المُشكلة تكمن أيضاً في

أننا، نحن الديموقراطيين في التسعينيات، لم نتحدَّث إلى الناس بما فيه الكفاية. كنا نظن أن سقوط الشيوعية كان واضحاً جداً وأن هذا الانتصار، انتصارنا على العَالَم القديم سيأتي غداً. غداً سنكون أحراراً. ركضنا حول ساحات المدينة، وصرخنا، «حرّية، حرّية!» لكن لم يكن لدينا أي فكرة عما كان عليه الأمر، وأنه كان يتطلب منّا الكثير من العمل، وأنها عملية طويلة جداً، لن نحصل عليها في الغد. العَالَم لا يسير على هذا النحو.

هل يمكنك أن تتخيل أنه إذا عاش الناس في معسكر اعتقال طوال حياتهم، ثمَّ سُمح لهم بالخروج بالقرب من بوابات المُخيم، فإنهم يصبحون أحراراً في تلك اللحظة؟ لا، لقد دخلوا ببساطة في مساحة مختلفة. في الواقع، لقد أعادوا المُخيم إلى الحياة الطبيعية، وسيعيدون بناء المخيم هناك. هذا ما تفعله روسيا الآن. إنها تبني هذا المُخيم. إنه بناء الاتحاد السوفياتي أسوأ مما كان عليه من قَبل.

أعتقد أن فكرة بوتين هي بناء الإمبراطورية الروسية، الإمبراطورية القيصرية. لقد كشف لنا أخطاءنا. يجب أن تتحدَّث مع الناس. لقد أنفق مبلغاً ضخماً من المال على شيئين خلال سنوات الوفرة الطاقية: الدعاية والجيش. لم يلاحظ الناس حتى كيف عسكر البلاد. حسناً، لقد رأينا أنها لم تكن ناجحة، الحرب الخاطفة في أوكرانيا.

ومع ذلك، فقد أنفق الكثير من المال على التسلّح. لا نعرف على ماذا أنفق وكيف سيستخدمه. بل لم نلاحظ ذلك أصلاً. بالعيش هناك، لم نرَ كيف تمَّ استبدال حياتنا بشيء آخر. لم يكن هذا هو سبب ذهابنا إلى تلك المُظاهرات الضخمة في التسعينيات. أردنا حياة مختلفة حرّة، ولكن على ماذا حصلنا؟ حصلنا على نفس الشيء الذي تركناه وراءنا. سئم الشخص الأحمر بسرعة كبيرة مما كان يعتقد أنها الحرّية، من تلك العملية المُعقَّدة. إنه أمر صعب - الحاجة إلى التفكير كثيراً واتخاذ الكثير من القرارات. لم تكن لدينا مثل هذه التجربة.

لذلك اليوم، لا أعرف كيف، لكن 67 بالمئة، وفقاً للخدمات الاجتماعية الحكومية، أو حتى ما تكشفه استطلاعات الرأي البسيطة للأشخاص في الشارع، هناك أكثر من 50 بالمئة يدعمون بوتين. لقد اندهشت: صحافي يتجوَّل في الميدان الأحمر ويستطلع آراء الناس. كل شخص يقول له، «نعم، إنه رئيسي. نعم، نعتقد أنها عملية وقائية».

كل هذه الأشياء الفظيعة، هذا الكابوس. ثمَّ يقول شخص ما، مثقَّف للغاية، مثقَّف بمظهره، «نعم، إنه أمر مؤسف. أختي تعيش في خاركيف. إنه لأمر مؤسف أنها فقدت شقتها هناك. أشعر بالألم تجاهها، لكنني أصدق رئيسنا. كان علينا أن نتصرَّف، إنه إجراء وقائي، وإلّا لكانوا غزاة، وشنوا الحرب». لذلك، كل هذه الأشياء التي تمَّ جرها من قاع الهاوية إلى وضح النهار، كل هؤلاء سولوفيفس وكيزيليف، كل ما يقولونه، ليس بالصحافة. إنها جريمة.

نختم بمُلاحظة أكثر تفاؤلاً، إذا كان بإمكاننا تخيُّل أوكرانيا وأوروبا بعد الحرب، ما الذي تأملين رؤيته؟

- آمل أن تساعد أوروبا والعَالَم كله وأميركا أوكرانيا. من المُهمّ جداً أن تفوز أوكرانيا. إذا فازت أوكرانيا، فستكون بيلاروسيا أيضاً حرّة، وأعتقد أن الشعب الروسي سوف يستيقظ أيضاً من نومه الخامل، خاصة الآن بعد أن وقفت أوروبا معاً بثبات على هذا النحو لأول مرّة. لا أتذكّر في السابق أن أدرك الجميع وجود خطر وتصرَّفوا في انسجام مثل اليوم.

سأقولها مرّة أخرى: إننا نشهد أمام أعيننا ولادة الفاشية، ويجب أن نحاربها. إذا فازت أوكرانيا، فستكون البداية. سنعيش في بلدٍ مختلف. كل واحد منّا سوف يساعد أوكرانيا على إعادة البناء. سنساعد الأجيال الجديدة على التعافي. سنضع التعليم في المُقدِّمة والمركز، لأن هذه هي الطريقة الوحيدة للحاق بالركب، ولكن من أجل ذلك نحتاج أولاً وقبل كل شيء إلى الفلاسفة.

نحن بحاجة إلى تقديم معنى جديد، وخيارات جديدة بطريقةٍ ما، وعدم الوقوف في مكانٍ واحد وعدم تسمية الأشياء -بوتين- بأسمائها. دعنا نقلّ لماذا حدث ذلك، ولماذا لم يكن لدى الشخص الذي أطاح بالشيوعية القدرة على التحمُّل لسحقها حقاً، ولماذا لم يتمكنوا من نسيان الماضي، ولماذا بدؤوا يتقدَّمون إلى الأمام ولكن في الواقع لقد انتهى بهم الأمر من حيث انطلقوا، ولماذا انتهى الماضي أمامهم.

سيكون هذا الوقت الذي سنرى فيه ولادة العديد من الأشياء الفنّية والإبداعية. ما ولد في ثورتنا على سبيل المثال. لقد اندهشت عندما ذهبت إلى المسيرة الأولى. يا إلهي من أين أتى هؤلاء؟ لم أرَ قط الكثير من الأشخاص الجميلين، والنساء الجميلات، والفساتين البيضاء المُزيَّنة بالورود، والجميع يبتسم، والأطفال يتجوَّلون. كان عالَماً لم يكن بوسعي تخيّله. كان مخبّأ. لم أره من قَبل. أعتقد أن البشرية لديها الكثير من الطاقة الخفية. نحتاج فقط إلى تخليص أنفسنا من هذه الغطرسة، من بدائية الأنظمة الاستبدادية، التي لا تزال باقية، ما زالت باقية وتهدِّدنا. علينا ببساطة أن نتغلَّب على هذا التهديد.

■ **حوار: خوسيه فيرجارا □ ترجمة: عبدالله بن محمد**

المصدر:
https://lithub.com/on-the-dangers-of-greatness-a-conversation-with-svetlana-alexievich/

جيتانجالي شري:

«في انتظار الكتاب الذي سيفلت من قبضتي»

أصبحت «جيتانجالي شري» أول مؤلِّفة هندية تفوز بجائزة «بوكر» العالمية، عن روايتها «Ret Samadhi» التي ترجمتها «ديزي روكويل» إلى الإنجليزية «Tomb of Sand - قبر الرمل». تروي قصة امرأة مسنَّة تعيش حالة اكتئاب بعد وفاة زوجها. في أحد الأيام خطر ببالها السفر إلى باكستان لتشهد بنفسها صدمة تقسيم الهند وباكستان في عام (1947). «قبر الرمال» تشريح لمشاعر المرأة وهي تتصالح مع ماضيها ومع دورها كامرأة وأم. تحدَّثنا معها بعد أن تمَّ ترشيحها في القائمة القصيرة لجائزة «بوكر» الدولية لهذا العام بخصوص الرواية الأولى وتجربتها الإبداعية الناشئة.

هل يمكننا التعرُّف عليك؟ طفولتك، تعليمك، وكيف أصبحت كاتبة...؟

- أمضيت طفولتي في مدن مختلفة، حيث يعمل والدي موظفاً مدنياً. وتلقيت تعليمي المُبكِّر في المدارس المحلية الإنجليزية المُتوسطة. لم يكن ارتباطي باللّغة والأدب الهنديين رسمياً، بل كان قراراً شخصياً. والدتي تتحدَّث الهندية فقط. في كل مكان من حولي في تلك المدن كانت اللّغة الهندية. قرأت أيضاً، في طفولتي، الكثير من المجلات الهندية للأطفال أكثر من أطفال المدارس الإنجليزية اليوم. وتشبَّعت بالتقاليد «الهندية» - حكايات من رامايان وماهابارات والليالي العربية وشيكشيلي وبانتشتانترا وكاثاساريتساغار وبوتناث وشاندراكانتا سانتاتي. ربما ذلك يعود إلى غياب شبه كلّي لكُتب الأطفال باللّغة الإنجليزية. لكن ذلك دفعنا لتعلّم اللهجات الهندية والمحلية، بالإضافة إلى الحكايات الريفية والأمثال والخرافات.

مَنْ هم كُتَّابك المُفضَّلين؟ وما مدى تأثيرهم على تطوُّر تجربتك؟

- كنت أعشق الأدب. وكانت القراءة هوايتي المُفضَّلة، رغم أنها كانت عشوائية للغاية. قرأت الكثير من أعمال العظماء الروس، عظماء النساء الفيكتوريات، الكلاسيكيات الفرنسية، كنوت هامسون، ماكس هافيلار، ولاحقاً كالفينو، كافكا، كونديرا، أدب أميركا اللاتينية، الأدب الياباني، الكُتَّاب الهنود البنغال، ماهاراشترا، كارناتاكا، كيرالا، والكُتَّاب الهنود المُعاصِرين، مثل كريشنا سوبتي، ونيرمال فيرما، وشريلال شوكلا، وفينود كومار شوكلا، وغيرهم. وقد أكسبني ذلك الاطلاع على مجموعة واسعة من الأساليب، ومرّة أخرى، رغم أني لا أعرف التأثيرات على كتاباتي فقد غرسوا في داخلي حب التنوُّع والاختلاف في تجربتي الإبداعية. شخصياً أرغب في كتابة أنواع مختلفة جداً من الأعمال تُشعِر القُرَّاء بأن عملي مختلف في كل مرّة! إلى حدٍّ ما أستطيع القول إن الروايات الثلاث التي كتبتها يمكن أن تثير مثل هذه الردود!

هل تلقيت تدريباً في الكتابة الإبداعية؟

- لا، لم أتعلَّم الكتابة الإبداعية! أليست هذه تقاليد أميركية بالأساس؟ آسفة. أنا لست معجبة بأميركا! هل أنتجت دوراتهم أعمالاً أدبية جديرة بالاهتمام هناك؟ كيف صنعت موهبتي بنفسي إذن؟ ككاتبة هندية! أنا أتعلَّم بالمُمارسة! وأطوِّر قدراتي في كل مرّة!

في روايتك «قبر الرمل»، تأكيد على أن العيش كامرأة يعني العيش ضمن حدود. ماذا تقصدين بذلك تحديداً؟

- منذ عِدّة قرون، تمَّ وضع العديد من الحدود والضوابط للنساء، يخبرنهن بطبيعة دورهن وكيف ينبغي لهن أن يتصرفن، وما إلى ذلك. لذلك لعبت تلك الحدود دوراً كبيراً في نحت شخصياتهن.

ما أودُّ قوله، إذا كانت هناك حدودٌ مرسومة، فإنَّ تجاوزها مهمّ جداً أيضاً. لذلك، كونك امرأة لا يعني



الالتزام بها فقط، بل تجاوزها والعبور إلى مكانٍ آخر.

روايتك لعام 2000، والمُترجَمة إلى اللّغة الإنجليزية أيضاً «ماي: أم في صمت»، أوصلتك إلى عالَم الشهرة. تناقشين من خلالها حياة ثلاث نساء من أجيالٍ مختلفة. في «قبر الرمل» تتحدَّثين بالمثل عن نساء من مختلف الأجيال وعن طبيعة علاقاتهن. لماذا تفضلين مثل هذه المواضيع؟

- أعتقد أن الأمهات مهمّات على أي حال، ولأنني امرأة، فمن المُحتمل أن أكون قادرة على إدراك حياة المرأة بطريقةٍ خاصة. هناك بعض الأشياء التي تُعَدُّ جزءاً من تجربتك الحياتية المُباشرة أو البعيدة. وبالتالي هذه الأشياء تأتي فقط عندما تُعبِّر عن نفسك.

لكن لا ننسى أن روايتي «Hamara Shahar Us Baras» (تُترجَم تقريباً بـ«مدينتنا في ذلك العام») نُوقشت كثيراً، وهي عن الهندوس والمُسلمين. لذلك ليس الأمر أنني أكتب دائماً عن الأمهات، بل أكتب أيضاً عن الهندوس والمُسلمين. أي شيء مهمّ في مُخيِّلتي، في تجربتي، في حياتي، يظهر في كتاباتي.

كيف كان شعورك بعد ترشيحك لجائزة «بوكر» العالمية؟

- أنا أعيش في الهند وأكتب باللّغة الهندية. لذلك في عالمي الخاص، لم أُفكِّر حقاً في جائزة «بوكر». بالنسبة لي، كنت أراها بعيدة، في عالَم مختلف تماماً. عندما تلقيت الأخبار التي تفيد بأنني مُدرجَة في القائمة الطويلة، أعتقد أنني لم أفهم حتى مدى أهمّية ذلك. كان الأمر مثل، «نعم، لقد سمعت عن جائزة «بوكر»، وأنا على القائمة الطويلة».

وبعد ذلك، بعد أن بدأ الناس في الاتصال بي والكتابة عن عملي، بدأت أفهم ببطء أن الحضور فقط في القائمة الطويلة يُعَدُّ أمراً مهمّاً. وبحلول الوقت الذي تمَّ ترشيحي للقائمة القصيرة، كنت قد فهمت المعنى الكامل لأن تكون مرشّحاً للفوز بالجائزة.

ما هو حال سوق الكتب الهندية في الهند؟

- لا يمكن الحديث عن سياقٍ واحد، ويجب ألّا ننسى أن الكثير من المناطق الناطقة بالهندية في الهند فقيرة جداً. هناك أيضاً مشاكل في التعليم. هناك المُتعلِّمون وغير المُتعلمين في هذه المنطقة. إذا قارنت ولاية «كيرالا» (الولاية الجنوبية في الهند وجميع سكّانها من المُتعلِّمين) على سبيل المثال، فإن الوعي الذي بلغه الناس تجاه الأدب هناك لا يمكن مقارنته بما يوجد في المناطق الأخرى الناطقة باللّغة الهندية. لكن الناس يريدون القراءة، يريدون توفير المزيد من الأشياء لأنفسهم.

لا يملك الجميع هذه الدرجة من القدرة الشرائية. وهناك الكثير من النقاش حول أسعار الكتب باهظة الثمن، وكيف سيشتريها الناس العاديون؟ لهذا السبب لا يوجد سوى عدد قليل من مشتري الكتب الهندية. معظمها من المكتبات. هذه هي المشاكل، لكن الناس يقرؤون ويرغبون في القراءة.

هل تعتقدين أن فوزك بجائزة «بوكر» سيساعد أيضاً في تطوير سوق الكتب الهندية؟

- آمل ذلك. عندما تكون في دائرة الضوء، سيحصل من حولك أيضاً على بعض الاهتمام. من الواضح أن العَالَم الهندي يحظى ببعض الاهتمام أيضاً. هناك بالفعل هذا الوعي خارج (الهند) بأن هناك شيئاً ما يحدث في العَالَم الهندي (فيما يتعلّق بالإنتاج الأدبي). وإلى جانب اللّغة الهندية، من المُحتمل أيضاً أن يكون هناك المزيد من الوعي والإثارة والفضول بشأن اللّغات الأخرى. لذلك أعتقد أن هذا جيد حقاً للهندية وللغاتٍ أخرى في الهند وجنوب آسيا.

ورغم ذلك، يجب علينا أن نتذكَّر أن عالَم الكتابة هو في الواقع عالَم هادئ للغاية وخصوصي، وستستمر الكتابة بالطريقة التي كانت عليها حتى الآن، بغض النظر ما إذا كان عملنا يلفت انتباه الآخر أم لا. لأنه في النهاية، هناك كتابة في كل ركن من أركان العَالَم. لذلك، سيستمر العمل في الكتابة، ولكن على الأرجح، سيكون هناك المزيد من الفضول والحرص على جلبه إلى دائرة الاهتمام.

ما الذي يجب القيام به للوصول إلى جمهور أوسع؟

- للوصول إلى جمهور أوسع، يجب أن يصبح التعليم ضرورة أساسية. ولكن أيضاً شبكة تسويق أفضل، ودعاية أكبر، وترجمات أكثر جودة، وأكبر عدد ممكن من أنواع المُنتديات الأدبية تمنح اللّغة الهندية منصة أكبر.

من المُؤكَّد أن عملي لو كتب بالإنجليزية لوصل إلى جمهور أوسع. في أقلّ من عام من ترجمة روايتي «ماي» باللّغة الإنجليزية، حظيت أعمالي بمُراجعات عديدة وقمت بعدد من المُقابلات والصور أكثر مما عشته في عشر سنوات منذ ظهورها باللّغة الهندية! أنا أكتب باللّغة التي أتقنها وأحبها. لكن هل هناك مشكلة لو نجحت الترجمة في الوصول إلى عدد أكبر من القُرَّاء والمزيد من العائدات؟!

كيف ينظر الغرب إلى الهند؟ وهل هناك صورة واحدة للهند في ذهن الغرب؟

- صورة الهند في عقول الغرب؟ وهل يمكن أن تكون هناك صورة واحدة! إلّا في عقول الحمقى. في الواقع هناك صور متعدِّدة هنا! لكن من الناحية الانطباعية، ما أجده حاضراً بقوة هو غزو الهند للغرب - التليفزيون، الملابس، الديكور، المطبخ، الناس في الشارع، إجمالاً حضورنا الفخم للغاية! رغم أني لست خبيرة في علاقات الترابط، إلّا أني لا أصدق أن هذه ليست علاقة تفاعلية إبداعية للغاية، حيث يتمُّ تشكيل «ثقافات» جديدة، وحيث لم تكن الهند مجرد شريك ثانوي، مهما كان تاريخ عدم المُساواة بين هذا الغرب والهند في وقتٍ سابق، وأياً كان ما قد يكون اليوم في عصر ما بَعد الحداثة وعولمة العَالَم.

إلى أي مدى تعتقدين أن الكُتَّاب يجب أن ينخرطوا في القضايا العامة؟

- الشأن العام والكُتَّاب. لديّ ميول وحساسية ووعي بالقضايا العامة. لكنني لن أتشاجر مع كاتبة تقول إنها لا تهتم، ولن أدفعها للاهتمام. والأهم من ذلك، أعتقد أن هناك طرقاً مختلفة للمُشاركة في القضايا العامة. ليس دائماً العمل المُباشِر. الطريق الخفي للفنّ والمسرح والأدب يمكن أن يخلق مناخاً حاضناً للأصوات والأفكار الأخرى. على غرار شخصية «جي إم كويتزي» في عصرنا، أو الشخصية الأخرى الأقرب إليّ جغرافياً «بوبن كاكار» المُثير للجدل والمُحايد سياسياً في العلن.

هل أنت راضية عن إنتاجك الإبداعي؟

- راضية عن إنتاجي الإبداعي؟ هل أنت جادة؟ أبداً! أنا بانتظار الكتاب الذي سيفلت من قبضتي ويطوِّر أجنحته الخاصة ويحلِّق عالياً من تلقاء نفسه حتى أشعر بالسعادة في رحلته الجميلة. ألمح إشارات عن قرب تحقيق ذلك في بعض الأحيان، ولكن ليس أكثر!

ما الفرق بين رواية القصة وكتابة القصة؟

- أعتقد أن هناك دائماً فرقاً بين سرد قصة وكتابة القصة رغم أن الهدف من كليهما هو «سرد» في النهاية. واختلاف الجمهور أحد الأسباب الرئيسية لذلك. أحياناً يكون الجمهور متغيِّراً ومرئياً، ويكون الراوي مكشوفاً أيضاً، مما يسمح بأداء مباشر ومتغيِّر وارتجالي في «السرد». وأحياناً أخرى، يتستَّر القارئ، وسرعان ما يختفي الكاتب أيضاً، ويتحوَّل «الحكي» إلى «حكاية مرويّة» ثابتة نسبياً. هناك أداء متغيِّر في هذه الحالة أيضاً مع القُرَّاء المُتغيِّرين الذين سيقرؤون، ويسمعون، ثمَّ سيدركون معاني وإيقاعات وصوراً مختلفة، ولكن سوف نكون دائماً في مواجهة هذا الاختلاف غير القابل للاختزال بين الشفهي والمكتوب.

هل أنت نسوية قوية في الواقع كما في روايتك؟

- لا أعرف كيف، لماذا، وأي شكل من النسوية يمكن استنتاجه من الكتاب. أعتبر نفسي شخصية حسّاسة تجاه النساء وتجاربهن، ولكن ليس كنسوية أيديولوجية صارمة.

■ **حوار: إليزابيث جرينير □ ترجمة: عبدالله بن محمد**

المصدر:
https://www.outlookindia.com/website/story/im-waiting-to-write-the-book-which-will-slip-out-of-my-grasp/211369

صدر في

كتاب الدوحة













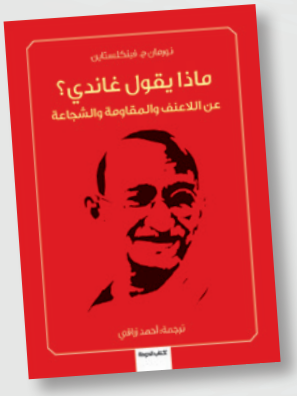














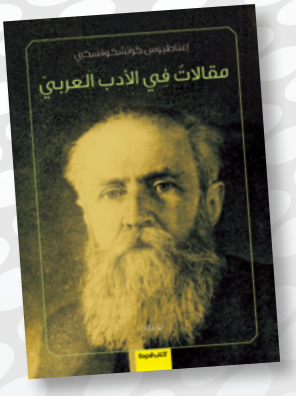














ليو تسي شين يحاور هان سونغ..

أيّ من عملاقي الخيال العلمي هو الأثرى خيالاً؟

في الثالث والعشرين من آب/ أغسطس، تمَّ الإعلان عن «جائزة هوغو» في دورتها الثالثة والسبعين، بواشنطن، في الولايات المتّحدة الأميركية، تلك التي يُطلق عليها «جائزة نوبل الخاصّة بفنّ الخيال العلمي». فاز الكاتب الصيني ليو تسي شين عن عمله «مشكلة الأجسام الثلاثة»، بجائزة أفضل رواية، وهي المرّة الأولي التي يفوز فيها آسيويّ بجائزة هوغو.

صدرت الطبعة الأولى من عمل الكاتب ليو تسي شين «مشكلة الأجسام الثلاثة 3: نهاية الموت»، في أغسطس (2010)، بطباعة أربعين ألف نسخة ، لتنفد بمرور ثلاثة أيّام؛ وهو ما استدعى طباعتها مرّة أخرى، على وجه السرعة. وباعتبارها أكثر روايات الخيال العلمي جاذبيّةً في الصين، حصلت (الطبعة الإنجليزية) منها على «جائزة هوغو» لأفضل رواية، ويُعَدّ هذا تقديراً كبيراً لكاتب الخيال العلمي القدير ذاك.

حصل ليو تسي شين، في وقت مبكِّر من عام (2010)، على جائزة «نيبولا» العالمية للأعمال المكتوبة باللغة الصينية في دورتها الأولى، بصفته أفضل كاتب، عن عمله «مشكلة الأجسام الثلاثة»، وفاز معه بهذه الجائزة، كذلك، الكاتب هان سونغ.

وفي أبريل، عام (2011)، دعت المجلَّة كلّاً من ليو تسي شين، وهان سونغ، وهما كاتبان مشهوران في وسط الخيال العلمي الصيني، للتحاور بشأن الخيال العلمي.

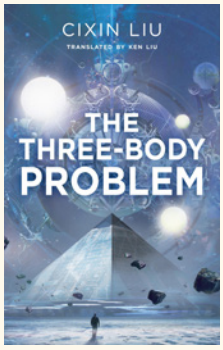
ترى، إلى أيّ مدى وصل ثراء الخيال لدى الكاتبَيْن: ليو تسي شين، وهان سونغ (الأوَّل مهندس كمبيوتر في محطّة كهرباء، والثاني مراسل صحافي).

بإعادة، النظر، الآن،إلى المحاورة التي دارت بينهما قبل أربع سنوات، ما زلت أعتقد أنها كانت ثريّة للغاية، وسنقتبس، هنا، بعضاً ممّا ورد فيها.

قال ليو تسي شين: «بصفتي كاتباً للخيال العلمي، أتوق لأن أرى الصينيين يرفعون أعينهم عن شؤونهم اليومية، ويمدّون أبصارهم متطلِّعين إلى الفضاء، ولو للحظة واحدة. في بعض الأحيان، يمكن أن يكون ذلك شيئاً واقعياً للغاية» .

المحاور: برأيكما، ما الذي قد تعنيه عبارة «التطلُّع إلى الفضاء للحظة واحدة»، بالنسبة إلى الصينيِّين، في الوقت الراهن؟

- **ليو تسي شين:** يمكن القول، بموضوعية، إنها تعني تغيير التفكير، والاسترخاء لبعض الوقت. لا أطمح في الكثير من وراء ذلك؛ كوني كاتباً للخيال العلمي، ناهيك عن قول ذلك اعتقاداً بأن الأشياء في الفضاء أهمّ، حقّاً، من تلك الموجودة على الأرض، وأن المستقبل، بالفعل، أكثر أهمّيّةً من الحاضر، لدينا -كُتّابَ الخيال العلمي- إيمان راسخ بأن الفضاء سيكون، يوماً ما، أكثر أهمّيّةً من الأرض، لكن، بالحديث عن الوقت الراهن، إن التطلُّع إلى النجمات بالسماء هو ضرب





من ضروب التسلية والترويح عن النفس، يمكن القول إنه كذلك بالنسبة إلى الصينين، على وجه الخصوص. ينبغي علينا، في نهاية الأمر، أن نواجه الحياة على الأرض بجدِّيّة، وليس ثمّة سوء في ذلك، على الإطلاق. يجب أن يكون، لدى كتّاب الخيال العلمي، فهم واضح للأمر.

- هان سونغ: بالنسبة إلى الصينيين الحاليِّين، أودّ أن أقول لهم: حال حدوث إشعاع نووي، فكِّروا في ما إذا كان ثمّة ملح على سطح القمر. وعند المرض، فكِّروا، إن كان ثمّة فاصوليا خضراء على سطحه. ليكن الأمر على هذا النحو.

المحاور: قال ليو تسي شين من قبل: «إن سبيل الخيال العلمي لديَّ هو سبيل العثور على بيتي. لا أعرف أين يوجد بيتي؛ لذا ينبغي عليَّ أن أذهب للبحث عنه في مكان قصيّ». بينما، في رواية هان سونغ «مترو الأنفاق»، تطوَّرت رحلة ركّاب قطار مترو الأنفاق العائدين إلى بيوتهم إلى واقع تشرُّدهم المُروِّع. ما الدور الذي يلعبه الانفجار العلمي والتكنولوجي في رحلة العودة إلى البيت كما تنسجها أعمالكما؟

- ليو تسي شين: في الموطن الروحي للبشر، يمنح العلم الناس شعوراً بالاستقرار والاتِّكالية، وعلى الرغم

من عجز العلم عن إثبات الحقيقة المطلقة، في نهاية الأمر، بمقدوره إثبات التزييف، فحسب، وهو لا يزال واحداً من أقوى أنظمة المعرفة البشرية، وأكثرها صرامةً. في الأديان، يكفي إعلان إرادة الإله، حال عجز المرء عن تخمين الأشياء غير الواضحة. ومع ذلك، من الواضح أن هذا غير ممكن في العلم؛ فلا يعترف العلم بالقوّة والسلطة، بل يعترف، فحسب، بنتائج التجارب وملاحظات الطبيعة، وهو بمنزلة يد موثوقة تمسك بنا في غمار هذه الطبيعة غير المتوقّعة، في خضمّ رحلة الحياة غير المستقرّة، تلك التي تمثّل ريشة في مهبّ الريح. وفي الوقت ذاته، يكشف العلم عن أعمق طبقات الجمال في سرح الطبيعة؛ تلك التي لا يستطيع الأدب والفنّ التقليديّان إدراكها.

- هان سونغ: يُعد ذلك عاملاً مساعداً يغيِّر الشعور بالحواس الخمسة لدى العائد إلى البيت، لكنه، من ثَم، يضلّل طريق عودته، في نهاية المطاف.

المحاور: أين يكمن الجزء الأكثر سحراً في كتابة أدب الخيال العلمي، لدى كلٍّ منكما؟

ليو تسي شين: يكمن في شعور الخلق، والتجوُّل ما بين العوالم العديدة، إضافةً إلى شعور تجربة الحيوات المختلفة.

- هان سونغ: يكمن في الاغتراب.

المحاور: خلال مسيرة الكتابة، هل حدث أن مررت بتجربة «أن يلتهم العمل جزءاً منك»؟ هل تتأثّر حياتك الواقعية ببعض المؤثّرات القادمة من عالم آخر؟

- ليو تسي شين: لا. أشعر بأنني أكثر شبهاً بمهندس قصّة، يسعى جاهداً لبناء قصّة جيِّدة، بينما يبقى خارج إطار القصّة في معظم الأحايين. أعلم أن ذلك ليس جيِّداً، فلا ينبغي للروائي المؤهَّل أن يكون على هذا النحو. أنا، كذلك، أودّ أن أخلق فتاة جميلة في عالمي الخيالي، وأقع في حبّها، لكنني لا أفعل. أسعى، دائماً، لفصل الخيال العلمي عن الواقع. لقد مددت بعضاً من جسور التواصل مع الوسط الأدبي في الآونة الأخيرة، وجدت أن من يكتبون الروايات يبدون أشخاصاً عاديِّين، بينما يبدو مَنْ يكتبون الشعر، والفنّانون أناساً مغايرين.

- هان سونغ: في رواية «مترو الأنفاق»، أردت أن أجد حلّاً للكارثة التي ألمَّت بعالم مترو الأنفاق، وذلك على الصعيدَيْن: التقني، والفلسفي، بيد أنني لم أجد، فكلّ الإجابات وجميع التكهُّنات كانت خارجة عن سيطرتي، وقد أوضحت، في الوقت ذاته، أنني لم أتمكَّن من الخروج من النفق، وأدركت أن العمل قد التهمني. يمكن لهذا الأمر أن يخلق صعوبات للقرّاء، ويُشعرهم بعدم الرضا. بالنسبة إليَّ، العالم الآخر موجود كذلك، وينتابني شعور بأن ثمّة نسخة أخرى مني، ترقبني طوال الوقت، وتقول لي: مرحباً، هذا المكان ليس مكانك المناسب.

المحاور: لكلّ منكما وظيفته المعتادة خارج نطاق الكتابة. هل ثمّة علاقة بين ما تكتبانه من خيال علمي وطبيعة مهنة كلٍّ منكما، ومحتواها؟

- ليو تسي شين: ليس ثمّة علاقة، حتى لو كتبت رواية ذات صلة بالحاسوب، ذات مرّة، فإن ذلك الالهام لن يكون منبعه العمل.

- هان سونغ: أنا أمتهن الصحافة، الرجل الخارق «سوبر مان» في فيلم «سوبر مان» يعمل، كذلك، بالصحافة، بينما يستغلّ وقت فراغه في إنقاذ العالم. العلاقة بين هذين الاثنين، أشبه ما تكون بذهاب الكاتب «يوي تشيو يوي» لمضاربة الأسهم. أنا لست (سوبر مان)، ولا طاقة لي على إنقاذ العالم، كما لا أعرف كيف أضارب بالأسهم، غير أنني أتوق للقيام بشيء يبعد بعض الشيء عن عملي الأساسي. المسافة تصنع الذكاء.

المحاور: في ظلِّ تنوُّع الثقافة الشعبية الجماهيرية في هذا العصر، ما النوع المفضَّل لكلّ منكما؟ ولماذا؟

- ليو تسي شين: أحبّ مشاهدة الأفلام، ثمّة موضعان فريدان يحدّدان مسار تقديري: أوَّلهما: طالما أن الاستثمار ضخم، فأنا أحبّ حتى مشاهدة الأفلام السيِّئة.. دائماً، أشعر بأن إنفاق الآخرين لأموال ضخمة، يستدعي ألّا نهدرها، وثمّة شعور، أيضاً، بالاستمتاع بمشاهدة حرق الأموال. ويتعلَّق ثانيهما بنوعية الأفلام التي تستقطبني؛ والتي تنقسم إلى نوعين: أحدهما هو تلك الأفلام ذات الموضوعات العنيفة غير العاديّة، مثل أفلام الإثارة، والخيال العلمي، وجرائم الحرب، بينما النوع الآخر مميَّز بشكل خاصّ، فأنا أحبّ، بشدّة، تلك الأفلام النقية الرائقة إلى أقصى الحدود، تلك التي لا تشوبها شائبة، وتخلو من كلّ صراع بين الأشخاص؛ تلك «الأفلام» التي تشبه، في جمالها الرائق، النصّ النثري أو لوحة الألوان المائية. مثل هذا النوع نادر جدّاً، كما أنه غير مشهور البتّة. من الأفلام التي شاهدتها «قصّة أبريل»، «مطعم البطريق»، «ما نحن عليه»، «يوم ريفي»، وغيرها. وبين هذين النوعين، يصعب مشاهدة تلك الأفلام الكثيرة التي تعكس الحياة اليومية بطابعها الأدبي وطابعها الفني.

- هان سونغ: أفضِّل مشاهدة الأفلام، بما في ذلك أفلام «هاياو ميازاكي»، كما أحبّ مشاهدة الأعمال الفنِّيّة. ثمّة كثير من الأشياء لا يمكن تقديمها إلّا من خلال الصور، حينها تكون الكلمات عاجزة عن تقديم أي شيء. فيلمي المفضَّل هو فيلم «القيامة الآن»، وهو فيلم ضخم، وصادم للغاية، ينطوي على حسّ بالدِّين، وشعور بنهاية العالم كذلك.

هان سونغ يسأل ليو تسي شين

1. هل تعتقد أن الأجسام الطائرة المجهولة هي مركبات تخصّ الفضائيِّين؟

- ليو تسي شين: مصطلح الأجسام الطائرة المجهولة مصطلح عامّ، يمكن إطلاقه على جميع الأشياء التي تحلِّق في السماء، ولا نعرفها، وربَّما يقبع بداخلها مركبة (أو اثنتين) تعود إلى الكائنات الفضائية، بينما الأمر المؤكَّد، في هذا الصدد، أن الكائنات الفضائية التي تستقلّ مثل هذه المركبات، تنتمي إلى مجموعة هي الأكثر بؤساً وفقراً وتعثُّراً في مجرّة درب التبّانة.

2. هل أنت حزبيّ؟ وهل لذلك تأثير على كتابة الخيال العلمي؟

- ليو تسي شين: لا. اتَّصلت بي، منذ مدّة، دائرة الجبهة الموحّدة بالمدينة، وطلبوا مني الانضمام إلى حزب ديموقراطي أو شيء من هذا القبيل. لم يثِرْ ذلك اهتمامي، ويكمن السبب في رغبتي إتاحة المزيد من الوقت لأتمكّن من كتابة الخيال العلمي. يتعيَّن على أعضاء الحزب عقد العديد من لجان الدراسة، وكتابة التقارير لتوصيل أفكارهم، ناهيك عن ضرورة أن يضطلع أعضاء الحزب بدور قيادي ونموذجي، ومن غير المناسب كذلك، كتابة الخيال العلمي خلال ساعات العمل.

3. في كلمة واحدة، ما هو مفتاح كتابة الخيال العلمي الذي يحبّ القرّاء مطالعته؟

- ليو تسي شين: الحيرة (هذه الكلمة ليست المفتاح، إنها حالتي عندما أواجه هذه المشكلة).

4. هل تظنّ أن للمستقبل لوناً؟ لو كان الجواب بالإيجاب، فما قد يكون هذا اللون؟

- ليو تسي شين: لا لون له، المستقبل، في عقلي الباطن، شيء شفّاف، شفاف؛ لايمكن الرؤية من خلاله، إنه شبيه بالكريستال في بريقه وشفافيَّته، لكنه غامض لا يُسبَر غوره. في رأيي، المدينة المكوَّنة من رقعة كبيرة من الأبنية الكريستالية الشفّافة لديها أفضل إحساس بالمستقبل، ربَّما كان شعوري ذلك نابعاً من تأثُّري بمشاهدة «سوبر مان» في طفولتي، فقد تأثَّرت، بشدّة، بقصر الكريستال الرائع الذي نشأ من قطع صغيرة من الكريستال.

5. هل شعرت بالأرق، من قبل؟ ولماذا؟

- ليو تسي شين: كان ذلك نادراً جدّاً. يمكنني، بشكل أساسي، تذكّر شعور الأرق عشيّة رأس السنة، كلّ عام، حيث يضجّ الخارج بالأصوات المرتفعة للقذائف.

6. هل أنت متفائل أم متشائم؟ وهل آمنت، من قبل، بالقدَر؟

- ليو تسي شين: أنا متفائل، وأومن إيماناً راسخاً بأن



ليو تسي شين

وُلِد في مدينة يانغتشوان التابعة لمحافظة شانشي، عام (1963). يعمل مهندس كمبيوتر في محطّة «نيانغتسي قوان» لتوليد الكهرباء في شانشي، كما يكتب روايات الخيال العلمي كعمل ثانوي. نال، لسنوات متتالية، جائزة «جالاكسي» لإبداع الخيال العلمي الصيني، وكما نال غيرها من الجوائز، وهو أحد أشهر كتّاب الخيال العلمي في الصين. ومن أعماله: «عصر السوبرنوفا»، «كرة البرق»، «المعلّم الريفي»، وغيرها. وفي نهاية (2010)، صدر عمله «مشكلة الأجسام الثلاثة 3: نهاية الموت»، وهي الجزء الأخير في سلسلة «مشكلة الأجسام الثلاثة»؛ التي تُعَدّ أهمّ أعمال الخيال العلمي الصيني

البشريّة مادامت لا تتخلّى عن العلم، فسيكون الغد أفضل مقارنةً باليوم، وأن المستقبل أفضل حتماً، مقارنةً بالحاضر. لم يسبق لي أن آمنت بالقدر يوماً، وأعتقد، في ظلّ هذا العصر المليء بالفرص، أن أولئك الذين يحيَوْن حياة سيِّئة يستحقّونها، لأنهم لا يعملون بجدّ. وبطبيعة الحال، لو حدث أن تعثَّرت خطاي فهويت هنالك، ذات يوم، فلن ألوم أحداً على الإطلاق.

7. ما رأيك في البوذيّة؟ هل كان بوذا سيدرس الفيزياء، لو عاش في العصر الحديث؟

- ليو تسي شين: أعتقد أن الديانة البوذية هي الأكثر تعقيداً من بين كافّة الديانات، ولا أعرف الكثير عنها، ولست مؤهَّلاً للحديث بشأنها، كما أني لا أفهم روح بوذا. أعتقد، فحسب، أن وضع العالم المعقَّد بشكلٍ مذهل، في البوذية، هو وليد خيال علمي جامح. لا أتَّفق مع وجهة النظر السائدة في «الفيزياء الحديثة والتصوُّف الشرقي»، وأظن أن بنية العالم، في البوذية، تختلف، تماماً، عنها في علم الفيزياء وعلم الكونيّات من حيث نظامها المعرفي. أحسب كذلك أنه من السخف القول إن علماء الفيزياء يكافحون لتسلُّق الجبل، في حين ينتظر بوذا في الأعلى، وابتسامة تعلو وجهه، دون أن ينبس بكلمة. إذا عاش بوذا في العصر الحديث، دون أن يدرس الفيزياء النظرية، فسيظلّ جالساً في ظلّ شجرة كبيرة يتأمَّل، ناشداً لحظة التنوير. لكن، وقتذاك، ستكون طائرة نفّاثة قد حلَّقت من أعلى القمّة، وانسابت حركة المرور على الطريق السريع، على مقربة منه، وفوق العشب أمامه، تعالت ضحكات الفتيات الجميلات، وفي النهاية، سيمرّ ذلك دون أن يدرك منه شيئاً.

8. كيف تصف الحبّ؟

- ليو تسي شين: أصعب شيء في الكون؛ قد تستخدم الرياضيات للتعبير عنه.

9. أخيراً، ما عساه يكون الكون؟ (لا يمكن الإجابة بالقول إن ذلك غير واضح)

- ليو تسي شين: بالنسبة إلى القدماء الصينيين، الكون هو مِرْجَل محمول على الرأس، يكون أزرق في النهار، وأسود في الليل. وبالنسبة إلى اليونانيين القدامى، الكون عبارة عن كرة زجاجية مجوَّفة تحوي مجموعة من الكرات، مرصَّع أعلاها بالكوكب والشمس؛ أما بالنسبة إلى المعاصرين، فهو رماد بارد تُخلِّفه الألعاب الناريّة؛ بينما هو في عيون كُتّاب الخيال العلمي، مسرح تنكشف على خشبته القصص، وأداة يكسب منها المؤلِّف أجره.

ليو تسي شين يسأل هان سونغ

1. كم مُسَوَّدة لرواية تتكدَّس في قاع صندوقك، دون أن تُنشَر؟ وهل نُشر عملك المفضَّل أم مازال هنالك في قاع الصندوق؟



هان سونغ

من مواليد تشونغتشينغ، التحق بوكالة أنباء شينخوا عام (1991)، وتقلَّد عدّة مناصب هي: مراسل صحافي، ونائب مدير تحرير المجلَّة الأسبوعية «نظرة على الشرق»، ورئيس التحرير التنفيذي فيها، ونائب مدير الشؤون الخارجية في وكالة أنباء شينخوا، ونائب مدير الإدارة المركزية في الوقت ذاته، وعضو هيئة تحرير مجلّة «الجيش الصيني». يكتب أدب الخيال العلمي، ومن أعماله: «شاهدة قبر الكون»، «رحلة إلى الغرب عام 2066»، «المحيط الأحمر»، وغيرها. في نهاية عام (2010)، طُرحت في الأسواق رواية الإثارة والتشويق «مترو الأنفاق».

- هان سونغ: أكثر من مئة قصّة قصيرة، ونحو ثلاث إلى خمس روايات. أفضل الأعمال هي تلك المنشورة على الإنترنت، مثل «دليل مطاردة الجمال».

2. أيّهما الأصعب: كتابة التقارير الإخبارية، أم كتابة قصص الخيال العلمي؟

- هان سونغ: من الصعب، للغاية، كتابة كليهما بشكل جيِّد؛ فهما يتطلَّبان تخيُّل الحقيقة. حال المقارنة، تكون كتابة الأخبار أكثر صعوبةً.

3. يقال إن كتابة الأخبار، لفترة طويلة من الوقت، تمثِّل نوعاً من الضرر يلحق بإبداع الرواية، بينما لا يبدو، في أسلوب كتابة الرواية لديك، أدنى تأثُّر بأسلوب كتابة الأخبار. كيف فعلت ذلك؟

- هان سونغ: ربَّما حان الوقت أكثر فأكثر لكتابة الأخبار بتقنيات الرواية، في الوقت الراهن.

4. هل تشعر بالفزع عند مشاهدة أفلام الرعب؟

- هان سونغ: لأنني أشعر بالخوف الشديد، لا أجرؤ حتى على مشاهدتها.

5. إذا قدم لزيارتك، ذات يوم رجل أبيض الشعر، وكان هو أنت في المستقبل، بعد ستِّين عاماً، ما أكثر سؤال تودّ أن تطرحه عليه؟

- هان سونغ: مَنْ برفقتك؟

6. لو كان ثمّة عالَمان؛ أحدهما ضيِّق ومشرق، والآخر رحيب ومظلم، فأيُّهما تفضِّل؟

- هان سونغ: الأخير.

7. يقال إنك تستيقظ في منتصف الليل لتكتب، وهذه عادة غير شائعة، لا يسعني معها سوى التخمين: هل تستيقظ لتسجل أحلامك؟

- هان سونغ: لا أتذكَّر أحلامي، في الأغلب. أستيقظ في منتصف الليل، لأنني كثيراً ما أخلد للنوم مبكِّراً. لو نمت متأخِّراً بعض الشيء، فغالباً ما أستيقظ لأكتب في ساعات الصباح الأولى.

8. زرت الكثير من الأماكن بحكم أنك صحافي، أيّها تفضِّل؟ وأيُّها أكثر ما تكره؟

- هان سونغ: أكثر مكان أحبّه هو التيبت، وليس ثمّة مكان أمقته، فالأمكنة جميعها تمنح المرء شعوراً بالتجديد.

9. إذا كنت ستُنفى إلى بلوتو مدى الحياة، ومسموح لك بأخذ كتاب واحد، وقرص مضغوط لفيلم، فما الذي ستحمله؟

- هان سونغ: رواية «هامش المياه»، وفيلم «القيامة الآن».

10. يرجى كتابة مُسَوَّدة موجزة لآخر خبر صحافي تذيعه وكالة الأنباء، عشيَّة تدمير العالم.

- هان سونغ: «لقد اخطأوا التقدير»: وكالة أنباء XX، بكين، 21 ديسمبر/كانون الأوَّل. فيما يتعلَّق بشائعة دمار العالم المتداولة، مؤخَّراً، عبر شبكة الإنترنت، والتي انتشرت في محيط معيَّن، مسبِّبةً ذعراً الأشخاص في هذا المحيط. وطبقاً لما أطْلَعنا عليه المراسل، هذه الشائعة روَّجها بعض الأشخاص من الخارج، ممن لديهم دوافع خفيّة. لقد اختلقوا معلومات زائفة، وروَّجوها عبر الإنترنت؛ ذلك من أجل إحداث الفوضى في بلادنا؛ بهدف إرباكها. لقد رفعوا راية البحث العلمي، بينما انخرطوا، في الواقع، في الأنشطة التي تزعج الناس، وتقوِّض النظام الاجتماعي. أينما يكن الاستقرار، ينشروا الشائعات التحريضية، وحيثما توجد ثغرة، يمدّوا أيديهم لإثارة القلاقل. ينبغي علينا أن نكون يقظين دائماً في مواجهة هؤلاء الأشخاص خَفيِّي الدوافع، وأن نحفظ أذهاننا صافيةً، على الدوام، ونبقي أعيننا مفتوحة، لنكشف مؤامراتهم، ولا نسمح بنجاح محاولاتهم البتّة. وفقاً للمعلومات التي حصل عليها الصحافيون من السلطات، سيظلّ العالم على حاله، ولن يتدمَّر أبداً. قلَّة من ذوي الأجندات الخفيّة، أساؤوا الإلمام بالوضع، واختاروا المكان الخطأ، وأساؤوا التقدير.

جائزة هوغو

جائزة تمنحها «الجمعية العالمية للخيال العلمي»، ويشار إليها -اختصاراً- بـ(WSFS)، والاسم الرسمي لها هو «جائزة الإنجاز في الخيال العلمي - The Science Fiction Achievement Award»، سُمِّيت بـ«جائزة هوغو» تكريماً لأبي الخيال العلمي « هوغو جيرنزباك»، ويمكن تسميتها بـ«جائزة نوبل في الخيال العلمي»، يُعترف بجائزتي «هوغو» و«نيبولا» في وسط الخيال العلمي باعتبارهما جائزتَيْن موثوقتَيْن ومؤثِّرتَيْن. تُمنَح «جائزة هوغو» بناءً على اختيار القرّاء، وتُمنَح «نيبولا» بناءً على آراء لجنة التحكيم.

في الساعة الواحدة ظهراً، يوم (23) أغسطس عام (2015)، تَمَّ الإعلان، رسميّاً، عن «جائزة هوغو» الثالثة والسبعين في مركز سبوكان للمؤتمرات، في واشنطن. فاز الكاتب الصيني ليو تسي شين بجائزة أفضل رواية عن عمله «مشكلة الأجسام الثلاثة»، وكانت هذه هي المرّة الأولى التي يفوز فيها بالجائزة كاتب أسيويّ.

■ **ترجمة عن الصينية: مي ممدوح**

نقلاً عن: منصّة مجلَّة المدينة، بتاريخ 24 أب/ أغسطس، 2015
المصدر:
https://mp.weixin.qq.com/s/JDGl02pQ3IFI1ap3bgIdKg

كارل أوفه كناوسغارد:

«كنتُ أعتقدُ أن ظمئي للكتابة سوف يُروى ما إن أنتهي من قول كلّ شيء»

كان الكاتب «كارل أوفه كناوسغارد - Karl Ove Knausgaard»، موجوداً في باريس، في الفترة التي تفصل بين تاريخ صدور روايته «في الصيف»، التي تمثّل الجزء الأخير من رباعيَّته «الفصول الأربعة»، وتاريخ صدور كتابه التالي في سبتمبر/أيلول القادم، عن دار النشر (Denoël)، حول الرسّام النرويجي (إدوارد مونش - Edvard Munch). (1863 - 1944).

سألناه عن مصادر إلهامه، وعن علاقته بالعالم المادّي، وعن نقط التشابه التي تربط مجموع أعماله بالعالَم التصويري لـ«مونش ابن بلده العظيم.

فلورنس نويفيل: تمثّل روايتكم: «في الصيف» الفصل الأخير من سلسلتكم. كيف كان شعوركم عندما أنهيتم كتابة هذه السلسلة؟

- كارل أوفه كناوسغارد: من الجيِّد، دائماً، إنهاء مشروع ما. وقد عَرف هذا المشروع، أيضاً، عدداً من التحوُّلات، على امتداد زمن إنجازه. في البداية، ألزمتُ نفسي بقاعدة بسيطة: أن أكتب نصّاً واحداً كلَّ يوم، وفي دَفعة واحدة. وبعد أن ألَّفْتُ روايتي «في الربيع»، وبعدها «في الخريف»، و«في الشتاء»، توصَّلتُ، في نهاية المطاف، إلى أن هذا القيد صارمٌ إلى حدٍّ ما، ووجدتُ أن هذا الشكل ثابت، فما كان منّي إلّا أن فسحتُ المجال لهذه القاعدة لكي تتطوَّر، وهكذا غدا الكتاب الرابع يختلف عن الكتاب الأوَّل؛ فهو يحتوي المزيد من النصوص، ومن شذرات عدد من اليوميّات، ناهيك عن لوحات الألوان المائيّة للفنّان الألماني «أنسلم كيفر». باختصار، يتضمَّن هذا الكتاب، أكثر من غيره، مجموعة من الموادّ الأكثر تنوُّعاً.

ما الذي أثار لديكم، في الأصل، هذه الرغبة في النصوص القصيرة المكتوبة دَفعةً واحدة؟

بدأ كلّ شيء مع «الانحياز للأشياء» (1942)، وهو مجموعة من قصائد النثر للشاعر الفرنسي «فرانسيس بونج». عندما اكتشفت هذا الكتاب، في سنّ السادسة والعشرين، أحببته على الفور. لم يسبق لي أن قرأتُ شيئاً مثل هذا من قبل، وبعد أن ألّفتُ روايتي الأولى، حاولت تقليده، حتى إنني قمت بإعداد قائمة بالأشياء اليومية التي أردت وصفها، بالطريقة نفسها، وبالروح نفسها، لكنني لم أستطع فعل ذلك. وبعد تأليف كتابي «كفاحي» الصادر عن دار نشر (Denoël)، ما بين (2012) و(2020)، كانت فكرة محاكاته ما تزال تراودني، وقد حاولت مرّة أخرى. فجاءت هذه السلسلة الرباعية بمنزلة «الانحياز للأشياء» (الخاصّ بي) بعد مرور سنوات عدّة.

وماذا عن فكرة الفصول؟

- بينما كنت أبحث عن صيغة بسيطة، فرضَتِ الفصولُ الأربعة نفسَها. لقد مكَّنتني هذه الفصول من الكتابة عن حياتي، وعن الأشياء من حولي، وعن الأماكن، والحيوانات، دون أن أتحدَّث عن نفسي. أردت، أيضاً، أن أحتكّ بمفهوم الموسوعة. شعرت أنه يجب أن يكون هناك إمكان لوصف العالم؛ لوصف كلّ ما هو موجود في هذا العالم، بطريقة محايدة، لا تتأثر بهويَّتك (من أنت؟)، ولا بالمكان الذي أتيت منه (من أين أتيت؟)، لذلك كانت فكرة هذه الفصول مزدوجة؛ فمن ناحية، كانت المسألة تتعلَّق باستعادة جزء من الوجود الخاصّ - ولادة ابنتي



التي نراها تظهر في كتابي «في الخريف»، بينما ما تزال جنيناً في بطن أمّها. ومن ناحية أخرى، كانت هناك تلك الرغبة في استئناف التصوُّر الكوني للموسوعة. يتعلَّق الأمر بمزيج ممّا هو حميمي وما هو مشاع؛ أي بكتاب مُهدًى إلى ابنتي، وآخر مهدًى إلى الآخرين.

هو، إذن، كتاب تقومون بإهدائه لابنتكم... ربَّما لأنكم، عندما كنتم في سنّ الطفولة - وقد ذكرتم ذلك كثيراً- لم يسبق لوالدكم أن تحدَّث معكم يوماً؟

- في الواقع، لم يكن يتحدَّث، أبداً، عن الأشياء المهمّة. من الصعب أن نتعامل مع الأشياء المهمّة من خلال التعبير عن شعورنا الحقيقي، إلّا في الكتابة. اعتقدت، دائماً، أنني سأَهَبُ هذا الكتاب إلى ابنتي عندما تبلغ سنّ الثامنة عشرة، وكأنه هديّة من الهدايا.

هل تغيَّرت طريقة كتابتكم، في نهاية هذه السلسلة، بالمقارنة مع طريقة الكتابة لديكم في كتابكم «كفاحي»؟

- كان هذا هو الهدف، فقد أردت أن أقطع علاقتي مع كتابي «كفاحي»، أن أقطع الصلة مع الدراما، والعاطفة الدائمة، وحالاتي في التفكير... كانت «رباعيّة الفصول» هذه مشروعاً مختلفاً اختلافاً جوهريّاً. ولكن عندما تُقرأ جيِّداً ... دائماً أنا، دائماً كتابتي. وبالنهاية، لم أتمكَّن من الهروب من نفسي.

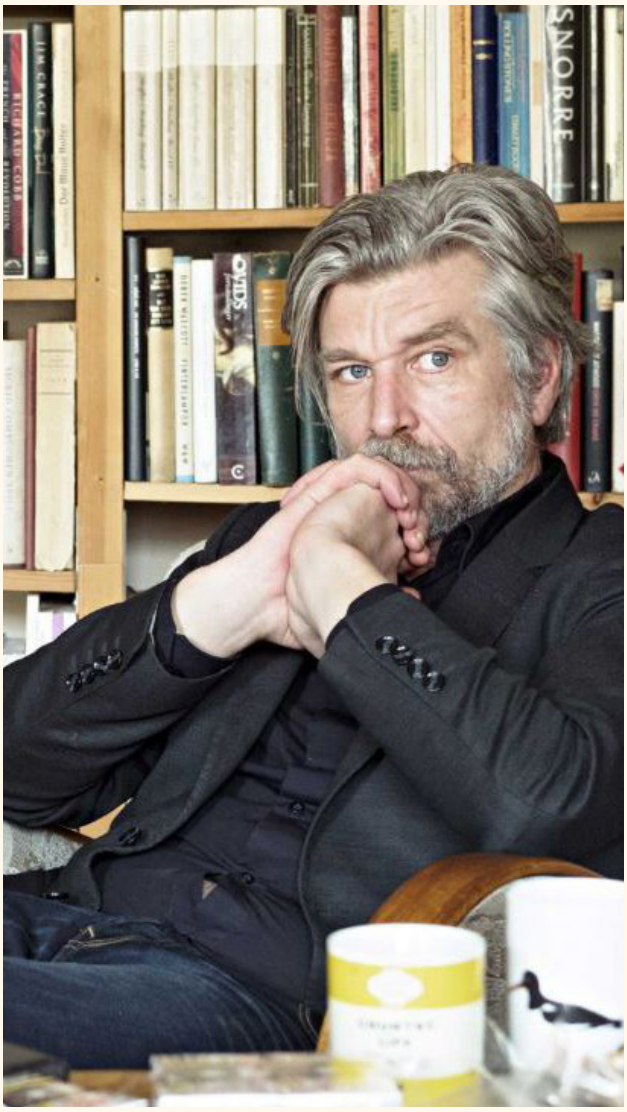
ما الذي يجعلك سجينَ نفْسِك؟

- إنه شيء ما، بداخلي، يقاوم. عندما أعيد قراءة ما كنت أكتبه في سنّ العشرين، ألاحظ أن هذا الشيء كان موجوداً، بالفعل، في ذلك الوقت. وكأن هذا الشيء نبع، أو نقطة تتطلَّع للوصول إليها. يمكنك أن تسلك مسارات مختلفة، ولكن هذا الموضع هو المكان الذي تحاول، دائماً، الذهاب إليه ... هناك صراع في داخلي: أريد أن أجيب عن السؤال: لماذا أحتاج إلى الكتابة؟ أعلم أن الإجابة عن هذا السؤال تكمن في البحث قريباً من والدي، وبالإهانة التي لحقتني على يديه، في شبابي. في البداية، كنتُ أعتقدُ أن ظمئي للكتابة سوف يُروى ما إن أنتهي من قول كلّ شيء، كل شيء، على الإطلاق. ولكن الأمور لا تسير على هذا النحو، فالنبع لا ينضب، وبعد كتابة آلاف الصفحات، ما أزال هنا، ومازال أكتب.

قمتم بتخصيص كتاب سيُنشر في سبتمبر، أيلول (2022)، للرسّام النرويجي إدوارد مونش. وسيرافق هذا الكتاب

المعرض المزمع تنظيمه في متحف أورسيه، المستوحى من متحف مونش في أوسلو، وهو المتحف الذي منحك صلاحية مطلقة عام (2017). وسنرى أن مونش، أيضاً، كان يحوم، دون كلل، حول «نقطة النبع» الخاصّ به...

- في الواقع، كان البحث المستمرّ نفسه هو ما قاده إلى الرسم، من مرحلة المراهقة إلى النهاية، عندما توفّي عن عمر يناهز (الثمانين) عاماً، محاطاً بأعماله. بالنسبة إلى معرض أوسلو، تمكّنت من الاطّلاع على (1000) لوحة، و(20000) رسم تقريبي. كان كلّ شيء متفاوتاً، ولكن هناك، دائماً، في أبسط رسم، طاقة لا تُصَدَّق. أردت أن أسلّط الضوء على هذه الطاقة من خلال أعمال لم تُعرَض من قبل؛ لا لأن هذه الأعمال قد بلغت النهاية والكمال، بالضرورة، بل لأن الطاقة الكامنة فيها متجلّية. أعاد مونش النظر في الموضوعات نفسها مراراً، وتكراراً. وليس من قبيل المصادفة أنه كان، أيضاً، قارئاً شغوفاً، لدوستويفسكي، ففي اليوم الذي توفّي فيه، كان يعيد قراءة روايته «الشياطين».



ما الذي يصدمك، بشكل خاصّ، في لوحاته؟

- من الصعب أن نحدّد كيف يؤثّر فيك رسّام ما، واعتماداً على أيّة ينابيع، يكون التأثير، وكيف تفعل تحفةٌ ما فِعْلَهَا في الآخَرين، وكيف يتمّ توصيل عاطفة بلمسة فرشاة، وكيف يتمّ ربط فكرة بلون ما. أتحدَّث عن هذا في بداية مقالتي عن مونش، حول لوحة تعود إلى عام (1915)، تصوِّر حقلاً من الكرنب. يتم ذلك بسرعة، تقريباً مثل رسم تخطيطي، يتضمَّن مساحات مسطّحة من الأخضر والأزرق تلتقي في المدى البعيد، ومثلّث من القمح الأصفر على الجانب، وشريط داكن يلوح في الأفق ... ومع ذلك، هذه اللوحة زاخرة بالمعنى بطريقة سحرية: إنها تفجِّر شيئاً ما بداخلي. أرى فيها الفراغ، والموت، كما أرى فيها، أيضاً، المصالحة مع الموت، نوعاً من الدعوة إلى الذوبان في لانهائية العالم. إن لوحة مونش لا تقول شيئاً، ولا تُظهر سوى الكرنب والقمح والأشجار والسماء. ولكن الموت، والمصالحة، والسلام... كلّ هذا موجود فيها، بين الكرنب والقمح، والأصفر والأخضر، والأزرق والبرتقالي.

نقط التطابق هذه المؤرّقة بين السخيف والميتافيزيقي - بين الموت والكرنب - موجودة، باستمرار، في فصولكم الأربعة، مثلما تحضر لديكم، أيضاً، فكرة الامتزاج مع الطبيعة العظيمة بأكملها...

- نعم. وهذا قاسم مشترك آخر بيني وبين مونش. إنني مِثْله؛ أحبّ الأشجار. لقد رسم الكثير منها: أشجار الكستناء، والبتولا ... كما أنني أصف الكثير منها في فصولي. إنه يمنحها مواقف بشرية، بينما أصرّ على أوجه التشابه بين العناصر، وذلك من خلال التخلُّص من البعد السيكولوجي قدر الإمكان، وبالنظر، فقط، إلى مجموعات الذرّات، والفيزياء، وعلم وظائف الأعضاء ...

كلمة أخيرة عن أهمّيّة السرعة. أنتم تصرّون على سرعة اللمسة في لوحات مونش ورسوماته. يبدو الأمر كما لو أنه أَجْبَرَ نفْسَهُ، أيضاً، على «الرسم دفعةً واحدة». لماذا من المهمّ جدّاً أن نبدع بهذه الطريقة في الحركة، دون تفكير، تقريباً؟

هذا هو بيت القصيد. في مشروعي الحالي، لا أعرف إلى أين سأذهب بعدُ: الكتابة هي التي تجعل ذلك يحدث. ليس على المرء أن يعرف ما يفعله عندما يكتب أو يرسم. إذا كنّا على دراية كبيرة بما نفعل، فيمكننا القول إننا فشلنا فشلاً ذريعاً.

■ **حوار: فلورنس نويفيل □ ترجمة: د. فيصل أبو الطُّفَيْل**

المصدر:

Le monde, Vendredi 17 Juin 2022, pp. 32.



إيلين أوبرست:

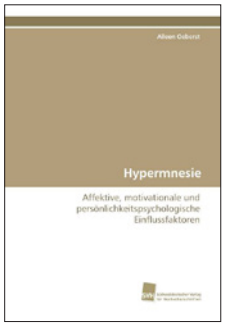
الذكريات الهشة تعيد برمجة الذاكرة

الذاكرة.. هي الصندوق الأسود لعقولنا. لكنها ليست دائماً الدليل القاطع على ما وقع من أحداث ويصعب الاستناد إليها، بصورةٍ مطلقة، في سرد الحقائق والتفاصيل بدقة.. الذكريات الهشة قد تساهم في توليد ذكريات زائفة.. تتحدَّث «إيلين أوبرست»، أستاذة علم النفس بجامعة «هاغن» الألمانية والباحثة في مجال «العلوم العصبية»، في مقابلة أجرتها معها مجلّة «تسايت»، عن مدى هشاشة الذاكرة الإنسانية التي هي أضعف مما نعتقد وتحكمها العديد من المُتغيرات التي تجعل مخرجاتها ليست بالدقة الكافية والتماهي الكامل مع الحقائق.. تشرح «أوبرست» كيف تتشكّل الذكريات الزائفة إلى جوار نظيرتها الحقيقية. كما تفنِّد مدى خطورة التلاعب بهذه الذكريات الوهنة. وكيف أن الأمر أكثر تعقيداً مما يبدو عليه؟ فهذه الذاكرة الهشة تتغيَّر باستمرار ويمكن أيضاً تزييفها عمداً - سواء بصورة ذاتية أو من قِبَل الآخرين.

ماذا أعددنا لعيد الميلاد العام الماضي؟ صديقي يقول: سمك، لكنني متأكدة أنه لحم روستو.. كذلك لا يزال صديقي يقول حتى يومنا هذا إنه اتخذ الخطوة الأولى في بداية علاقتنا، لكنني متأكدة كوني الأولى في الإفصاح عن مشاعري. أستطيع أن أتذكر أين كنا وماذا كان يرتدي وما قلته بالضبط؟... الغريب أنه إذا سألتِ شخصين عن نفس الحدث، فغالباً ما تحصلين على إجابتين مختلفتين.. فكيف يحدث ذلك؟

- ذاكرتنا أسوأ بكثير مما نعتقد، وذكرياتنا مشوهة أيضاً، في المُقابل. الارتباك هنا «كلاسيكي» للغاية، وليس مستغرباً. فمن الوارد أن يحدث لَبس وتختلط السنوات فيما بينها حال استدعاء الذكريات، فكلتا الإجابتين صحيحتان. ولكن الفارق هنا في دقة استدعائها. هناك أيضاً فرضية مهمّة تفسر مثل هذا الاختلاف، فغالباً ما نمزج بين ما حدث وما نتمناه أو ما كان في نيتنا فعله، خلال عملية استدعاء الذكريات، فيختلط تلقائياً ما كان يدور في رؤوسنا ولم نتفوه به لفظياً مع ما حدث بالفعل.







كيف يمكن الخلط بين النوايا والتجارب الحقيقية؟

- الذكريات، في الأساس، بمثابة إعادة بناء للأحداث، فلا تعمل ذاكرتنا مثل حافظة الكمبيوتر، حيث يمكن استعادة نفس الملف مراراً وتكراراً، إذ تتغيَّر الذكريات في كلّ مرّة نفكّر فيها في هذه الأحداث المُطمَرة داخل الذاكرة. تلعب صورتنا الذاتية أيضاً دوراً في إعادة تشكيل الذكريات: أولئك اللائي يرين أنفسهن نساءً متحرِّرات يسعدن باتخاذ الخطوة الأولى. أو كُن يرغبن في القيام بذلك. في الوقت نفسه، يتطوَّر مسار حياة الأفراد/الناس، ويتعلمون أشياءً جديدة، وتمر بهم العديد من المُتغيِّرات، التي تغيِّر وجهة نظرهم في الأحداث السابقة، والأمر ذاته يحدث في طريقة استرجاع هذه الأحداث. فعلى سبيل المثال، تختلف الطريقة التي نتذكر بها لحظة من حياتنا في سن الخامسة عشرة مقارنةً بلحظات أخرى في سن الثلاثين أو الستين، كما لو كنا ننظر إلى هذه الذكريات من خلال عدسات مختلفة.

يبدو هذا التحليل كما لو أننا لا نستطيع الاعتماد على ذاكرتنا، بصورةٍ مطلقة...

- هذا صحيح إلى حدٍّ ما. في الأساس، قد يكون ما نتذكره صحيحاً بدرجة كبيرة. ولكن ليس تماماً، ومن ثمَّة، علينا أن ندرك أن العديد من العوامل يمكنها أن تؤثر على ذاكرتنا. ربّما تتأثر ذكرياتنا بفعل أحلامنا، وقد تتشوه أيضاً بفعل قصص الآخرين. من الأمثلة الجيدة على ذلك ذكريات الطفولة: إذا أخبرك والدك القصّة ذاتها عشر مرات عن كيفية استمرار سقوطك عن دراجتك الحمراء أثناء التدريب، فمن المُحتمل أن تدمج اللون الأحمر في ذكرياتك. حتى لو كنت لا تتذكره بنفسك. الشيء نفسه ينطبق على الصور. غالباً ما يزعم الناس أنه يمكنهم تذكّر تجارب طفولتهم المُبكِّرة عندما كانوا في عمر سنة أو سنتين أو ثلاث سنوات، بينما تخبرنا أبحاث البيولوجيا العصبية أن هذا الأمر ليس ممكناً وغير قابل للتحقق. ففي هذه المرحلة العمرية، لم يتطوَّر بعد الدماغ والوعي الذاتي بصورةٍ كاملة، إذ من المُفترض أن تتشكَّل الذكريات الأولى بين سن الرابعة والخامسة.

أتقصدين أن كلّ اشتباك يحدث مع الماضي بإمكانه تغيير برمجة الذاكرة؟ ولو كان الأمر كذلك، فهل هذا يعني أنه من الصعب أن نعتمد على ذاكرتنا، خاصة وأن هناك احتمالية تولد ذكريات خاطئة؟

- يمكنك اعتبار الأمر على هذا النحو. لكن عادةً لا تهاجم هذه التغييرات جوهر الذاكرة، بل تهاجم التفاصيل فقط، إذا تحدثت عنها. الأمر أبعد من ذلك أيضاً؛ فإذا واصلت سرد قصّة من ماضيك، ففي مرحلة ما لم تعد تتذكرها بالضبط: هل كان الأمر كذلك حقاً أم أنك تذكر هذه التفاصيل فقط لأنك قمت بسردها بهذه الطريقة في المرّة الأخيرة؟! حتى الآن، هذه مجرد أمثلة يومية، حيث لا يكون للذاكرة الزائفة عواقب وخيمة بصورةٍ واضحة. ولكن هذا بالطبع يقودنا إلى حقيقة أن ذاكرتنا هشة ويمكن التأثير عليها بسهولة، والخطورة في ذلك تتشكَّل عندما يؤثر الآخرون فيما نتذكره أو يتلاعبون بالكيفية التي نستدعي بها هذه الذكريات.

لقد أظهرت بعض الدراسات أن ما تقولين ممكن حقاً. فهناك اختبارات على زرع ذكريات خاطئة في رؤوس الأشخاص، وثبت نجاحها بالفعل...

- أجل، سأسوق لكِ مثالاً: لقد قمنا بدعوة

بعض الطلاب بحُجة إجراء دراسة عن ذكريات مرحلة الطفولة. تحدَّثنا إلى آبائهم مسبقاً وتحدَّثنا عن ذكريات حقيقية. في وقتٍ لاحق قمنا بخلط هذه الذكريات مع ادعاءات كاذبة وسألنا الطلاب عنها. كان رد الفعل الأول لهم: لا نتذكَّر ذلك. وبعد ذلك، بدأ الطلاب الخاضعون للاختبار البحث في ذاكرتهم. أخبرناهم أننا حصلنا على هذه المعلومات من ذويهم. وهم في الواقع مصدر موثوق به عن مرحلة الطفولة. ثمَّ منحناهم الوقت اللازم، وطلبنا منهم التفكير بشكلٍ مكثّف مرّةً أخرى حتى موعد الجلسة التالية. المُفاجأة أن الطلاب الذين لم يكونوا متأكدين في البداية والذين وثقوا في سرد آبائهم بدأوا يفكّرون ويختبرون ذاكرتهم. في المُقابلات التالية، نظلّ نعضد هذه الذكرى الزائفة بشكلٍ متكرِّر بواسطة حثهم على التفكير أكثر وأكثر. في النهاية، ثبت أنه يمكن إقناع الطلاب الخاضعين للاختبار أنهم سيتذكّرون الأمر بهذه الطريقة.

إذن ما الذي يحفِّز الذاكرة الخاطئة ويجعلها تكتسب مصداقية زائفة لدى أصحابها.. أهو اقتراح الأفكار أم الحث على التخيُّل؟

- ربّما بشكلٍ أكثر دقة: اقتراح الأفكار والحث على إعادة البناء - بعبارةٍ أخرى، القدرة والدافع لتضمين الحدث المُقترح في قصّة حياة المرء. لقد تصرَّفنا نحن والآباء كسلطة موثوقة، والنتيجة أنهم صدقوهم وصدقونا. وهنا تكمن خطورة هذا الدور، بحسب الجهة الموثوقة لدى الأشخاص من أصحاب الذكريات الهشة، وهذا بالطبع يمكن أن تكون له عواقب أكثر خطورة.

ما هي النماذج الحياتية التي يمكن أن يطرأ عليها مثل هذا التغيير في الذاكرة الإنسانية؟

- يحدث هذا كثيراً -بصورة غير متعمَّدة- في العلاج النفسي، لأن الأشخاص الذين يخضعون للتأهيل النفسي معرضون لذلك أكثر من غيرهم. عادةً ما يطلب هؤلاء، المُساعدة والاستشارات النفسية، لأنهم يعانون، وغالباً ما يهتمون بالسؤال: ما هي مشكلتي؟ إنهم يبحثون عن تفسير للمشاكل التي تؤرقهم أو تفسير معاناتهم. هذا بدوره، يمكن أن يؤدي إلى تكوين ذاكرة خاطئة. في بعض الحالات، يحدث ذلك، لسوء الحظ، إذا أخذ المُعالج أطروحة مفادها أن سبب الاكتئاب، على سبيل المثال، هو صدمة من الماضي ويريد «البحث فيها». ولكن في الواقع لم تكن فرضيته بالدقة الكافية اتساقاً مع تاريخ المريض، ولم يكن هناك بالفعل مثل هذه الصدمة. هذه الفرضيات غير الدقيقة يمكنها أن تولد ذكريات كارثية زائفة. المُشكلة هنا، أن المريض ينظر للطبيب كـ«سلطة موثوقة» و«خبير اختصاصي». ومن ثمَّة، يبدأ المرضى في البحث، والتفكير في هذه الفرضية، ويبحثون في ذاكرتهم البعيدة. وبمرور الوقت، يخلقون صوراً في رؤوسهم وقصصاً تبدو منطقية بالنسبة لهم.

يبدو هذا خطيراً.. ولكن ربّما يحاول المُعالجون «التعمُّق في الأمر» من باب الاشتباه في حدوث صدمة مكبوتة، أليس هذا وارداً؟

- أجل، هناك حالات يصل فيها المرضى إلى الاعتقاد بأنهم يتذكَّرون التجارب السيئة، بينما لم تكن لديهم ذكريات عنها قبل العلاج. قد يبدو هذا بالنسبة لهم «تفسيراً» لسبب اكتئابهم، أو عدم أدائهم الجيد في الحياة، أو عدم قدرتهم القيام بمهامهم الحياتية، أو حظهم السيئ في الحب، وهكذا. لا أنفي أن الذاكرة البشرية البعيدة والمراحل الحياتية الأولى، كمرحلة الطفولة، قد تحمل تجارب مؤلمة، ويمكن أن يكون لها -بالطبع- تأثيرٌ دائم على حياة الأفراد. لكن المشاكل النفسية يمكن أن يكون لها أسبابٌ عديدة. وإذا لم تكن هناك صدمة بالفعل في حياة هؤلاء، فإن البحث في مثل هذه الفرضية غير الدقيقة يمكن أن يولِّد لديه ذكريات زائفة. وفيما يخص تنقيب مقدِّمي الخدمات النفسية عمّا يعرف بـ«صدمة مكبوتة»، فحتى الآن، لا يوجد دليل مقنع على مفهوم (القمع النفسي للذكريات). في الواقع، تُظهر الدراسات أن الناس أكثر ميلاً لتذكر الأشياء ذات الشحنة الانفعالية المُؤثرة أو الأحداث الفريدة من نوعها. لكنه من الصعب فحص ودراسة هذه الحالات في ظروفٍ معملية. ولكن هناك دراسات على حالات موثقة، ففي بعض الحالات؛ كمُشاهدة أطفال مقتل أحد الوالدين. أو أحاديث مع قدامى المُحاربين الذين تمَّ توثيق تجاربهم أيضاً، فالاثنتان تجربتان مؤلمتان. هؤلاء الناس لا يستطيعون قمع هذه الخبرات وذكرياتهم عنها، بل العكس هو الصحيح في أغلب الأحيان: لقد عانوا من عدم قدرتهم على «إخراج هذه الصور من رؤوسهم.. وطرد مثل هذه الذكريات المُؤلمة».

إذن ما الفرق بين قمع الذكريات ونسيانها بالفعل؟

- يتناول مفهوم «القمع النفسي» لدى فرويد، الافتراض بأن الأحداث الصادمة والتهديدية يتمُّ قمعها من الوعي، وبالتالي لم يعد بإمكان الشخص الوصول إليها دون مساعدة علاجية، بحيث لا يتذكرها. أما النسيان يعمل بطريقة مختلفة، فإذا نسينا شيئاً ما، فلن نتمكَّن من الوصول إلى وضعيته في الذاكرة بعد الآن، ولكن هذ العملية المعرفية يشوبها قدرٌ من الاختلاف: ففي حالة النسيان، يفقد الإنسان ممر الوصول لهذه الذكريات، بها. وهو ما نسميه «ضياع آثار الذاكرة». من المُرجَّح أن ننسى الأشياء التي لا تهمنا، وكذلك الأحداث الأقلّ تأثيراً علينا شخصياً.



هل تفيد مثل هذه العمليات المُعقَّدة المُتعلِّقة بالذاكرة في كشف الجرائم؟ وهل من المُمكن التمييز بين الذكريات الكاذبة والحقيقية؟

عندما تلعب الذكريات، أي أقوال الشهود، دوراً رئيسياً في المُحاكمات، يصبح الأمر صعباً. في بعض الأحيان، تُقام الدعاوى القضائية بعد سنوات من وقوع الحادث، ما يجعل الأمر أكثر تعقيداً. لذلك غالباً ما تكون إفادات الشهود غير دقيقة. والسؤال الذي يطرح نفسه: ما البديل؟ من الجيد دائماً أن تكون أقوال العديد من الأشخاص متطابقة. فعلى سبيل المثال، إذا كان لدى ثلاثة أشخاص لا يعرفون بعضهم البعض، أي لا يمكنهم التأثير على بعضهم البعض في المُحادثات، إفادات وذكريات ليست متشابهة، ولا يوجد دليل موضوعي عليه، نلجأ إلى إصدار ما يعرف بـ«تقرير المصداقية». لكنها، في الواقع، مهمّة صعبة، حيث إنه من الصعب التفريق بشكلٍ موثوق فيه، بين الذكريات الزائفة والحقيقية، خاصّة أن الذكرى الزائفة ليست كذبة. هذا أمر مهمّ جدّاً وجب توضيحه. في حال أدت الذكريات الهشة إلى توليد ذكريات زائفة، يؤمن الإنسان حقاً بهذه الذاكرة، ولا يعرف أنها لا تتوافق مع الواقع. كجزء من أدائنا المهني في تقييم المصداقية، يتمُّ فحص السياق الذي تمَّ فيه الإدلاء بهذه الشهادات بعناية: هل جرى طرح الأسئلة بصورةٍ مفاجئة ومربكة؟ هل كانت هناك أي تأثيرات موحية؟ بالإضافة إلى ذلك، يتمُّ تحليل تطوُّر سياق هذه الشهادات. غالباً ما تزداد الذكريات الزائفة بشكلٍ أكبر وأكثر تفصيلاً بمرور الوقت وتكتسب في كلّ مرّة تفاصيل إضافية. ونادراً ما يكون هذا هو الحال مع الذكريات الحقيقية التي تتسم بالثبات في محتواها..

كثيرون مقتنعون بأن الذكريات هي التي تصنع الإنسان. وأن ما نتذكره هو ما نحن عليه الآن. هل هذا الفكر خاطئ؟ وهل يمكن محو الذكريات الكاذبة؟

- «المحو» كلمة عَصيّة. قد يدرك البعض أنهم صنعوا الصور في رؤوسهم بأنفسهم. وهنا، من الأسهل التعامل مع الذكريات الأقلّ خطورة، أما في الذكريات المُتشابكة مع مسائل إعادة بناء الهويّة وإعطاء تفسيرات مرضية لمحنة البعض، فيصبح الأمر أكثر تعقيداً، ومن الصعب للغاية حتى إدراك أن الذاكرة خاطئة. في الواقع، هناك عبارة كتبها ماكس فريش تقول: «عاجلاً أم آجلاً يخترع الجميع قصصاً يعتبرونها حياتهم».. أتفق معه تماماً في هذه الفرضية.

■ **حوار: سارة تومسك** □ **ترجمة: شيرين ماهر**

المصدر:

https://www.zeit.de/zeit-magazin/leben/2022-05/falsche-erinnerungen-psychologie-aileen-oeberst-interview?fbclid=IwAR2QcFaaTBZZy-tUvZSobf2ipB73DPRVkQLFhD9v2XW9xNKBA2DJSQMAyFI

خوسيه دي فالفيردي:

علينا أن نقوم بتفكيك الأفكار المبتذلة حول العباقرة والموهوبين

بعيداً من توصيف طريقة تمكِّنُ المرء من بلوغ مرتبة الشخص العبقري، يُقدِّم كتاب «أسرار العباقرة» الصادر عن دار النشر (HumenSciences) في شهر أبريل/نيسان (2022)، معرضاً لبورتريهات عدد من الرجال العظماء والنساء العظيمات، ويُحلِّل مساراتهم في ضوء أعمال علم النفس العلمي. إنّ جميع الأشخاص الاستثنائيين لم تكن لديهم الحوافزُ نفسُها: فبالنسبة إلى الشاعر آرثر رامبو، كان يعتمد، في كتاباته، على إشراقات خاطفة، أمّا بالنسبة إلى المهندس هنري فورد، فتمثَّلَ حافزه في العمل الشاقّ. يُبيّن الحوار الذي أُجرِي مع أحد عالِمَي النفس اللذين شاركا في تأليف هذا الكتاب، وهو خوسيه دي فالفيردي، أنه لا يوجد شيء ثابت، من شأنه أن يؤدّي إلى ظهور شخص عبقري أو نضجه، بل إن هناك مزيجاً من الحظّ والمواهب والعمل:





انصبَّ اهتمام عالِم النفس «خوسيه دي فالفيردي» في البحث في مسارات العباقرة من النساء والرجال. فأن يكون المرء مُبدعاً يتطلَّب قدرة هائلة على التركيز، والمثابرة، والثقة بالنفس، وشيئاً من الحظّ. عالِم الأحياء الحائز على جائزة «نوبل» في الطبّ، فرانسوا جاكوب، ومارسيل بروست، وأندريه سيتروين، وبيكاسو، وموزارت كلّ هؤلاء كانوا عباقرة. وكان بعضهم، مثل ليوناردو دافنشي، متعددي الاهتمامات. فعلى سبيل المثال كان فيكتور هوغو -إلى جانب كونه كاتباً- رسّاماً أيضاً. وفي الواقع، إن هؤلاء العباقرة الذين ينشطون في مجالات متعدِّدة، مهددون بالانقراض منذ القرن التاسع عشر. وسواء أكان هؤلاء العباقرة متعدِّدي الاهتمامات أم لا، فقد عرفوا جميعاً كيف يستفيدون، على نحو أمثل، من علامة تجارية مركزية، ضرورية حتى بالنسبة إلى الكائن البشري؛ ألا وهي «القدرة الإبداعية». لقد أوصل العباقرة هذه القدرة الإبداعية إلى ذروتها، فيما ظلّ أغلبنا مقتصرين على تفسير ما تَمَّ اختراعه من قِبَل الآخرين.

لماذا سُلّطت الأضواء كثيراً، في السنوات الأخيرة، على الأشخاص الذين يُسَمَّوْنَ ذوي الإمكانات الفكرية العالية؟

- لأننا مهووسون بالنجاح الاجتماعي، والنجاح المالي. فهناك حديث متكرِّر عن الأطفال الموهوبين الذين تَمَّ اكتشافهم، بسرعة، في محيطهم. يمكن للمرء أن يمتلك قدرات إبداعية دون أن تكون لديه إمكانات عالية، كما يمكن أن يكون لديه مسار دراسي لامع دون أن يسير، جنباً إلى جنب، مع قدرة إبداعية متطوّرة. علينا، إذاً، أن نقوم بتفكيك الأفكار المبتذلة حول العباقرة والموهوبين؛ فأن يكون المرء ذكيّاً لا يكفي لمعرفة كيفية تحمّله للمخاطر، وهو أمر يقوم به العباقرة. ولا بدَّ، هنا، من التذكير بأن الوالدين والمحيط والأجواء التي نطوِّر أنفسنا في ظلّها، تظلّ مهمّة للغاية. ففي الوقت الحاضر، وداخل كتب التنمية الشخصية، يتمّ بيع قوائم بما يجب فعله، وما لا يجب فعله: دعونا نفصل أنفسنا عنهم، فلا نصبح ضحايا الكمال، والسعادة الإلزامية.

هل يمتلك جميع العباقرة قدرات إبداعية؟

- إن القدرة الإبداعية متوافرة عند جميع

العباقرة، وفي كلّ شكل من أشكال العبقرية، سواء العلمية أو الفنيّة، تكمن هناك رغبة في الإبداع. إن جميع العباقرة لديهم سمات شخصية أساسية: فبالإضافة إلى المعرفة والحافز والبيئة التي تحتضنهم، لديهم قدرة هائلة على التركيز والمثابرة. وعلى الرغم من أننا نمتلك قاطبة هذه المكوِّنات، لا نصبح كلُّنا بيير وماري كوري: فالعبقرية، إذاً، ليست في متناول الجميع.

ما نوع العلاقة الخاصّة التي تربط الأشخاص الاستثنائيين بالغموض، والتي يتحكَّم بها هؤلاء؟

- يتعلق الأمر بالقدرة على الانفتاح على المعلومات التي تبدو متناقضة؛ فأن يتمكّن المرء من التعامل مع التناقض وعدم الانسجام الواضح، تلك ميزة خاصّة. إننا، في معظم الأحيان، نتصوَّر الأشياء بطريقة متجانسة. على سبيل المثال، عندما تَمَّ اكتشاف الحمض النووي ADN، في عام (1953)، كان من الضروري قبول بنيته اللولبية المزدوجة، والتي لم تكن واضحة بشكل مسبق.

هل يعرف العباقرة الفشل؟

- بالتأكيد. توماس إديسون، بالمناسبة، كان يتباهى بأنه فشل لمئات المرّات قبل أن يكتشف المصباح الكهربائي. إن الطريقة التي ننظر بها إلى الفشل هي على قدر كبير من الأهمِّية. وقد خصَّص (شارل بيبان - Charles Pépin) كتاباً لهذا الموضوع، عنوانه «فضائل الفشل»، وصدر عن دار نشر (Allary)، سنة (2016)، كما، كان ستيف جوبز يركّز على إخفاقاته، بل إنه اتَّخذها موضوعاً لمحاضرة ألقاها على طلّاب جامعة ستانفورد، بكاليفورنيا، عام (2005). وأوَّل فشل تعرَّض له ستيف جوبز هو أنه لم يتمكّن من إنهاء دراسته، ثم تعرّض للطرد من قِبَل شركة آبل، وهي الشركة التي أسَّسها مع ستيف ووزنياك في عام (1976).

هل الشعور بالاطمئنان شرط ضروريّ لكي يصبح المرء عبقرياً؟

لدى العباقرة، في الواقع، (أنا) متطوِّرة جدّاً، وثقة عالية بالنفس، توفِّران لهم ضرباً من الحماية عندما يواجهون عدداً من العقبات، وبدونهما لا يمكنهم مواجهة الكثير من المخاطر، خاصّةً إذا كانوا يعملون في التخصُّصات الفنِّيّة، حيث يسود الشكّ وعدم اليقين: يُفْصِحُ الرسّامون والموسيقيون والكُتّاب عن جملة من الشكوك التي تساورهم في أوقات معيَّنة، ولكن يجب ألّا نثابر طويلاً في مواجهة صعوبة ما، بل علينا أن نعرف كيف نأخذ الواقع بعين الاعتبار. لدى العباقرة معرفة فوقية تسمح لهم بمعرفة كيفية تحقيق التوازن بين التخلّي عن الأشياء والإصرار في الحصول عليها.

هل تمثِّل الكآبة المصيرَ الحتميّ للعبقرية؟

- ليس بالضرورة، لكنها كذلك في كثير من الأحيان. بعض العباقرة معرَّضون، بشدّة، للأمراض العقلية، ويوجد لديهم ميل إلى الهشاشة النفسية. لِنُلْقِ، على سبيل المثال، نظرة على غوته أو روبرت شومان أو جيرارد دي نيرفال أو فيرجينيا وولف أو فرانسيس بيكون أو نيكولا دي ستايل.. هل كان من المتوقَّع أن يكون فان جوخ رسّاماً رائعاً لو أنه كان أكثر سعادةً؟ لسنا متيقِّنين من ذلك.

يسعى كتابكم إلى تشجيع القدرة الإبداعية أكثر ممّا يدَّعي أنه يخلق عباقرة.

- الشخص العبقري ليس محبوساً في برج عاجيّ، منعزلاً عن عالَم من المفترض أنه طبيعي، بل إن لديه نقاط قوّة يشترك فيها مع الآخرين، لكنه تمكَّنَ من تنظيمها على النحو الأمثل، فقد عرف كيف يقوم بغَرْبَلة العديد من الأفكار الجيِّدة، وتطوير أفضلها. على المرء أن يقوم باتّخاذ عدد من الخيارات، ودون أن يشتِّت تفكيره، وأن ينتقل من الأقوال إلى الأفعال. ويجب ألّا تظل الإمكانات دون استثمار. وعلى النقيض مما نجده في الكتب المدرسية لعلم النفس الإيجابي، فإننا لسنا بصدد إصدار أوامر قضائية، بل نؤكّد على نصيب من الحظّ والصدْفة اللذين يتخلَّلان كلّ مسار. لا يصبح المرء عبقرياً من خلال اتِّباع وصفات محدَّدة، ولكن من الممكن، ربَّما، أن نتيح بعض الفرص، أو أن نساعد الآخرين على أن يصبحوا عباقرة. يستهدف الكتاب، بشكل خاصّ، الأساتذة؛ إذ يمكنهم تشجيع طلّابهم على التمتُّع باستقلاليَّتهم، وعلى العمل من أجل تطويرها، وهو ما لم يخطِّط له نظام التعليم الفرنسي إلى الآن.

من المثير للدهشة أنكم لا تذكرون سيغموند فرويد. على الرغم من أن كتابه «ذكرى طفولة لليوناردو دافنشي» مكرَّس لشجرة عائلة رسّام الموناليزا! بالإضافة إلى ذلك، لا يظهر مصطلح «اللاوعي» في كتابكم. ما سبب ذلك؟

- لم ننطلق من زاوية التحليل النفسي في تأليف كتابنا هذا، لكن التحليل النفسي يظلّ حاضراً في خلفيّة عملنا. واليوم، يتمّ بناء عدد من الجسور بين هذا المجال من مجالات المعرفة وبين العلوم المعرفية، فنحن نتناول اللاوعي من خلال العلوم المعرفية؛ وهو ما لا يحول بيننا وبين التحدُّث عن الرغبة والحُلم والبيئة المحيطة (الأسرة، في اصطلاح التحليل النفسي). وعلى الرغم من أن مصطلح «اللاوعي» لا يظهر، بشكل جليّ، في ثنايا الكتاب، من الجدير بالذكر أن عبارة فريديريك نيتشه: «كن ما أنت عليه»، يجب ألّا تحملنا على الاعتقاد بأن النجاح يعتمد على الإرادة وحدها.

■ **حوار: فيرجين بلوش-ليني □ ترجمة: فيصل أبو الطُّفَيْل**

المصدر:

Libération, Lundi 13 Juin 2022, pp. 18-19.

أمام تحدّيات الذكاء الاصطناعيّ

أيّ مستقبل للكتابة الأدبية؟

يقرّ الناقد الأدبي «هارولد بلوم» في كتابه «القلق من التأثير» بأن التأثير يحدث (بين الكتّاب)، دائماً، عن طريق التفسير الخاطئ»، لذلك يتجاهل هؤلاء -عمداً- أسلافهم، ويسيئون تفسيرهم كي تخلو إنتاجاتهم من أيّ تأثير مسبق. وتُعتَبر مراحل القلق عنده فرويدية وغريبة نوعاً ما، تسقط عنها صفة الشمولية، غير أنه يصيب في قوله إن الإبداع مقرون بحالة من القلق. وهو غالباً ما يشبه الكتّاب بعمّال البناء في روما، الذين يبنون فوق شيء ما.

لكن، في العام الماضي، تحوَّل قلقي من التأثير إلى مصدر آخر، هو كيان يدعى (GPT-3). إنه شبكة عصبية اصطناعية، بها أكثر من (175) مليار عنصر، ويشبه دماغاً اصطناعياً بقوّة حوسبة تبلغ (175) مليار رابط (رقم ضعيف مقارنة بالدماغ الذي يتوافر على حوالي (125) تريليون وصلة عصبية)، تَمَّ تطويره من طرف (OpenAI)، بتكلفة ملايين من الدولارات، ومن العمل الحوسبي الخاصّ بالتدريب فقط.

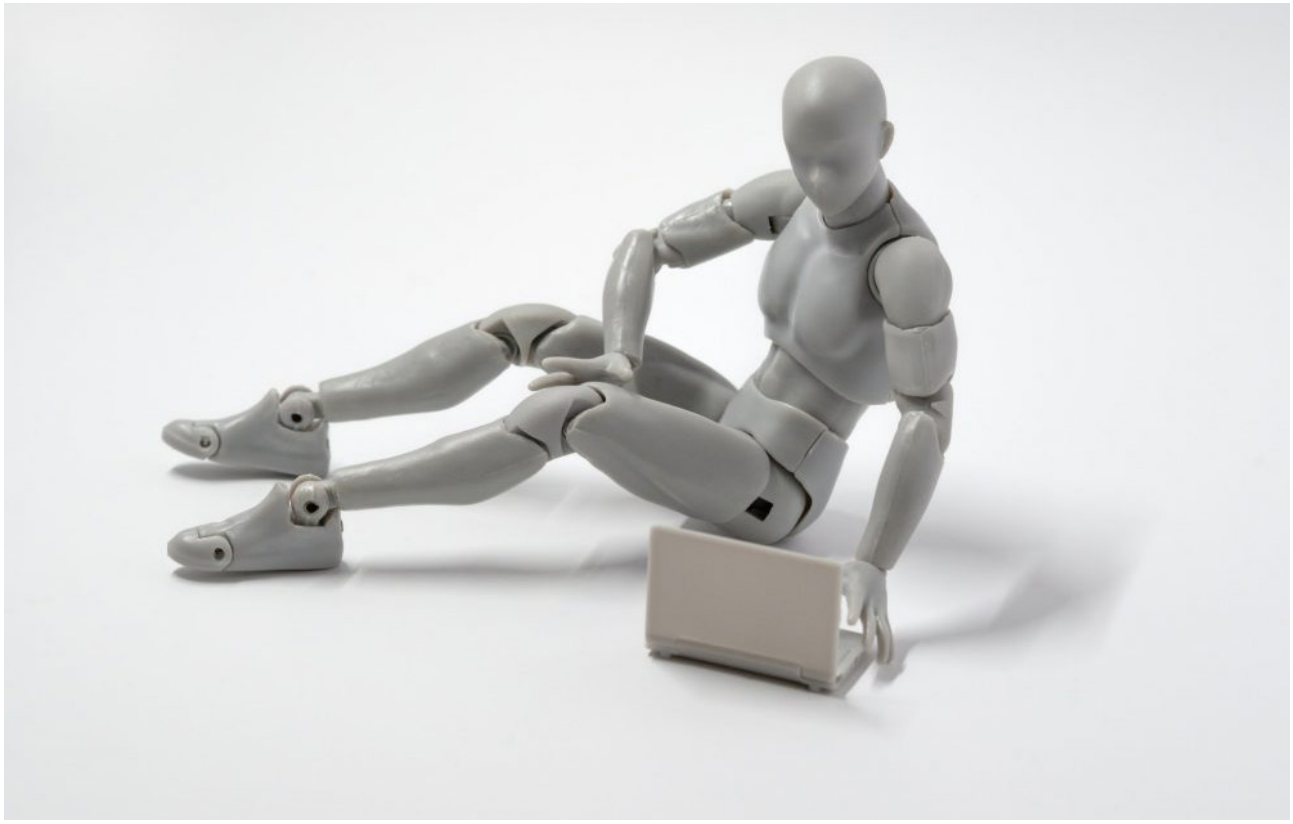
ويعتبر (GPT-3) معالج لغة طبيعي، أي أنه مدرَّب على محاولة إكمال أيّ توجيه يتمّ تقديمه، ويعتمد، في بيانات التدريب الخاصّة به، أساساً، على شبكة الإنترنت، بالكامل، لذلك، عند تقديم بعض التوجيهات، مثل بضع فقرات من النصّ، يعمل على تخمين ما سيأتي. وتُظهر هذه التخمينات أنه يمكنه، حقّاً، الكتابة، بل يمكنه الكتابة بجميع أنواع الأساليب، في كثير من الأحيان، بشكل مقنع مثل المؤلِّف البشري. إن القلق الذي أشعر به تجاهه يختلف عن القلق الذي أشعر به تجاه أيّ كاتب إنسان. أعتقد أنه يمثِّل الضربات التحذيرية الأولى لرجل مهدّد مقابل آلة تنافسه في اللّغة.

ولا يبدو أن الكثيرين، في صناعة النشر، لاحظوا هذا الأمر. إن إضفاء الطابع الأكاديمي على الأدب، وجعله شرط الكتاب الأساسي لتسلُّق التسلسل الهرمي الذي يقودهم، مثلاً، إلى برنامج «ماجيستر الفنون الجميلة» (MFA) الشهير، قد خلق الكثير من الكتّاب غير المبالين بالتكنولوجيا والعلوم؛ لذلك أشكّ في أن الكثيرين في المجتمع الأدبي يهتمّون بكيفية تغيُّر الأشياء بالنسبة إليهم حيث يتمّ دفع حدود التعلُّم العميق إلى أبعد من ذلك.

في مواجهة قلقي المباشر، قرَّرت أن أرى ما إذا كان بإمكان (GPT-3) كتابة روايتي الأولى، الموسومة بـ«ذي ريفيلايشن». لأثبت لنفسي، أنه لا داعي للقلق (بل هناك داعٍ). يتطلَّب ولوج هذا «البرنامج» موافقات مختلفة، وهي تجربة تمنح التفاعل معه صفة النبوءة، ذلك لأن المرء يتواصل بدماغ المجرّة المستضاف على خادم، يتمّ التحكُّم به بإحكام. قمت بتزويده بالملخَّص الذي يوجد على غلاف الرواية، ما منحه إحساساً بمن أكون، وكيف يحاكيني في الكتابة، وبعد ذلك، وتفادياً لإخضاع التجربة لأي نوع من التحيُّز، اخترت، عشوائياً، بضع فقرات من روايتي، وجدتها مناسبة للمقارنة، فوقع الاختيار على مشهد قصير في منتصف الرواية.

كانت «كارمن»، العالمة الشابّة، تتابع من تعتقد أنه قتل أحد زملائها في مترو أنفاق مدينة نيويورك. أصبحت الأحداث المحيطة بالتحقيق أكثر غرابةً وغموضاً بمرور الوقت، وهي غير قادرة، الآن، على إحراز أيّ تقدُّم، فهي تراقب محطّة مترو الأنفاق في وقت متأخِّر من الليل. في ظلّ الأجواء المتوتِّرة التي تعيشها، والمكالمات الهاتفية الغامضة التي كانت تتلقّاها من أرقام غير مسجَّلة منذ أن بدأت التحقيق، بدأت تخشى رؤية شيء غير إنساني. ها هي النسخة الأصلية:

في النهاية، يصبح الناس أقلّ عدداً. في وقت متأخِّر من الليل، يبدأ عقلها في تخيُّل السيناريوهات، لتؤدّي أدوارها بشكل متكرِّر في حلقة، كما لو أن جزءاً منها يتحدّى حدوث شيء ما، في انتظار شيء خطير. وبدلاً من ذلك، بدأ الليل في التأخُّر والناس في التناقص، حتى صارت القطارات، بأكملها، تمرّ وتفتح أبوابها دون



أن تدخل أو تخرج منها أيّ روح. وأصبحت «كارمن» نصف خائفة من المنصّة الطويلة الخطيرة بجوارها، التي تمتدّ إلى هذا العالم الجوفي... يتضمَّن السيناريو الذي تتخيَّله مخلوقاً، شيئاً ضخماً ورشيقاً، شيئاً برأس حيوان، يطلّ من الجانب إلى الخارج، فوق المنصّة، ربّما هو رأس ثور، يحدِّق بها، ينفتح فمه على مصراعَيْه، ويلهث، وعيناه معتمتان تنظران إليها بشهوانية، وفي النهاية تصبح الصورة أقوى، والتوقّعات أشدّ، إلى درجة أنها، فجأةً، انطلقت فارَّةً من مقعدها الخشبي، مفزوعة، مندفعة نحو البوّابات الدوّارة، تنظر، باستمرار، حولها حتى تصل إلى سطح الأمان.

أمّا فيما يخصّ نسخة (GTP-3)، قد تَمَّ تغذية الفقرة السابقة بكلمة «مخلوق»، ويتولّى البرنامج الكتابة حيث النصّ مكتوب بالخطّ العريض:

وأصبحت «كارمن» نصف خائفة من المنصّة الطويلة الخطيرة بجوارها، التي تمتدّ إلى هذا العالم الجوفي ... يتضمَّن السيناريو الذي تتخيّله مخلوقاً زحف من جحر في الأرض، كائن ضخم بعينَيْن صغيرتَيْن، وأذرع طويلة وقصيرة... لكن هذا لم يكن حلماً، أليس كذلك؟ كادت رياح القطارات المارّة تسقطها أرضاً، وقبل أن تعرف ذلك، خرجت مسرعةً من مترو الأنفاق، صاعدةً الدرَج، عبر البوّابات الدوارة، إلى الشارع، تركض على الرصيف، أنفاسها تلهث.. يرتفع الصوت حتى يبلغ جوفها، وحذاؤها الرياضي يضرب على الأسفلت. صار كل شيء مجرَّد ضباب الآن. شخص ما يحضر نظاماً موسيقياً، ينظر إلى الأعلى، كلب ينبح وينتزع رباطه، زوجان عجوزان يمشيان يداً بيد، ينظران إلى الأعلى.. لكنّ أحداً لم يلاحظها، والمدينة تنبض، وتتنفَّس، وتزفر.

للحصول على هذه الفقرة، قدّمت بعض التوجيهات فقط، وتخلّصت من أوّل نتيجتيَنْ، وحذفت بعض بنود المحاولة الثالثة للبرنامج. استغرق الأمر حوالي خمس دقائق. لم أضف شيئاً، إنها نسخة كاملة من البرنامج. آلة ماردة لديها الجرأة لكتابة كتابي.

لا شكّ في أن هذا النثر الصناعي يشوبه عيوب. أذرع طويلة وقصيرة! الرياح القادمة من مترو الأنفاق ليست قويّة بما يكفي لتُسقِط شخصاً ما أرضاً. يغمر «كارمن» الرعب في هذا الإصدار، بدلاً من مجرَّد الخوف والتوتّر. كما أن تلك الجملة، حيث يتبيَّن ما إن كان هذا حلماً، لا تستخدم قواعد نحوية. إلّا أنه يجب أن يبدأ أيّ كاتب في الشعور ببعض القلق من الذكاء الاصطناعي عند قراءة هذا المنتوج. هناك عدد من التقنيات الأدبية المتقدِّمة التي يستخدمها البرنامج. يعني استخدام الجمل التتابعية من دون روابط حول رحلة «كارمن»، أن البرنامج يعرف أن هذا النمط مناسب لوصف الشخصيات المتحرِّكة. أمّا الانقطاع في السرد فيُستعمل لإبطاء حركة الأشخاص الذين لا يلاحظون فرار «كارمن»، وهذا أسلوب جيّد أيضاً، إنه ذو طابع سينمائي، يجعل القارئ يركِّز على المدينة.

كان السطر الأخير: «والمدينة تنبض، تتنفَّس، تزفر»، بالتأكيد، شيئاً كنت سأكتبه. إنها تناسب جوّ الرواية،

التي تعتبر مدينة نيويورك مثل جهازها الذي يمتلك وعياً بطيئاً. إن هذه العبارة ذاتها مناسبة جدّاً للرواية التي شعرت بأنها حافلة بالذكريات. بعد البحث في نصّ الكتاب، عثرت على عبارة مماثلة، «المدينة تستنشق، وتزفر في رياح صاخبة عظيمة»، تصف عاصفة علقت الشخصيّات بها، فيما أصبح ليلة القتل. بالتأكيد، لم يسبق للبرنامج أن اطّلع على هذا القسم من الكتاب، إلّا أن مجرَّد التفكير في أن الذكاء الاصطناعي استنتج كتابة الجملة أعلاه، اعتماداً، فقط، على العيّنة التي قدّمتها، ومن الملخَّص، هو أمر غريب.

يسعدني أن أبلِّغ عن استمرار وجود مشكلات في (GPT-3): لديها مساحة محدودة للمدخلات وللمخرجات، فقط حوالي 1500 كلمة، كما أن تزويدها بأحداث متشعِّبة يجعل المنتوج غير متماسك. لا يزال الذكاء الاصطناعي بحاجة إلى محرّر بشري لربطه بالواقع، لكنه كاتبٌ مسوَّدةٍ أولى جيّد، ذو إنتاجات قصيرة، خاصّة أنه يمكن أن يولد فقرات أسرع من الإنسان بحوالي ألف مرّة. ما عليك سوى النقر، وستجد النصّ الذي يمكنك الاختيار منه، والاختيار من بينه. لا أرغب في الكتابة بهذه الطريقة، لكن من المؤكّد أن الآخرين سيستخدمونه مؤلّفاً مشاركاً، وقد يؤدّي ذلك إلى تحسين كتبهم بشكل شرعي.

بعيداً عن المساعد الاصطناعي، يجب أن يقلق الكُتَّاب، بجدّيّة، بشأن (GPT-4) بصفته منافساً مباشراً. أمّا عندما تنتشر (GPT-5)، فيجب أن يشعروا بالرهبة. وهنا يكمن لبّ هذا القلق التكنولوجي الجديد: طبيعته الحتمية. ليس من المفيد أن يتمّ تصوُّر مستقبل ما بعد العمل في كثير من الأحيان، حيث يقوم الذكاء الاصطناعي بالعمل كلّه؛ ما يترك البشر أحراراً في قضاء أيّامهم في صناعة الفنّ. ولكن، ماذا لو كان الذكاء الاصطناعي أفضل في صنع الفنّ، أيضاً؟

هل يعتبر هذا الإخراج «فنّاً»؟ كلمات الذكاء الاصطناعي ليس لها قصد. فقط، العقول الواعية تنتج المعنى. يشبه هذا، إلى حَدٍّ ما، القرود اللامتناهية التي كتبت هراءً لانهائياً، وفي النهاية، أنتجت قصيدة «سيلفيا بلاث». قد يجادل المرء بأن وعي المراقب هو الذي يعطي معنًى للفنّ، لا الوعي بصفته منتجاً فنّيّاً، ولكن الردّ على ذلك هو أن أيّ معنى، هنا، هو مجرَّد توهُّم الأطياف - إنه مثل رؤية الوجوه فوق الصخور، على المريخ. إنه تزييف عميق للمعنى. بهذه الطريقة، يسلبنا الذكاء الاصطناعي كلماتنا عن طريق إضعاف أو تمييع أهمّيَّتها. تعطينا هذه البرامج جملاً ذات بناء مثالي، لكن بدون محتوى دلالي مقصود؛ وهو شيء سمَّيته «نهاية العالم الدلالية».

كما هو الحال الآن، لم يتمكَّن (GPT-3) من كتابة «ذي ريفيلايشن»، حتى مع وجود يد تحريرية وازنة. يمكن



أن يسهم، بالتأكيد، في عدد من المشاهد والعبارات ذات الصلة. ربَّما -كما نأمل- أن يكون البرنامج جيّداً كمعالجات اللّغة الطبيعية. قد يحتاج، دائماً، إلى إدارة دقيقة، أو قد لا يحتاج. أمّا وضع الشعراء فهو أسوأ بكثير، لأن كلّ الأشياء التي يكافح البرنامج من أجلها، مثل التماسك طويل المدى، والسببية، ومعرفة الذوق العامّ، وتطوير الشخصية، وما إلى ذلك، كلّها أشياء، نادراً ما تكون مهمّة في القصائد. الشيء نفسه بالنسبة إلى كتاب الأغاني. مثلاً، قام الذكاء الاصطناعي بكتابة كلمات الأغنية الجذّابة «الغرق في الشمس» لفرقة «نيرفانا» عبر تدريبه على أعمالهم القديمة.

كيف سيكون رعب «بلوم» إذا كان توجيه بسيط لـ(GPT-X) يولد في المستقبل «سونيتة» شكسبير جديدة ومثالية؟ ما القلق الذي سيشعر به الشويعر أو كاتب متواضع؟. قد يصرِّح بعض المؤلّفين بأن هذا لا يهمّ، وأن هويّتهم هي التي تجعل المنتج مميّزاً، لا المنتج نفسه. لكن ما سيشعر به صانع اللّغة الصادق -الشخص الذي يهتمّ باللّغة باعتبارها لغة- هو القلق، ذاك النوع الذي يصيب بالشلل التامّ.

لا أقول إن الكتّاب تحت تهديد وجودي من (GPT-3). وقد لا يؤثّر هذا البرنامج أو غيره، بطريقة أو بأخرى، على الأدب، إطلاقاً. لكن وجودهم، فحسب، بالضرورة، سيجعل الإنتاج البشري للفنّ ضئيلاً.

■ **إيريك هويل** □ **ترجمة: أحمد منصور**

العنوان الأصلي والمصدر:

Erik Hoel. I Got an Artificial Intelligence to Write My Novel
https://electricliterature.com/i-got-an-artificial-intelligence-to-write-my-novel/

صدر في

كتاب الدوحة









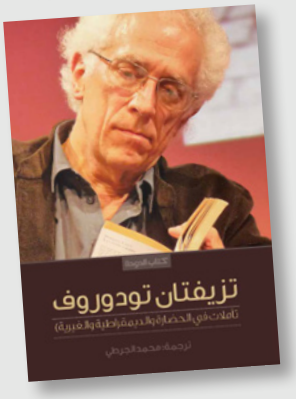
































كيف يُشكِّل الواقع الافتراضي عالمَنا؟
مجتمعات هلامية وفوضوية!

لا يختلف اثنان بأنَّ واقعنا يعاني من مشاكل كثيرة. حروب، مجاعة، أمراض، ضرائب، تراكمات غير مرغوب فيها من شعر الحيوانات الأليفة. ولكن إذا نظرت إلى العَالَم بعدسة بعض أكبر شركات التكنولوجيا في العَالَم، ستتبيّن مشكلةً أعمق وأهم بكثير: ليس هناك ما يكفي من الهولوغرام (holograms) أو الصور المجسَّمة.

منذ الأيام الأولى لثورة التكنولوجيا الحديثة -ظهور أجهزة الكمبيوتر والوصلات في فترة ما بَعد الحرب، والتي أتاحت لنا الإنترنت والبريد الإلكتروني وأجهزة الآيفون ولعبة «فارم فل» (Farmville)- حلم علماء التكنولوجيا وكُتَّاب الخيال العلمي بعَالَم من الهولوغرام: معلومات وأشياء افتراضية ثلاثية الأبعاد تطفو في الفضاء من حولك، أو فضاءات جديدة تماماً من الأثير الرقمي يمكنك استكشافها والتفاعل معها.

كانت هذه فكرة غامضة متعدِّدة التخصُّصات. من السهل التفكير في الهولوغرام كمجرد تقنية عرض متقدِّمة، مثل أجهزة التليفزيون وشاشات الكمبيوتر. إنها أعمق من ذلك بكثير. للتفاعل بسلاسة مع الكائنات في الفضاء ثلاثي الأبعاد، حتى في أبسط الطرق -لنَقُل، الالتفات لمُشاهدة شيء ما من زاوية مختلفة- لا يتطلب العرض الحصول على معلومات حول الخصائص الفيزيائية لمُحيطك فقط، وإنما تتبُّع ما أنت بصدد مشاهدته وبأي أداة، ثمَّ تتكيَّف وفقاً لذلك.

وهذا ينطبق أيضاً على الصوت، الذي يختلف بدقة بناءً على عوامل مثل كتلة وملمس الأشياء في غرفتك بالإضافة إلى درجة إمالة رأسك وموقعه. عيناك وأذناك عبارة عن أجهزة استشعار، تكتشف قدراً هائلاً من المعلومات حول العَالَم من حولك، يقوم ذهنك بعد ذلك بفك شفرتها ومعالجتها وتوليفها في وقتٍ فعلي. أضف لمسة، وستتعاظم تحديات القياس الحسي أكثر فأكثر. لإنشاء عالَم غنّي بالتفاعل الافتراضي، ستحتاج إلى تقنية لتتبُّع نطاق الإدراك البشري وقياسه.

بطريقةٍ ما، هذه مشكلة فلسفية بقدر ما هي تحدٍ تكنولوجي. ماذا يعني أن ترى، تسمع، تلمس، تتصل، وتتواصل - للتفاعل مع الواقع من حولنا؟ ما طبيعة هذا الواقع أصلاً؟ وما طبيعة، الإنسان، مثله مثل الوجود؟ لا تتردّد في سحب نَفَس عميق من دخان بونغ قبل المُتابعة.

على أي حال، ليس لدينا هذا النوع من الهولوغرام حتى الآن. ولكن في أكتوبر/تشرين الأول 2021، أعلن مؤسّس (فيسبوك) «مارك زوكربيرج» أنه ملتزم بحل مشكلة الهولوغرام بشكلٍ نهائي.

لم يسمها مشكِّلة هولوغرام، لأنه لا أحد يسميها كذلك. بدلاً من ذلك، قال إن (فيسبوك) -عملاق منصّات التواصل الاجتماعي الذي انتقل خلال عقدين من الزمن من موقع ويب يمكّنك من نشر صور الحفلات و«لفت انتباه» زميلك في الكلية في صفحته على (فيسبوك) إلى نظام ثقافي وسياسي شاسع ومثير للجدل على الإنترنت، كان يعتبر على نطاقٍ واسع بأنه تهديد جذري للديموقراطية وفضاء مناسب لبيع أريكة قديمة- سيخصّص موارده الكبيرة لبناء ما يُعرف بـ«ميتافيرس metaverse»، وسيغيّر اسم الشركة إلى «ميتا Meta».

في عرض تقديمي مطوّل تضاعف كبكرة تجريبية للمنتجات، بعضها سيظهر قريباً، والبعض الآخر افتراضي، كشف «زوكربيرج» عن رؤيته لـ«ميتافيرس»، وهي شبكة من الأماكن الافتراضية وشبه الافتراضية للعمل واللعب والشراء والبيع والتجارة، والتواصل مع الأصدقاء. ستكون هناك ألعاب فيديو واجتماعات وتدريبات وأنشطة أخرى من كل الأنواع.

طرح «زوكربيرج» رؤيته على أنها متعاطفة وإنسانية ومتحرّرة وخيال علمي. في «ميتافيرس»، يمكنك أن تأخذ شكل نسخة واقعية من نفسك، تتفاعل مع نسخة واقعية من شقتك، أو يمكن أن يكون لديك اجتماع للمُوظفين في الفضاء بينما تتقمص شخصية روبوت راقص. يمكنك ركوب موجة كنسخة كرتونية من نفسك أو تلكم مخلوقاً

خيالياً في حلبة ملاكمة سحرية. حتى أنه ستكون هناك حيوانات أليفة متعدِّدة الأضلاع متهوّرة، ويفترض أنها خالية من شعر الحيوانات الأليفة غير المرغوب فيه.

في كل تجربة، هناك الكثير من الهولوغرام / الصور المُجسَّمة: الصناديق اللامعة المُتوهجة بالضوء الافتراضي وبطاقات عرض المعلومات تطفو في الفضاء. وسيتمُّ تمثيلك بنفسك في العديد من الوضعيات الافتراضية للعرض التوضيحي بنوع من الهولوغرام: «صورة رمزية»، أو صورة ملف شخصي شديدة التخصيص، والتي قد تشبهك، أو قد تبدو مثل جراد البحر، أو قد تتحوَّل ذهاباً وإياباً حسب الحالة.

يمكنك أن تشعر بالإثارة في طريقة التسويق التي اختارها «زوكربيرج» بثراءٍ وتكامل. أخيراً، تحقّق الحلم بتجربة غنية بالهولوغرام. كان العرض التقديمي غارقاً في المثالية في مجالٍ التكنولوجيا، ولم يصف «زوكربيرج» بحماس عالماً غامراً بشكلٍ أكبر فحسب، بل أكثر إنسانية، وأكثر قدرة على التواصل بين الناس يمكنهم من العيش والعمل بحرّية.

ولكن كان هناك شيءٌ أكثر من مجرد السخرية بشأن المسألة بأكملها، وليس فقط في استحضار أنظمة معاملات الدفع السهلة. بالطبع، «فيسبوك» -الآن «ميتا»- يرغب في بيع الأشياء، وتسهيل استخدام الآخرين لمنصته لبيع الأشياء. لكن طوال العرض، استمر «زوكربيرج» أيضاً في التذكير بأهمّية القواعد. تضمَّنت ملاحظاته إشارات غامضة بشكلٍ مدروس للمُنظمين وصانعي السياسات والمعايير المُشتَركة لسلوك الشركة المسؤول. كل ذلك، إذا حصل على ما يريد، سيعكس اهتمامات «ميتا» التجارية.

بالكاد تكون الشركة الوحيدة التي كشفت عن نيتها لبناء «ميتافيرس». من الواضح أن شركات البرمجيات العملاقة مثل مايكروسوفت وشركة إنتاج ألعاب الفيديو (Epic) قد أعلنت عن جهودٍ كبيرة. لكن العلامات التجارية التي يبدو أنها لا علاقة لها بالتكنولوجيا -منتجي مواد تنظيف الأطباق، على سبيل المثال- قد طالبت أيضاً بإنشاء تجربة «ميتافيرس» كتمارين تسويقية. للأسف، الهولوغرام لن تقوم بتنظيف الأطباق والأواني الزجاجية. لكنهم قد يسوقون لك مواد التنظيف.

منذ فجر الإنترنت، كان عمالقة التكنولوجيا يطمحون إلى تعطيل الصناعات القديمة، من سيارات الأجرة إلى خدمة توصيل البيتزا إلى المُكالمات الجماعية إلى اصطياد الشقق إلى قول «يو» لأصدقائك. (حقاً. في عام 2014، كان هناك تطبيق يسمَّى Yo مهمّته: إرسال كلمة yo إلى شخصٍ آخر. وقد حصل على 1.5 مليون دولار من التمويل الاستثماري).

لكن «ميتافيرس» أكبر من ذلك. إنها محاولة لتعطيل طبيعة الواقع نفسه - لاستبداله، أو على الأقل تعزيزه، بمُحاكاة رقمية للواقع، تكون أكثر مرونةً وأكثر تخصيصاً. توفّر رؤية لعَالَم أكثر إشراقاً متصل بتقنيات حسية حرّة الحركة تسهِّل التفاعل البشري والخبرة، تمَّ تصميمها وإدارتها من الألف إلى الياء من قِبَل مستخدمين مفوضين لتشكيل المواقع من حولهم ومشاركتها.

في الوقت نفسه، تطرح «ميتافيرس» رؤية لواقع عبر الاتصال الوسيط بالكامل يكون أكثر ملاءمةً لأشكال التجارة الرقمية والإعلانات غير المألوفة، رؤية يسعى أشد مناصريها إلى إدارتها بشكلٍ استباقي والتلاعب بدور الحكومة عبر استيعابه منذ البداية. إنها منافسة، بعبارة أخرى، تصوّران متنافسان ومتناقضان ظاهرياً للتكنولوجيا الاجتماعية، الأول حول التحرُّر، والثاني حول التحكُّم.

من الواضح أن لهذين التصوُّران بُعدَ نظر (في الغالب).

من واقع افتراضي إلى سايبربانك

أول شيء يجب فهمه عن «ميتافيرس» هو أنه ليس مجرد واقع افتراضي - ذلك الشيء الذي ترتدي فيه نظارات إلكترونية وتظهر فيه كالأحمق وأنت «بداخله»، ثم تتحسّس طريقك في الهواء كالأبله في نظر كل مَنْ يمكنه رؤيتك في العَالَم الحقيقي. إن «ميتافيرس»، كما كتب الرأسمالي الاستثماري «ماثيو بول» في كتاب تمهيدي طويل عبر الإنترنت حول الموضوع، عبارة عن شبكة مترابطة من التقنيات، بما في ذلك قدرة الشبكات المُنتشرة في كل مكان، ومعالجة الدفوعات الرقمية، والحوسبة المحمولة، والهويات الافتراضية القابلة للمُشاركة، والتي لا يمكن أن تشمل فقط صورتك الرمزية ولكن محفظتك الرقمية وشبكاتك الاجتماعية وأشكالاً أخرى متنوِّعة من المعلومات الشخصية.

لكن «ميتافيرس» ليس واقعاً افتراضياً أيضاً. من شبه المُؤكد أن يرتدي المُستخدمون نظارات واقية ذات مظهر أخرق على الأقل لبعض الوقت. وحتى تفهم من أين يأتي «ميتافيرس»، عليك أن تفهم كيف نشأ الواقع الافتراضي، بما في ذلك الثقافة الخارجية الخاصة التي أنتجها.

مثلما لا توجد نقطة انطلاق محدّدة للإنترنت، تسلّل الواقع الافتراضي إلى العَالَم ببطء، وهو نتاج تكراري للعديد من خطوط البحث المُختلفة. ولكن إذا كان علينا اختيار نقطة واحدة، فسنبدأ بالستينيات، مع عالِم الكمبيوتر الأسطوري «إيفان ساذرلاند» والجهاز الذي أصبح يُعرَف باسم «سيف داموكليس».

في عام 1963، طوَّر «إيفان ساذرلاند Sketchpad» (لوحة الرسم)، وهو برنامج رسم رقمي بدائي ولكنه ثوري. باستخدام هذا البرنامج، يمكن لليد البشرية تتبُّع الضوء الذي يظهر على الشاشة. كان أول برنامج على الإطلاق يستخدم واجهة رسومية.

أصبحت الواجهات الرسومية شائعة الآن: يمكنك استخدامها كل يوم على أجهزة تتراوح من الهواتف إلى السيارات إلى الثلاجات. لكن في الأيام الأولى للحوسبة،

لم تكن موجودة. تفاعل المُستخدمون مع أجهزة الكمبيوتر من خلال الشفرات الغامضة والبطاقات المثقبة من الورق، التي كان يتمُّ التعامل معها أحياناً بواسطة وسطاء بشريين مدربين، بحيث لا يتفاعل معظم الناس، حتى العلماء الذين يعتمدون على حسابات الكمبيوتر، بشكلٍ مباشر مع أجهزة الكمبيوتر على الإطلاق. أظهر برنامج «Sketchpad» أن الناس لا يمكن أن يتفاعلوا مباشرةً مع العَالَم الرقمي فحسب، ولكنهم يستطيعون القيام بذلك لإنتاج أشكال فنّية، وليس معادلات فقط.

في أواخر الستينيات، أتبع «ساذرلاند» برنامج «Sketch-pad» بجهاز تفاعل رسومي ثوري آخر، يمكن القول جهاز ثوري. كان عبارة عن مجموعة من النظارات الواقية - شاشة مثبَّتة على الرأس معلَّقة على دعامة بالسقف المتصل بجهاز كمبيوتر. يقوم النظام بتتبُّع حركة المُستخدم، ويمكن للأشخاص الذين استخدموا النظارات الواقية رؤية صور أساسية للغاية (ولكن لم يسبق لها مثيل في ذلك الوقت) تمَّ إنشاؤها بواسطة الكمبيوتر وهي تسبح في الغرفة. إذا قمت بتحريك رأسك، يمكنك أن ترى ما يحيط بالصورة من عدّة جوانب وزوايا. مكعبات مرسومة بخط تسبح في الهواء وبأبعاد في الظاهر. بدا وكأن المُكعب كان هناك حقاً.



من الناحية الفنّية، كان هذا شكلاً من أشكال الواقع المعزّز، المعروف أيضاً باسم الواقع المختلط، الذي يمزج بين الواقع والافتراضي. لكن هذه الفوارق بالكاد يتم تمييزها في ذلك الوقت. الفكرة الأساسية هي أنه في وقتٍ مبكّر من عام 1969، اخترع «ساذرلاند» نظاماً بدائياً ولكنه وظيفي لمُشاهدة الصور المجسمة - كما خمنت ذلك.

لم يكن «سيف داموكليس» آلية المشاهدة. كان نظام تتبُّع الحركة الثقيل الذي عُلّق بشكلٍ غير مستقر على المُحرِّك فوق رأس العارض. ومن هنا كانت التسمية، في إشارة إلى المثل الروماني القديم عن عضو في البلاط أراد أن يحكم مكان الملك. وافق الملك على تبديل الأماكن ليوم واحد، وأجلسه على أريكة ذهبية وأمر الخدم بتلبية كل طلباته. لكن الملك أيضاً علّق سيفاً فوق رأسه، مذكراً إياه بأن القوة الهائلة مقترنة بتهديد دائم.

عندما أدخل «ساذرلاند» تقنية الواقع الافتراضي المُبكِّرة إلى العَالَم، لم تكن هناك قوة هائلة بعد. ولكن كان هناك شعورٌ بإمكانية غير محدودة للتحرُّر الكامل الذي يمكن أن تحققه التكنولوجيا. لأنه داخل المكعب الافتراضي العائم الذي يرسمه كانت هناك إمكانية لعَالَم قد يتغيّر فيه للواقع، أو على الأقل تصوّر الواقع، بمجرد نزوة.

مع تطوُّر شبكات الكمبيوتر بسرعة خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، ظهرت فكرة جديدة: لا يمكنك إعادة تشكيل الواقع بنفسك فقط، ولكن يمكنك مشاركة هذا الواقع الجديد مع أشخاص آخرين. ولا يسمح لك الواقع الافتراضي بتعزيز العَالَم الحالي فحسب؛ وإنما يتيح لك إنشاء عالَم آخر جديد تماماً، وهو ما يتيح لك الحرية الفردية والاتصال المُجتمعي.

في السنوات التي أعقبت اختراع «ساذرلاند»، ساهمت فكرة الواقع الافتراضي في إلهام وتحفيز مجتمع حقيقي لوادي السيلكون من المُخترعين وأصحاب الرؤى والمتحيلين والرواد ورجال الأعمال. وارتبط هذا الجهد بثقافة القرصنة الوليدة ومُثُلها الراديكالية، والتي جمعت وربطت بين عمليات هندسة عصر الفضاء بنكهات مختلفة من الليبرتارية، والنقابية، والطائفية، وما بَعد الإنسانية، والعصر الجديد «الهبي ديبي وو»، وموسيقى المخدرات، والسمو الروحي والتقني، ودعاة حماية البيئة الراديكاليين، وأي شيء آخر يحدث من خلال الثقافة المُضادة بكاليفورنيا في ذلك الوقت. أطلق «تيموثي ليري» على الواقع الافتراضي تسمية «إل. إس. دي. الرقمي» (digi-tal LCD). وقارنه آخرون بحلم جماعي واضح، عالَم بلا قواعد، حدوده الوحيدة هو الخيال.

في مذكراته لعام 2017 يروي «جارون لانير»، مؤسّس أول شركة للواقع الافتراضي وأحد أكثر الشخصيات نفوذاً في وسائل الإعلام، «فجر كل شيء جديد»، كيف أن حتى بعض الأشخاص قد أقاموا «حفلات الواقع الافتراضي»،

حيث تـمَّ تزييـن الغـرف لتبـدو وكأنهـا بيئـات افتراضيـة متعـدِّدة الأضـلاع ربمـا تكـون موجـودة فـي النهايـة. كان النـاس في أمس الحاجـة إلى عالَم مشترك مليء بالصور المجسّمة لدرجـة أنهـم علّقـوا دعامـات مـن الـورق المقـوّى في أماكـن الحفلات لتخيُّل كيـف سيشـعرون يوماً مـا.

لكـن التكنولوجيـا الفعليـة كانـت بطيئـة فـي تطوُّرهـا. ومفاهيـم الواقـع الافتراضـي قـد تمَّ استكشـافها ونشـرها في الغالـب مـن خـلال الخيـال العلمـي، الـذي لـم يكـن مقيداً بالضوابـط التكنولوجيـة.

في عام 1984، نشـرَ ويليام جيبسـون كتاب «نيورومانسـر Neuromancer»، وهـو مزيـج «نيـو نويـر» مـن الخيـال البوليسـي السـاخر، وسخرية فن الروك، وأساطير القراصنة المُبكّرة - عبارة عن تصوُّر لـ«Blade Runner» بواسطة فرقة «Television» - التـي سـاعدت فـي تحديد الحالـة المزاجية وثيمـات النـوع الـذي نعرفـه الآن باسـم السـايبربانك. أمـا أكبـر مسـاهمة مؤكّـدة للكِتـاب فـي الثقافـة الشـعبية فكانت عبـارة: (الفضـاء السـيبرانيِ). ولـم يكـن الجـزء الأكثـر أهمية فـي مصطلـح جيبسـون الجديـد هـو البادئـة -سـيبر- التـي يتـمُّ إسـاءة اسـتخدامها غالبـاً، بـل كان المُصطلـح الـذي تـمَّ تعديلـه: (فضـاء). لـم يكـن الواقـع الافتراضـي مجـرد مظهـر أو أسـلوب أو موقـف. كان مكانـاً يمكـن أن يـزوره كل مـن يرغـب فـي ذلـك.

اسـتمرت فكـرة الواقع الافتراضي كبيئـة مجتمعية، تحمل تسـمية الآن VR، وانتشـرت طـوال العقـد. تضمَّنـت سلسـلة الخيـال العلمـي «Star Trek: The Next Generation» غرفـة ألعـاب واقـع افتراضـي قابلـة للتعديـل بـلا حـدود والتـي يمكـن أن تسـتوعب ألعـاب تقمـص الأدوار المُعقـدة، والاستكشـاف التاريخـي، والاسـترخاء فـي البيئـة الغريبـة، وغيرهـا مـن التجـارب الحسـية الكاملـة، دون الحاجـة إلـى نظـارات واقيـة.

وبطبيعـة الحـال، كانت تسمَّى «Holodeck»: وهو مكان يمكـن لطاقـم المركبـة الفضائيـة «إنتربرايـز» زيارتـه لتجربـة هولوغـرام جماعي.

من مفهوم إلى نموذج تمهيدي

فـي أوائل التسـعينيات، بدأت المفاهيم الأساسـية للواقع الافتراضـي بالاندمـاج مـع تقنيـة جديدة أخرى: شـبكة الويب العالميـة. كانـت شـبكات الكمبيوتـر موجـودة منـذ سـنوات فـي شـكل «Usenet» ولوحـات رسـائل أخـرى عبـر الإنترنت، لكـن قاعـدة المُسـتخدمين كانت صغيـرة نسـبياً، وتتألف من مجموعة منتقاة ذاتياً من الأكاديميين والمُهتمّين بالكمبيوتر والمُتحمّسـين. وفّـر الويـب الاتصـال بالمنـازل العاديـة فـي جميـع أنحـاء العَالَـم، وذلـك مـن خـلال واجهة مرئية سـهلة الاسـتخدام - نوافـذ متصفـح تعرض نصاً تشـعبياً، وارتباطات تشـعبية، وصـوراً.

كانـت شـبكة الويـب المبكـرة بدائيـة إلـى حـدٍّ مـا. ولكـن منـذ نشـأتها، كان بإمـكان المُفكِّريـن البارعيـن فـي مجـال التكنولوجيـا ملاحظـة إمكاناتهـا. يمكـن ربـط الجميـع بعَالَـم مشـترك مـن المعلومـات والاتصـالات. ومـاذا لـو قامت، بدل ربـط الأشـخاص مـن خلال نصـوص وروابـط وصور أساسـية، بتوصيلهـم مـن خـلال تمثيـلات الفضـاء الرقمـي المُشـترك - طبقـة واسـعة وقابلـة للتلاعب مـن الواقـع الافتراضي، يمكن الوصـول إليهـا لأي شـخص متّصـل، فوق الكـون المادي نحن جميعـاً نشـارك بالفعـل.

«ميتا»، على القمة.. قد تسميها «ميتافيرس».

فـي الواقـع، هـذا هـو بالضبط ما قام به «نيل ستيفنسـون» فـي روايتـه الخياليـة التنبؤيـة المُضحكـة والمُسـلية والمُؤثرة بشـكلٍ لا يصدَّق «Snow Crash» عام (1992)، والتي وصفت عالَمـاً رقميـاً آخـر مترامـي الأطـراف، حيـث يتفاعـل النـاس مـن خـلال الصـور الرمزيـة -بدائل رسـومية لذواتهـم المادية- بجـودة متنوِّعة، اعتماداً على المبلغ الذي يدفعه الأشـخاص مقابل اتصالاتهم.

لـم يكـن «Snow Crash» مجـرد كتـاب تمهيـدي علـى «ميتافيـرس». مـن بيـن أمور أخـرى، كان بمثابة نقـد تفصيلي للسياسـة اللاسـلطوية، حيـث تفسـح الحكومـة المنكوبـة الطريـق لمُجتمـع مخصخـص بالكامـل. كان «ميتافيـرس» أشـبه بهـروب مـن ذلـك الواقـع، عالَـم لـه ثقافتـه الفوضويـة ولغتـه الخاصـة - عالَـم لـم يمـضِ وقـتٌ طويـل حتـى يبـدأ النـاس فـي واقعنـا بمحاولـة بنائـه.

بينمـا كان الخيـالُ العلمـي يستكشـف إمكانـات الواقـع الافتراضـي، كانـت التكنولوجيـا الأساسـية تلحـق بالركـب تدريجيـاً. فـي أوائـل الثمانينيـات، أسّـس «لانيـر» «VPL Re-search»، وهـي شـركة مكرّسـة بالكامـل للواقـع الافتراضي.

كان «لانيـر» (ولا يـزال) رجـل اسـتعراض، غريـب الأطـوار ومتعـدِّد الثقافـات. نشـأ «لانيـر»، نجـل كاتـب عمـود علمي فـي مجـلات الخيـال العلمـي، فـي منـزل قبّـة علـى طـراز الخيـال العلمـي صمّمـه بنفسـه عندمـا كان مراهقـاً وبنـاه مـع والـده، وكان لاعبـاً مهووسـاً وجامعـاً للآلات الغامضـة. فـي أوائـل الثمانينيـات، صمَّم لعبـة فيديـو، «Moondust»، ضمـن أطروحـة تخـرُّج بمدرسـة فنّيـة. كانـت تتميَّـز بنظـام تحكـم طبيعـي غيـر مألـوف، فـي لعبـة فيديـو أولاً، وفـي موسـيقى تسـتجيب بشـكلٍ عضوي لعناصر تحكم المُسـتخدم والرسـومات علـى الشاشـة.

كان «لانيـر» عنصـراً أساسـياً فـي مشـهد الثقافـة المُضادة للواقـع الافتراضـي بـوادي السـيليكون، حيـث كان يقـدِّم «محادثـات الواقـع الافتراضـي» المُنتظمـة التـي كانـت تـدور، كما يذكـر فـي «فجـر كل شـيء جديـد»، حـول «أفكار الطفولـة المُبكِّـرة، وفهـم حيـوان رأسـي الأرجـل، وكيـف يمكـن للإنسـانية تدميـر نفسـها مـا لـم ينغمـس الفـنّ أكثـر وأكثـر فـي المُسـتقبل». لقـد تخيّـل الواقـع الافتراضـي كأداة للاتصـال والإبـداع، أشـبه فضـاء مـا بَعـد اللغـة مشـكّل مـن الرمـوز التفاعليـة والبيئـات الرقميـة المرنـة بلا حـدود. إعادة

تشكيل الواقع في الواقع الافتراضي سيكون مثل تشغيل المُوسيقى. وفي إحدى المُحادثات التي أعيدت طباعتها في كتابه قال «لانير»: «تخيّل يوماً ما ستكون هناك واجهات مستخدم لإنشاء أشياء جديدة في الواقع الافتراضي تعمل بشكلٍ جيد، وسريع كالآلات المُوسيقية اليوم».

لا محالة، قامت شركة «VPL» بصُنع نظارات واقية بشكلها المُنفِّر. وابتكرت قفازات تسمح للمُستخدمين بالتلاعب بالأشياء في الفضاء الافتراضي، وصمّمت برامج وأجهزة تتبُّع حسّية. أبهرت عروضها التجريبية الغامرة المُتابعين: أظهر غلاف أكتوبر/تشرين الأول 1987 لمجلة «Scientific American» أحد قفازات الواقع الافتراضي لـ«VPL» بجانب تمثيلها الرسومي، جنباً إلى جنب مع عبارة «الثورة التالية في أجهزة الكمبيوتر».

لكن منتجات «VPL» كانت مرهقة ومكلفة - مجموعة الواقع الافتراضي ذات الأسعار المعقولة والتي لم يتم طرحها في السوق كان من المفترض أن يبلغ سعرها 75000 دولار. وفي أوائل التسعينيات، تخلّى «لانير» عن الشركة بسبب خلافات داخلية حول طبيعة توجهها.

وفي عام 2003 فقط وضع أحد الأشخاص ما يشبه الفكرة الكاملة للـ«ميتافيرس» موضع التنفيذ، في مكان تجمع افتراضي يسمَّى «الحياة الثانية - Second Life». حتى ذلك الحين، كان الأمر يتعلَّق بشاشة مسطّحة تماماً، بدلاً من محاكاة الواقع الافتراضي الغامرة التي تخيلها «ستيفنسون» و«لانير» وآخرون. تتميَّز «Second Life» بواجهة تشبه اللعبة، حيث تنتقل الصور الرمزية التي يتحكَّم فيها المُستخدم عبر بيئات افتراضية مترامية الأطراف. يمكن للصور الرمزية مواكبة الأحداث، وإجراء محادثات، والتسكّع مع الأصدقاء والغرباء، والتصرُّف بشكلٍ عام كمُواطنين في بلدٍ افتراضي مشترك. كانت هناك تجارة وصداقة وتعليم وترفيه.

لم تكن بالضبط «ميتافيرس» كما تصوَّرها «نيل ستيفنسون»، لكنها استخدمت بعضاً من نفس اللّغة والمفاهيم. تضمَّن كتاب «لانير» كلمات لطيفة عن فكره المُوجّه ذاتياً، مشيداً بتأكيده على مشاركة المُستخدم و«الاقتصاد الذي يقدِّر قيمة الفرد». لم يكن الأمر خيالياً، لكنه كان مثالياً، ونشأ من نظرة عالمية متفائلة بشكلٍ أساسي والتي كانت تعتبر التعاون والتنسيق الفردي، والتوجيه الذاتي والتنظيم الذاتي، مفتاحاً للتقدُّم البشري.

كانت «Second Life» أشبه بالنموذج الأولي، عرضاً توضيحياً جماعياً غير كامل لتجمّع افتراضي موجَّه من القاعدة إلى القمة، يحكمه الأفراد، ويركِّز على التجارة والمُجتمع.

وعلى غرار شركة «لانير» (VPL)، أثارت «Second Life» ضجة في الصحافة. في بعض الأحيان، كانت الشركة تتباهى بما يصل إلى مليون مستخدم. والجدير بالذكر أن المُبدعين نفوا أن يكونوا قد ابتكروا لعبة، لأنها لا تحتوي على أهداف من أعلى إلى أسفل. كانت مساحة اجتماعية يضبط المُستخدمون أهدافها. وفي عوض «اللاعبين»، كان هناك «سكان»، لأن «Second Life» كان مجتمعاً افتراضياً.

ولكن اتضح أن معظم الناس يفضلون الألعاب. وهذا هو المكان الذي تبلورت فيه بالفعل فكرة «ميتافيرس» في شكله الحالي.

من فورتنايت إلى فيراري

بَعد ما يقرب من 20 عاماً، بدأ «ميتافيرس» الفعلي -أو شيء مشابه جداً- في الظهور. سماعات الواقع الافتراضي ليست منتشرة في كل مكان كأجهزة الآيفون، لكن يمكنك الحصول على واحدة مناسبة مقابل بضع مئات من الدولارات وسماعات رائعة مقابل أكثر قليلاً من سعر كمبيوتر الألعاب المُتطوِّر.

ومع ذلك، أصبح من الواضح أن «ميتافيرس»، خاصة في مرحلته المُبكِّرة الحالية، لا يعتمد بشكلٍ صارم على الواقع الافتراضي - ليس عندما تكون لدينا هواتف ذكية وشبكات جوال فائقة السرعة ومعالجات دفع عبر الإنترنت وعملة مشفرة، وربما الأهم من ذلك، مجتمعات ألعاب الفيديو الجماعية القائمة على ألعاب مثل «فورتنايت» و«بوكيمون غو». بفضل هذه التطوُّرات، فإنَّ الحلمَ بعَالَم متصل، واقع رقمي مشترك، سلس وجميل وبديهي كأداة، بدأ في التشكُّل أخيراً، مع أو بدون نظارات دون ذوق.

تشتهر شركة «رافاييلا كاميرا» بلعبتها الشهيرة على الإنترنت «فورتنايت Fortnite»، عبر تبادل إطلاق النار بين عدّة لاعبين، وعلى نطاقٍ واسع، ثمَّ تطوَّرت إلى عرض افتراضي للاعبين الأصغر سناً في الغالب. «Epic» هي واحدة من شركات عديدة تحاول بناء التقنية التأسيسية لـ«ميتافيرس»، وقد استضافت «فورتنايت» أحداثاً ضخمة داخل اللعبة، من حفل موسيقي افتراضي يضم مغني الراب «ترافيس سكوت» إلى العرض الترويجي الأول لفيلم كريستوفر نولان «Tenet»، الذي يتجاوز نطاق لعبة الفيديو التقليدية.

وعلى عكس «Second Life»، من الواضح جداً أن «فورتنايت» هي لعبة مبنية على تجربة موجَّهة من أعلى إلى أسفل تمَّ إعدادها للمُستخدمين من قِبَل مدراء الشركات. ورغم ذلك، فقد تطوَّر جمهورها انطلاقاً من تلك التجربة المُشتركة التي تحرِّكها الأهداف.

لكن «رافاييلا كاميرا» كانت تتحدّث في الغالب عن الأدوات الرقمية للشركة، ومجموعة من منتجات البرامج ومكتبات الأشياء الافتراضية المصمّمة لتمكين أي شخص من إنشاء تجربة خاصة من نوع «ميتافيرس». من الناحية النظرية، قد يعني ذلك قدرة الأفراد العاديين على السعي وراء أحلامهم. ولكن من الناحية العملية، فإن العلامات التجارية - مثل «Balenciaga»، وهي أول علامة للأزياء الراقية يتمُّ إطلاقها في «فورتنايت»، و«فيراري»، التي

وضعت نماذج رقمية مفصلة للغاية لسياراتها الخارقة داخل ألعاب «Epic» - هي المُستفيدة.

قال «بوليير» إن أحد الإغراءات الأساسية للـ«ميتافيرس» هي إقامة عالَم خالٍ من الإعلانات التقليدية - «عالَم بلا إزعاج». بدلاً من ذلك، سيكون الإعلان غامراً.

يصعب عدم التشكيك في أن «فيسبوك» -آسف يا «ميتا»- يسعى خلف هدف مشابه.

في أوائل عام 2022، أبلغت الشركة المُستثمرين أنها فشلت في تحقيق أهداف الإيرادات المُتوقعة بنحو 10 مليارات دولار. المُشكلة هي أن «فيسبوك» عبارة عن تطبيق. يقوم بجمع بيانات حول مستخدميه، ثمَّ بيع تلك البيانات للعلامات التجارية التي يمكنها استخدامها لجعل إعلاناتها أكثر دقة وتوجيهاً. يمتلك «فيسبوك» رؤى فريدة لقاعدة مستخدميه الكبيرة جداً مما يجعلها ذات قيمة استثنائية للمُعلنين.

لكن التطبيقات تعمل على الأجهزة ويتمُّ الوصول إليها من خلال الأسواق مثل متجر تطبيقات «آبل». في عام 2021، بدأت «آبل» في استجواب المُستخدمين ما إذا كانوا يريدون إيقاف تشغيل التتبُّع داخل التطبيق الذي يوصل إلى إعلانات أكثر تخصيصاً. قام غالبية المُستخدمين بإيقاف تشغيل التتبُّع. اتضح حينها أن سيطرة «آبل» على نظام الأجهزة والبرامج كان «سيف داموكليس» معلّقاً فوق رأس «زوكربيرج».

«ميتا» تعتبر نفسها شركةً تهدف لربط الناس. لكن نموذج عملها الفعلي، الطريقة التي تجني بها الأموال، يعتمد على تتبُّع سلوك المُستخدم. بدون تتبُّع البيانات، أصبحت عمليات شراء الإعلانات على نظامها الأساسي أقل أهمّية بكثير. لذلك فقد اعتمدت الشركة تقنية أخرى، في الظاهر، تتعلَّق بالاتصال والتواصل، ولكنها مبنية في جزء كبير منها على أنظمة تتبُّع سلوكية متقدِّمة. للتذكير، فإنَّ الواقع الافتراضي هو تقنية لتتبُّع وقياس الإدراك البشري.

إذا تمَّ تبنيها من قِبَل الجماهير، فإنّ هذه الأنظمة ستمنح «ميتا» بيانات المُستخدم أكثر من أي وقتٍ مضى. وهذه المرة، تريد الشركة التحكُّم في أنظمة الأجهزة والبرامج حتى لا يتمكَّن أي منافس من إيقاف تدفق البيانات. ولهذا الغرض استحوذت «ميتا» على شركة «أوكلوس» (Oculus VR) بقيمة 2 مليار دولار أميركي ونشرت سلسلة من سماعات الواقع الافتراضي ذات الأسعار المعقولة نسبياً للمُستهلكين. ومن ثمَّ، فإن إصرار «زوكربيرج» على أن المُعادلة، كما يتخيلها، لن تتطلب معايير فحسب، بل أيضاً «أشكالاً جديدة من الحكم».

على مدى السنوات العديدة الماضية، واجهت شركة «زوكربيرج» تدقيقاً شديداً من المُشرعين في الكونغرس. الكثير من هذا التدقيق مضلل، ويعتمد على سوء فهم تكنولوجيا الإنترنت بشكلٍ عام، وما يفعله «فيسبوك» على وجه التحديد. لكن استجابة «فيسبوك» تركّز بشكلٍ متزايد على التكييف. في الإعلان وجلسات الاستماع، كان موقف الشركة هو أن الإنترنت يحتاج بالطبع إلى قواعد ولوائح جديدة - وأن «فيسبوك» جاهز ومستعد لمُساعدة المُشرعين والبيروقراطيين في صياغتها.

وهكذا، عندما أوضح أحد المُوظفين مؤخراً في عرض لتقديم «ميتافيرس» بأن «السرعة التي ظهرت بها التقنيات الجديدة جعلت صانعي السياسات والمُنظّمين يلعبون دوراً في اللحاق بالركب»، لم يكن من الصعب تخمين نهاية اللعبة. من خلال جلب المُشرعين والمُنظّمين إلى الحظيرة مبكّراً، تبحث «ميتا» عن مقعد على الطاولة، حيث يمكنها الضغط من أجل القواعد التي ستستفيد منها.

كان «لانير»، الذي يعمل الآن في مايكروسوفت، ينتقد بشكلٍ خاص خطط «ميتا» ونموذج أعمال «فيسبوك»، والذي يعتقد أنه يعتمد على تأجيج الغضب من أجل المُشاركة. «عند الاستماع إلى حديث «مارك زوكربيرج»، يبدو أنه شخص مصاب بجنون العظمة قد أخذ أشيائي وقام بتصفيتها من خلال مرشّح التعظيم الذاتي الغريب. أعني، إنه غريب للغاية»، كما ذكر في بودكاست «Sway» بنيويورك تايمز في نوفمبر/تشرين الثاني 2021، بعد وقتٍ قصير من العرض التقديمي الكبير على «فيسبوك». «الفكرة التي أحملها عنه كانت دائماً أنك ستظهر وستكون مثل 100 مليون من أصحاب المشاريع الصغيرة يقومون بأشيائهم الصغيرة هنا وهناك. ولن يكون هناك سيد أعلى».

لقد تخيَّل رواد الواقع الافتراضي عالَماً حُرّاً من الصور المُجسَّمة المُوسيقية، حيث يبني الناس حقائقهم الخاصة دون توجيه من أعلى إلى أسفل. «ميتا» تريد العكس: عالَم منظّم وتحرِّكه وسائل الإعلام، حيث يتتبع المُعلنون كل تحرُّكاتك.

حلم الهولوغرام متواصل

إذن، هل تُعَدُّ «ميتافيرس» حيلة ساخرة لاستمالة العملية التنظيمية وبيع «تشوتشكي» (tchotchkes) الافتراضية ذات العلامات التجارية؟ نعم. لكن ليس ذلك فقط. إنّ الحلمَ القديم بفضاء افتراضي مشترك، متحرِّر من قيود الواقع المادي ومصمَّم لتحفيز الإبداع، ما زال قائماً إلى حدٍّ كبير.

خُذ مثال «Roblox»، منصة الألعاب الاجتماعية التي تستهدف منذ ظهورها منذ عام 2006 الأطفال بالأساس (رغم أن قاعدة مستخدميها بدأت الآن تتقدَّم في السن). «Roblox» ليست لعبة بحدِّ ذاتها؛ إنه نظام متكامل لصُنع الألعاب ويتيح للمُستخدمين تجربتها. يمكن بعد ذلك بيع الألعاب، حيث تتقاسم الشركة الإيرادات مع المُبدعين.

بعض هذه الألعاب عبارة عن تجارب أكشن ومغامرات تقليدية إلى حدٍّ ما، لكن العديد منها مجرد تجارب، بعيداً عن أهداف ألعاب الفيديو التقليدية. في «Roblox»، يمكنك

زيارة الجزر الاستوائية، وتبنّي حيوانات أليفة افتراضية، وإدارة مطعم بيتزا رقمي، وإنشاء نوادٍ افتراضية سرية أو عامة للتسكع مع أصدقائك.

مثل معظم تجارب النوع لـ«ميتافيرس» اليوم، لا يتطلب الأمر نظارات الواقع الافتراضي -يمكنك الوصول إليها من خلال جهاز كمبيوتر أو هاتف- ولكن يمكنك استخدام سماعة الواقع الافتراضي لإثراء التجربة إذا كنت ترغب في ذلك.

وينتقل بعض مستخدمي «Roblox» من الألعاب الصغيرة والعوالِم الافتراضية إلى أنواع أخرى من الإبداع، مثل المُوسيقى. ابتكر مستخدمو «Roblox» النوع الفرعي الصوتي الخاص بهم، المعروف باسم «Robloxcore»، والذي يتميَّز بأصواتٍ نطاطة تمَّ إنشاؤها رقمياً وأصوات يتمُّ التلاعب بها بواسطة الكمبيوتر تتصادم مع بعضها البعض في ما يشبه مزيجاً من أفضل 40 موسيقى شعبية وموسيقى تصويرية قديمة لألعاب «Nintendo». إنه بالضبط كما تخيلت من قَبل شكل موسيقى البوب للمُراهقين إذا كانت قادمة من عالَم داخل الكمبيوتر.

سيكون من المُبالغة القول إن «Roblox» تمثل عالَماً متحرِّراً بالكامل من الهولوغرام المُوسيقي يحرِّكه المُستخدم. لكنها تقرِّبنا أكثر من هذا المَثل الأعلى.

هذا المقال سلّط الضوء على هولوغرام باعتبارها فكرة سخيفة. لكنها مهمَّة أيضاً، لأنها تمثل عنصراً حيوياً: إمكانية التخصيص الشامل والتحكُّم الفردي.

حيث تتمثل إحدى الأفكار الرئيسية لـ«ميتافيرس» في الحفاظ على الهوية الفردية وتخصيصها.

جانب من هذا الشيء جمالي: يمكن تعديل البيئة الافتراضية، أو الجسم الافتراضي، وتغييرها وفقاً لأهوائك وتفضيلاتك. يمكن أن تتغيّر بناءً على السياق أو الحالة المزاجية. في يوم من الأيام، قد تظهر في عملك كحيوان باندا كرتوني، وفي اليوم التالي كشجرة عملاقة من الخشب الأحمر. قد تظهر كرجل أو امرأة أو كشيء آخر تماماً. يمكنك دمج أطراف افتراضية إضافية أو ذيل؛ من بين الاكتشافات العديدة المُنيرة لبحوث الواقع الافتراضي أن البشر لا يواجهون صعوبة كبيرة في التكيُّف مع الصور الرمزية بإضافات غير بشرية.

لكن الأمر يتعلَّق أيضاً بالبيانات الشخصية: يريد مهندسو «ميتافيرس» أن تكون قادراً على نقل هوياتك الرقمية، من الصور الرمزية الخاصة بك إلى أرقام بطاقتك الائتمانية إلى عمليات تسجيل الدخول إلى خدمة توصيل البقالة، عبر العوالِم الافتراضية.

المبدأ الأساسي للـ«ميتافيرس» -والفكرة الأساسية للواقع الافتراضي- هو أن الناس مختلفون، ولديهم رغبات وتفضيلات مختلفة، وأحياناً حتى في قرارة أنفسهم، ويجب السماح لهم بالوجود في عالَم يحترم هذه الحقيقة.

أحياناً ينتج مثل هذا العَالَم أنواعاً من المُوسيقى لم يسبق لها مثيل وأحداثاً فنية غريبة تحاول إحداث وعي جماعي مكثّف. في بعض الأحيان سيمنحنا «فيراري» افتراضية أو سترة رائعة من علامة تجارية ساخنة. وأحياناً يطلعنا على نادي تعري اصطناعي مع راقصة ثلاثية الأبعاد.

مثلما يصمّم بعض الأشخاص منازل القبة الجيوديسية الخاصة بهم وينتقل آخرون إلى التقسيمات الفرعية لملفات تعريف الارتباط، سيظهر بعض سكّان «ميتافيرس» حصرياً ككيانات ما بَعد الإنسان لا يمكن التعرُّف عليها ويبنون عوالم افتراضية واسعة وغريبة يعيشون فيها، بينما سيختار آخرون صوراً رمزية تشبه إلى حدٍّ كبير أجسادهم الواقعية ويلتزمون في الغالب بالفضاءات الجاهزة، التي صمّمها طرفٌ ثالث للاستخدام الجماعي.

وسيتمُّ إنشاء بعض تجارب «ميتافيرس» من أسفل إلى أعلى بواسطة مجتمعات افتراضية مخصَّصة، فوضوية؛ وسيتمُّ تنظيم التجارب الأخرى من أعلى إلى أسفل، ولكن بطرق تجعل الوصول إلى التجربة سهلاً وفورياً، تماماً كما أتاح «فيسبوك» وسائل التواصل الاجتماعي للجماهير وسنحت الهواتف الذكية بإمكانية التواصل الافتراضي بين الأفراد. سوف تتعايش هاتان الرؤيتان لعَالَم قائم على الهولوغرام، أحياناً في تعارض، وأحياناً أخرى في وئام.

في الواقع، توجد هاتان الرؤيتان بالفعل، في أشكال مختلفة، في الـ«ميتافيرس» البدائي الذي بدأ بالفعل في الظهور وفي ألعاب الفيديو، ووسائل التواصل الاجتماعي، ومؤتمرات الفيديو، والعمل عن بُعد، ودمج مختلف تلك العناصر. تؤدي التجارب المُوجهة والشبيهة باللعبة مثل «فورتنايت» بالفعل إلى مجتمعات منظمة ذاتياً، كما أن مجموعات الأدوات غير المُوجّهة مثل «Roblox» تقوم بالفعل بإنشاء ألعاب فيديو بأهدافٍ معتادة مثل اللعبة.

كلُّ هذا يدور داخل ما يشبه «ميتافيرس» -ميتافيرس حقاً- بنظارات الواقع الافتراضي أو بدونها. وسيستمر مع تجارب «ميتافيرس» المُستقبل، حيث تنمو وتتغيّر وتصبح جزءاً أكبر من حياتنا، مما يجعل الحلم بواقع مضطرب أكثر واقعية من أي وقتٍ مضى.

عندما يتحقّق ذلك، ستكون هناك حدود. حتى الآن، يعد الواقع الافتراضي في الأساس تقنية بصرية وصوتية، مع ردود فعل لمسية محدودة. لا يمكنك تناول كوكتيل في «ميتافيرس» أو مداعبة كلبك. (ومن ثمَّ لن يزعجك شعر الكلاب). وعلى غرار الواقع المادي، الواقع الافتراضي لا يخلو من مشاكل، لكنه يحمل أيضاً الهولوغرام وإمكانات تحرُّرية. وكما هو الحال دائماً، سوف يستفاد البشر قدر الإمكان من إمكانياته.

■ **بيتر سودرمان □ ترجمة: عبدالله بن محمد**

المصدر:
مجلة «Reason» عدد يوليو/تموز 2022



أرشيف الدوحة
https://www.dohamagazine.qa


shutterstock